الأدب في ظل بني بويه

تأليف

محمود غناوى الزهيري

مطبعة الأمانة ٥٨ شارع الفجالة بمصر

مكتبة
لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

طبع بمعونة من وزارة المعارف العراقية

الأدب في ظل بني بويه

تأليف

محمود غناوى الزهيرى

ماجستير فى الآداب (M.A.) من جامعة فؤاد الأول

١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م

الثمن ٥٠ قرشا

مطبعة الأمانة ٥٨ شارع الفجالة بمصر

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

الإهداء

إلى :

أساتذتى الأجلاء فى مصر العزيزة الخالدة . . .

ومدرسى الكرام فى الوطن المحبوب . . .

إلى :

هؤلاء الذين يفنون زهرة العمر فى بناء نهضتنا الفكرية .

أهدى هذا الجهد المتواضع .

مع أسمى آيات الإجلال والإكبار ؟

محمود غناوى الزهيرى

تقـــديم

بقلم حضرة العالم المحقق أستاذنا الكبير أحمد الشايب

أستاذ الأدب العربى بجامعة فؤاد الأول

— ١ —

إذا كان الأصل فى الحياة العلمية أن تدرس مسائلها دراسة موضوعية يضطر فيها الدارس بمقتضى منهجه أن يتحامى عواطفه ومزاجه ، أو يجردها من ملابساتها الزمانية والمكانية والشخصية حرصاً على تحقيق هـذه الموضوعية فى دقة وصفاء ... فإن الأصل فى الحياة الأدبية أن تدرس نصوصها ، نقداً أو تأريخاً ، درساً متصلا بالزمان ، والمكان ، والأدباء ، يضطر فيه الباحث بطبيعة منهجه أن يستلهم عواطفه ومزاجه ليستطيع عرضها كما أنشئت جامعة بين المقومات التى كونتها ذاتية كانت أو موضوعية . . . ذلك أن هذه النصوص الأدبية نفسها إنما كانت ثمرة ذلك التفاعل بين طبيعة الأديب الذى انشأها وبين هذه البيئة التى احتوته طبعية أو زمانية أو ثقافية أو نحوها مما يؤثر فى موضوعات الأدب وأساليبه حتى إذا صدرت هذه النصوص كانت ذلك الفن الذى تناصرت على تكوينه كل هذه العناصر الداخلية والخارجية.

وكان على دارس هذه النصوص ، إذاً ، أن يردها إلى عناصرها هذه أمينا معتمداً على ذوق سليم ، وثقافة عريضة ، ومواهب عالية ، إذ هى وسيلته التى بها ينقد الأدب ويؤرخه . . .ذلك هو الأصل العام لهـذه الدراسات الأدبية التى تنتهى إلى إدراك جمال الأدب ، وتفسيره ، ثم وصف هذا الأدب وصفا ينتهى ليكون تاريخ الأدب .

هذه الدراسات الأدبية ، كما رأيت ، متصلة حتما بالأدباء ، وبالبيئات التى احتوتهم ، وبالأزمنة التى عاشوا فيها وخضعوا لمقوماتها ، ولعل بعض الناس قد غم عليهم ذكر الزمن فى هذا الدرس ومقدار صلته بالأدب ، إنشاء ، ونقداً ، وتاريخا ، فكان لا بد من إشارة إلى هذه الصلة وبيان منزلة الزمان حين يرد ذكره فى هذا المعرض .

لم يقل أحد ، وهو يردد كلمة الزمن فى نقد الأدب وتاريخه : إنه يقف به عند هذه الشهور والسنين الفلكية المجردة التى يتعاقب فيها الليل والنهار وكفى دون ملابسات ما ، بل الزمن فى أبسط صلاته بالأدب يحددالأطوار الفنية التى تتعاقب أو تتعاصر فتكون سلسلة أو صفحات أدبية يكون منها تاريخ الأدب عامة كما يكون فيها وفى كل منها طائفة من الخصائص التى يمتاز بها كل طور من أطوار الأدب .

وفى كل طور نجد البيئة والأديب يتفاعلان دائما فيثمران لنا هذا الأدب الذى ندرسه . نعم وفى حدود البيئة الواحدة يتدخل الزمن فيحدد أطوارها الفنية تحديدا مقاربا على كل حال .

ولذلك كان نقادو الأدب ومؤرخو نقده يضعون نصب أعينهم دائما سير الأدباء ، وبيئاتهم ، والأطوار الزمنية التى تقلبوا فيها ليستطيعوا الإنصاف فى الحكم الفنى والتاريخى جميعا ، ولذلك أيضا أخذ مؤرخو الأدب العربى بمسألة العصور الزمنية أولا حينما كان الأدب أقرب إلى الوحدة ، ولا سيما فى صياغته ، وذلك فى حياة الأدب الأولى ، فى الجاهلية وصدر الإسلام والعصر العباسى الأول ، وهم لا ينسون خلال ذلك درس

البيئات الأدبية والعلمية وخصائصها فى ثنايا تلك العصور وإن لم تكن قد بلغت من الخطورة مبلغها فيما بعد ذلك من عصور .

حتى إذا كان القرن الرابع وقويت الآداب القومية وظهر أثر البيئات واضحا متميزا وبخاصة فى الفنون الأدبيــة وصياغتها أخذ المؤرخون يؤرخون الأدب — بعد هذه النظرة الزمنية العامة — على أنه أدب أقاليم وأوطان أو بيئات كمصر والشام والعراق، والأندلس ، وغيرها ، ثم يلاحظون فى كل إقليم أو بيئة أطوارها التاريخية ، وبيئاتها الفرعية ، ومدارسها الهامة وهكذا ، يرتد الأمر كله ، وفى كل حالة إلى أطوار الأدب نفسه كما تمليها دراسته الفنية فيرصدها الدارس ناقداً أو مؤرخا دون أن يقف بعيداً فيملى عليه ما ليس من طبيعته وحياته . . . فهذه مسألة دراسة الأدب عصوراً وبيئات .

— ٣ —

فإذا تجوزنا بعض الشىء ، أو حققنا بعض الشىء كان الزمن الأدبى هو هذا التطور نفسه الذى يتخذ من الجنس ، والثقافة ، والدين ، والسياسة ، والاقتصاد والاجتماع والبيئة، عناصر ومقومات يكون بها حلقات التاريخ الأدبى وطبقات الأدباء ، فإذا بنا أمام شعوب تخضع لهذه المقومات المتطورة فتثمر لنا أدبا ذا أطوار متعاقبة لكل طور سماته التى يسمى من أجلها عصر النهضة ، أو الجاهلية ، أو العباسيين ، أو ملوك الطوائف ، أو الفاطميين فى مصر ، والحمدانيين فى الشام .

والزمن بهــذا التجوز أو التحقيق أوسع أفقا ، وأعمق معنى، وأقرب إلى طبيعة هذه الدراسات النقدية والتاريخية ، ففيه المكان والجنس ، والثقافة ، وفيه الحاضر والماضى ، وفيه ـ وهو الأهم ـ التطور ، والحركة ،

والحياة ، والتاريخ . . . فيه هذا التواصل أو التوالد الذى ينتظم الحضارة كلها والكون كله، أفليس من الإنصاف ، اذاً ، أن نعرض عن تلك القشور التى يقف عندها اللفظيون ونلقى ذلك الزمن الأدبى كما هو معـــنى ، وعملا ، ومقومات لها آثارها فى التاريخ والاجتماع ؟

وهب أننا وقفنا عند البيئة وحدها وأغلقنا دوننا الأبواب والنوافذ، أيمكن أن نتلقاها ساكنين نتبين من جنباتها مقومات الأدب وخصائصه دون أن نعود ـ فى سبيل ذلك ـ إلى الماضى، الماضى البعيد والقريب، ودون أن ننتقل منها فنفتح الأبواب لنصل إلى غيرها من البيئات ؟

أكان الأدب العربى فى مصر زمن الفاطميين نتاج مصر وحدها زمن الفاطميين ؟ كلا ، هناك فيه ، بل أكثره ،جاهلى ، وإسلامى ، وعراقى ، ومغربى انتهى إلى مصر مع الزمن . . .أكانت دراسة مصر زمن الفاطميين تتم دون أن توازن بغيرها من الأقاليم والأوطان العربيـــة ؟ كلا ، وإلا سجنا أنفسنا ، وبترنا درسنا .

أليس الزمن تراث الماضى تحدر متطورا ملونا بهذه العوامل الفعالة فلا يكاد يستقر فى مكان ما حتى تدفعه عوامل الزمن إلى الاستحالة والحياة جامعا بين التليد والطريف من أسباب هذه الحياة ؟ هذا هو الزمن إن صح تجوزنا أو تحقيقنا ، وهذه هى آثاره العريضـــة ، فهل ضاق بالبيئة أو أنكرها؟ كلا ، ألم يشتملها فتصبح دراستها زمنية جزئية؟ ولكنها ـ كما نرجو ـ دراسة متحركة ، حية ، عميقة ، شاملة متصلة بسواها وإلا فعليها العفاء .

فإذا سألت عن الأدب الأول أيام نشأ وحى ، أين كان زمنه الغابر ، وتطوره المتحرك ؟ قلنا لك : إن هذه النشأة الأولى إنما كانت هى كذلك ثمرة تطور ثقافى بعيد الماضى ، كثير الحلقات، متحرك الخصائص، تناول البيئة ،

والجنس ، والثقافه ، والدين ، واعتمد علـــى الأسباب التى تحيل الحياة وتسير بها قدما دون أن تقف حتى بين جدران البيئة الواحدة.

— ٤ —

ونعود فنقول: إذا كانت هذه الحياة الأدبية تقتضى دارس النصوص أن يعنى بالزمان ، والمكان، والأشخاص ليستطيع نقد هذه النصوص وتاريخها فقد نشأت فى ظل هذا الأصل مناهج دراسية شتى : منها ما يتصل بالنص ذاته ليتبين مافيه من أسباب القوة والجمال وهى دراسة نقدية خالصة تعنى بالجانب الفنى أصالة وإن لم تستغن عن تعرف ملابسات هذا النص أديبا، أو مكانا ، أو زمانا ، ومنها مايتصل بالفن الأدبى كله من حيث إنه صور متتابعة للتعبير عن شعور خاص تتغير بواعثه ومظاهره على مر الأيام وتباين العوامل ، فهى تاريخ الفنون الأدبية ، ودراسة تتصل بالأشخاص من حيث إنهم المصدر المباشر للآثار الأدبية ، فلا بد إذاً من تعرف سيرهم ، ونفسياتهم ، وأمزجتهم ومقدار ما تفاعلوا مع بيئاتهم ، وهى دراسة عريضة لمن يتناولها ، عميقة شاملة ، ودراسة تتصل بالأدب جملة، فى بيئة من البيئات أو طور من الأطوار ، أو فى جميع الأطوار . . . هى تاريخ الأدب كله أو بعضه يصفه الدارس فيضع له هيكلا عاما أو عدة هياكل منهجية ليخلص من ذلك إلى أدب عام فى إقليم أو صور منه متقاربة فى عدة أقاليم أو صور متباينه بحكم البيئات ، أوأطوار متعاقبة على مر العصور ... كل ذلك وهو غارق فى ذلك المعنى الزمنى القائم على التطور كما بينا من قبل .

وإذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك طبعاً ـ وكان تاريخ الأدب العربى طويلا ، عريضا ، عميقا ، فقد اقتضت دراساتنا الجامعية أن نتناوله

من كل وجه ، وأن نوزع ميادينه ومسائله وعلومه بين الأساتذة والدارسين، فكان فى كلية الآداب كرسى الأدب العربى العام الذى يشرف على هذه الدراسات ، ويرقبها ، ويوجهها ، وتفرع منه كرسى الأدب المصرى الوسيط الذى أخذ يعنى بالأدب المصرى منذ الفتح الإسلامى إلى عصرنا الحديث ، ثم أنشىء كرسى الأدب العربى الحديث باسم المرحوم أحمد شوقى لتناول الأدب من بدء هذه النهضة الحديثة فى الأقطار العربية ، ونحن الآن بصدد إنشاء كرسى للأدب الأندلسى ... وهكذا حتى يتم لنا تمثيل وتمثل هذه الجوانب الدراسية جملة وتفصيلاً .

— ٥ —

على هذا الأصل العام أخذت الدراسات وجهتها فى كلية الآداب أو فى قسم اللغة العربية منها ، بدأت وئيدة تخطو بأناة وثقة وجد وتوفيق ، حتى إذا استقامت سيقانها أخذت تتسع آفاقها وتتراءى مقوماتها ، وتنتفع بجميع الدراسات فى أقسام الكلية ومعاهدها وقد توافد علينا الطلاب من بلاد الشرق العربى والغرب العربى ، ومن الشرق الإسلامى ، ونحن نغتبط أشد الاغتباط ، والطلاب فرحون معنا بهذه الصلات الأدبية النبيلة التى هى خليقة أن تبعث ما كان لنا من ماض مؤتلف مشتجر العواطف والقلوب ، مشترك الثقافة والآداب ، وأن تقدم لنا جميعاً وللإنسانية تراثاً حضارياً عتيداً ، وعوناً على التقدم صادقاً رفيع البناء .

لذلك أخذ قسم اللغة العربية فى كلية الآداب طلاب الدراسات العليا من سائر الأقطار العربية بالالتفات إلى أوطانهم الخاصة والعناية بها ووقف بحوثهم ، ما استطاعوا ، على تاريخها الأدبى فالعراقيون والشاميون

والحجازيون والتونسيون والهنود والسودانيون وغيرهم ، كل يتخذ من تاريخ أدب اللغة العربية فى بلاده مسألة أو موضوعا يكون بحثه للماجستير أو الدكتوراه ، وقد استجاب الطلاب لهذا التوجيه فرحين ، واستبشر الأساتذة بذلك مطمئنين إلى أن ذلك التوزيع فى الدراسات يفيد الأدب ذاته أولا ، ويفيد الأبحاث والدراسات الجامعية ثانياً ، ويفيد تلك الأقاليم فى خدمة ثقافتها وحضارتها ثالثاً ، ويكون من تلك الأبحاث حين تستوى وتكمل مادة لتأريخ أدب اللغة العربية فى كل عصوره وأقاليمه كما يكون فى هذا التراث المنسق المدروس ما يفيد فى توجيه الأدب الحديث إنشاء ، ونقداً ، وتاريخا .

— ٦ —

هذه بعض الخواطر التى خطرت لى وأنا أحاول تقديم هذه الرسالة للطالب العراقى السيد « محمود غناوى الزهيرى » وهى رسالته للماجستير فى الآداب ، ومن موضوع هذه الرسالة أولا ، ثم موضوع رسالته للدكتوراه ثانيا - نقائض جرير والفرزدق - ترى أن الطالب الكريم كان من أسرع زملائه استجابة لتوجيه الكلية ، ومن أشدهم براً بوطنه الخاص وبتاريخه الأدبى ، ومن أرضاهم نهوضا بقسطه من هذا الواجب العلمى الذى تفرضه على أفرادها أسرتنا الجامعية .

وإذا كانت مهمتى هى تقديم هذه الرسالة فقد فعلت إذ بينت الأصل الذى قامت عليه ، وموضعها من تاريخ الدراسة الجامعية ، ومقدار صلتها باتجاه كاتبها وشعوره بمسئوليته نحو وطنه الخاص العراقى، والعام العربى ، وأما ما فيها من معارف فأمر من شأنك أنت ، تقرأه وتقدره ولا أحب

أن أحول بينك وبينه بطول هذا التقديم الذى لا يعدو أن يكون تمهيداً أضعه بين يديك مفتاحا لهذه الفصول التى تلقاك بعد حين .

أما إذا كنت تريد أن أصل بين هذه الفصول وبين ما قدمنا من تمهيد فأقول لك إن الطالب الكريم قد تحرى لموضوع رسالته القرن الرابع الهجرى حين أخذت الآداب القومية أو الإقليمية الإسلامية تمايز خصائصها وتشتد آثار البيئة فيها ، وكان الأدب البويهى لذلك عنوان موضوعه ، فلاحظ تأثره بعوامل البيئة ، والجنس والزمان ، وكان الزمان عنده عبارة عن المقومات الأدبية التى انحدرت إلى هذه الفترة التاريخية (٣٢١ - ٤٤٧ هـ) من خلال القرون التى سبقتها إسلامية وغير إسلامية ، فاستقرت فى العراق وفارس ، والجبال ، والأهواز ، وكانت من غير شك تطوراً لذلك الأدب العربى الأصيل فى إحدى صوره التى لم تثبت على حالها ، ولم تنفصل عن سوابقها ولواحقها بمقتضى ذلك التطور الزمنى المعروف .

والموضوع كما ترى عريض يقتضى بحثا عريضا ينهض به أكثر من شخص فى مثل هذا المقام الجامعى ، ولكن كاتبنا احتاط فقصر بحثه على الأدب الخاص من وجه ، ثم وقف عند معالمه البارزة من وجه آخر فدرسها درسا دقيقا موفقا أمينا . ولو طاوع نفسه وخضع لأفق الرسالة الواسع وما تستوجب من استقصاء لأنفق من الجهد ، والوقت ، شيئا كثيراً .

أما منهجه الذى رسمه لبحثه فقد وفق فى تطبيقه توفيقا حميداً فى ضوء النصوص التى اختارها ووقف عندها لتكون أحكامه عليها سليمة صحيحة ، ومن طريف ما عنى به حقا تنبهه إلى العامل الاقتصادى ووضعه فى مقدمة العوامل الاجتماعية التى أثرت فى موضوعات الأدب وعناصره أيام البويهيين .

كذلك عني عناية موفقة جديدة فبين مقدار تأثر الأدب بالتقاليد والرسوم والمشاعر ، والأفكار ، والأمزجة التي كان أثرها في الأدب مباشراً ليظفر من وراء ذلك بخصائص الإقليمية الأدبية عصر آل بويه .

وقد استشار طائفة صالحة من المراجع العامة التاريخية والأدبية، والخاصة من دواوين الشعر والرسائل والمقامات والمختارات .

ثم انتهى من بحثه إلى بيان الخصائص الأدبية في عصر البويهيين، فشخص هذا الطور من تاريخ الأدب العربي في حدود هذه الدولة وانتهى إلى مرحلة يحسن السكوت عليها سكوتا علميا موفقا كريما .

— ٧ —

أما بعد فيجب أن أقول للعراق الشقيق: هذا أحد بنيك الأبرار المجدين المتواضعين الذين يشتغلون في صمت وبراءة من السفاسف وتنزه عن الدنايا، يقدم إليك بحثه الأول موفقا في منهجه ومادته ، وإن رسالته هذه أول محاولة علمية منظمة في هذا المجال بلغتنا العربية على ما أذكر ، وقد جعلها خطوة أولى تليها خطوات تكون أشد توفيقا ، في خدمة تاريخك الأدبي وحضارتك العامة ، وإنك حين بعثته ليمثلك في الدرس والتلمذة ، كان من خيار مبعوثيك درسا ، وخلقا ، وفناء في النهوض بما يكلفه، ولعله يكون ، إن شاء الله ، من بين ذلك الرعيل الأول الذي يبني الجامعة العراقية أو كلية الآداب .

ويجب أن أعرف للجامعة المصرية، ولقسم اللغة العربية من كلية الآداب ذلك الجهد الخطير ، والبلاء المضني الذي اضطلع به في إقرار هذه المناهج العلمية السديدة في دراسة أدب اللغة العربية دراسة شاملة ، عميقة، مستقيمة،

وفى إشاعة هذه المناهج فى بلاد الشرق العربى ، فتلك فيما أرى هى المهمة الكبرى لجامعتنا حتى الآن وبعد الآن .

ويجب أن أعرف للشرق العربى والغرب العربى استجابته لدعوة الجامعة المصرية ورسالتها حتى رأينا من ذلك ومن غيره نهضة أصيلة تستيقظ ، ووحدة أدبية تتحقق ، وأملا فى مجد يأتلف من ماض جليل . . . ومستقبل ناهض مجيد .

أحمد الشايب

القاهرة فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٩

مقدمـــــة البحث

بسم الله الرحمـــن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم

وبعد ، فقد كان من نتائج انهيار المملكة الإسلامية وتجزئها أوائل القرن الرابع أن قامت دول وإمارات على أنقاضها فى مختلف الأقاليم الإسلامية ، وقد كانت هـــذه الدول والإمارات تبنى حياتها السياسية والاجتماعية والروحية على أساس جديد ، استمدت مادة بنائه مما ورثته عن الإسلام ، ومما ورثته عن أسلافها قبل الإسلام ، ومما أملته عليها طبيعة بلادها ، محاولة فى هذا البناء أن تلائم وتوافق بين عناصره المختلفة وبين الظروف الخارجية ، حتى إذا تحقق لها ما كانت تصبو إليه من كيان سياسى واجتماعى وروحى كان لها من الأدباء الذين نشأوا فى ظلها من استطاعوا أن يصوروا فى أدبهم جوانب حياتها المادية والروحية .

هـذا ولما كان الأدب كائناً حياً يتأثر بالعوامل السياسية والاجتماعية والطبيعية ويستجيب لها ويتلون بلونها ، فإنه من الطبيعى أن يكون النتاج الأدبى الجديد فى ظل هذه الدول والإمارات المستقلة مختلفا بين إقليم وآخر من حيث الخصائص الفنية والأنواع والأغراض ، بقدر ما كان بين هـذه الأقاليم من اختلاف فى درجات الحضارة والثقافة وفى صور الحيـــاة الاجتماعية والأنظمة السياسية والأحوال الطبيعية فكان من أثر ذلك نشوء الآداب القومية فى هذا العصر ، تلك الآداب التى تجلت فيها آثار الشخصية الإقليمية بوضوح . وآية ذلك تلك الظواهر الأدبية الجديدة التى ظهرت فى إقليم دون آخر أو التى ظهرت فى إقليم ثم انتقلت منه إلى غيره ، مثال ذلك ظهور الخطب الدينيـة فى حلب ، وظهور الموشحات فى الأندلس ،وظهور

المقامات وشعر التسول والأدب المكشوف والأسلوب المحلى بالسجع والبديع فى فارس والعراق .

على أننا لسنا أول من أدرك هذا التمايز والاختلاف بين الآداب الإقليمية ، وإنما سبقنا إليه بعض القدامى ، إذ لاحظوا بعض الظواهر الأدبية والمذاهب الفنية تنشأ فى إقليم معين وتحت ظروف معينة فعللوها بعلل تتصل بالحياة السياسية والاجتماعية وأحوال الأقاليم الطبيعية ، فابن خلكان مثلا يعلل ظهور الخطب الدينية فى حلب بكثرة الحروب والغزوات التى كان يشنها سيف الدولة على الروم (١) ، والثعالبي يعلل الجزالة والفصاحة فى الشعر الشامى بقرب أهل الشام من خطط العرب واختلاطهم بأهل الحجاز، ويعلل أيضا الركة والضعف والفساد فى الشعر العراقى بأنها أثر من آثار مجاورة الأعاجم والمداخلة معهم .(٢)

ويدلنا على تبلور فكرة الإقليمية فى الأدب عند الثعالبي أنه أدار فصول كتابه (يتيمة الدهر) على أساس الأقاليم ، بل على أساس المدن ، وبذلك كان أول من طبق هذه النظرية تطبيقا عمليا .

هذا ، ولما كانت كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول قد جرت فى الأعوام الأخيرة على تشجيع دراسة الآداب القومية إلى جانب تشجيعها الدراسات العربية فإنى رأيت من المناسب أن اختار « الأدب البويهى » موضوعا لرسالة الماجستير ، لأطبق فيه نظرية « الإقليمية فى الأدب » على ما انتجه أدباء فارس والعراق من شعر ونثر فى ظل بنى بويه وفى داخل حدودهم السياسية من عام ٣٢١ إلى عام ٤٤٧ هـ

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٥٦ (٢) اليتيمة ١ : ٦

وقد درست هذا الأدب ، بمعناه الخاص، على اساس نظرية معروفة لدى نقاد الأدب ومؤرخيه ، تذهب إلى أن الأدب مرآة تتركز فيها صور الحياة الاجتماعية والسياسية والطبيعية أو أنه - أى الأدب - تصوير دقيق لمظاهر الحياة وإفصاح عما تثيره هذه المظاهر فى نفس الإنسان من أهواء وخلجات ونزعات، وبعبارة أقرب إلى الإيجاز : إنه رجع وصدى للبيئة العامة . وبدراستى هذا الأدب على هذا الأساس استطعت - إلى حد كبير - أن أعين وأحدد المميزات الشخصية للأدب فى ظل بنى بويه فى فارس والعراق، تلك المميزات التى اكتسبها من بيئته الطبيعية والسياسية والاجتماعية، من هذه المميزات ما يتصل بظهور فنون أدبية جديدة مستقلة ، ومنها ما يتصل بازدهار فنون أدبية قديمة ، ومنها ما يتصل بظهور الزخرفة اللفظية فى الأسلوب والمبالغة المفرطة فى المعانى ، ومنها ما يتصل بظهور الأدب الشعبى وازدهاره .

ولهذا كان لا بد لى من أن ألم بالبيئة العامة فى المملكة البويهية لأستعين بها على فهم أو تفسير الظواهر الأدبية التى ازدهرت أو التى جدت أيام البويهيين فقد كان هناك كثير من الظواهر الأدبية لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا إذا علل بعلل تتصل بالسياسة أو بالاجتماع أو بالطبيعة وسيجد القارئ فى فصول هذا البحث أمثلة كثيرة لذلك . وقد جعلت هذا البحث مبنيا على قسمين وخاتمة، تحدثت فى القسم الأول عن البيئة العامة فألممت بمظاهر البيئة الطبيعية والسياسية والاجتماعية تمهيداً للكلام على الحياة الأدبية فى العصر البويهى وتحدثت فى القسم الثانى عن أثر البيئة العامة فى حياة الأدب والأدباء وما أنتجت من فنون أدبية ، فظهر لى بعد البحث أن الأدب العربى قد تأقلم فى فارس والعراق أيام البويهيين كنتيجة لتأثر الأدباء ببيئتهم العامة تأثراً قوياً ، إذ سيطرت هذه البيئة على مشاعر الأديب البويهى وعواطفه وأفكاره فوجهته

كما تشاء وتهوى بحيث إنه أصبح لا يملك من أمره شيئا ، ولهذا سنراه ، وهو تحت تأثير البيئة الطبيعية ، إما معجباً بالرياض والزهور والمياه والثلوج يتغنى بجمالها وفتنتها وسحرها ، وإما ساخطاً على الحر والبرد والأمطار والحشرات يشكو أذاها وقسوتها . وسنراه ، وهو تحت تأثير البيئة السياسية إما خاضعاً لذوى النفوذ والسلطان متملقاً إياهم ، متمرغاً تحت أقدامهم ، ممتدحاً أفعالهم ، مرضيا رغباتهم ، وإما ثائراً بهم ، ناقما عليهم ، منتقداً حكمهم ، ذاماً سيرتهم. وسنراه أيضا ، وهو تحت تأثير البيئة الاجتماعية ، إما ناعماً ، مترفاً ، يغنى أنغاماً مرحة فى نعيمه وترفه وزهوره ، وإما بائساً محروماً يغنى ألحاناً حزينة فى بؤسه وفقره وحرمانه .

ولهذا كانت أغراض الأدب التى أنتجها هذ الأديب تفجعاً وشكوى ، وتسولا واستجداء ، ومجوناً وخلاعة ، ونوادر ومسليات وطرائف ، وديوانيات وإخوانيات ، وأوصافاً للأشياء العارضة ولمناظر الطبيعة الفاتنة وغير الفاتنة وكانت أيضا مديحا وهجاء ورثاء .

ثم تحدثت فى الخاتمة عن الخصائص الفنية التى امتاز بها هذا الأدب عن غيره من الآداب الإقليمية الأخرى ، ممثلة فى هذا الأسلوب المحلى بالسجع والبديع المبنى على المبالغة والتهويل ، وفى هذا الأسلوب الذى يمتاز بالبساطة والسذاجة .

وبعد ، فهذه محاولة لدراسة الأدب البويهى على أساس إقليمى ، توخيت فيها الإيجاز ورسمت فيها الخطوط الأساسية التى سار فيها الأدب زمن بنى بويه ، معتزما العودة إلى هذا الموضوع متى سنحت الفرصة الملائمة لا تناوله بالبحث على نطاق واسع إن شاء الله ؟

محمود غناوى الزهيرى

الفهرس

القسم الأول في البيئة العامة

الباب الأول

الفصل الأول – البيئة الطبيعية : الأقاليم التي قامت عليها الدولة البويهية، حدودها ، مناخها ، طبيعة أرضها ، نباتاتها ، فواكهها . ٣ - ١٢

الفصل الثاني – الحالة السياسية : انهيار المملكة الإسلامية على يد العناصر الأجنبية ، ظهور بني بويه ، نسبهم ، تكوين دولتهم ، استيلاؤهم على العراق وفارس والجبل والأهواز ، تشيعهم وأثره في موقفهم من الخلفاء ، الحالة الإدارية في عهدهم ، نزعاتهم الفارسية ، استخدامهم الفرس في مناصب الدولة الكبرى . ١٣ - ٣٥

الفصل الثالث – الحالة الاجتماعية : تأثر الحياة الاجتماعية بالتراث الشرقي القديم ، تسرب العادات والتقاليد والأنظمة الفارسية وغيرها إلى المجتمع الإسلامي بعد الفتح العربي ، الظواهر الاجتماعية التي أدت إلى تفسخ المجتمع البويهي ، الحالة الاقتصادية ، الأغنياء والفقراء وأثر الغنى والفقر في حياة الناس . ٣٦ - ٥٥

القسم الثاني في أثر البيئة العامة في الأدب البويهي

الباب الأول - أثر البيئة الطبيعية

تمهيد – أثر الطبيعة في أعضاء الإنسان وأخلاقه وحياته النفسية

وفى إنتاجه الأدبى ، تأثر أدباء الهضبة الإيرانية ببيئتهم الطبيعية قبل العصر البويهى ، ثورة أبى نواس وأضرابه من شعراء الفرس بمناهج الشعر القديم وتعليلها ، انتكاس حركة التجديد على يدى أبى تمام والبحترى فى القرن الثالث وتعليل ذلك ، قيام الإمارات الإسلامية وظهور الآداب الإقليمية ، تأثر أدباء العصر البويهى ببيئتهم الطبيعية وعزوفهم عن الشعر الجاهلى والجزيرة العربية . ٥٨ - ٧٠

الفصل الأول — الطبيعة الصامتة : الرياض والمياه والحر والبرد والرياح والسحب والأمطار والثلوج والفواكه وأثرها فى أدباء العصر البويهى . ٧١ - ١٠٢

الفصل الثانى — الطبيعة الحية : الحيوان والطير والحشرات المؤذية وأثرها فى أدباء العصر البويهى . ١٠٣ - ١١٢

الباب الثانى — أثر الحالة السياسية

نظرة عامة — تأثر الأديب بحالة مجتمعه السياسية والاجتماعية ، تصوير الأدباء لحياة الطبقة الأرستقراطية وإهمال الطبقة العامة ، اتساع مجال الأدب وتنوعه فى العصر البويهى وتعليل ذلك . ١١٣ - ١١٧

الفصل الأول — صلة الأدب بالسياسة فى القرن الرابع : أثر السياسة فى الأدب ، التنافس بين الملوك والوزراء فى العواصم الإسلامية

حول تشجيع الأدباء والعلماء واستخدامهم فى المناصب الحكومية ، تعليل ذلك . ١١٨ — ١٢٥

الفصل الثانى — أثر بنى بويه فى الأدب : تشجيع ملوك آل بويه ووزرائهم للأدب والعلم والفلسفة ، تعدد البيئات العلمية والأدبية بتعدد العواصم ، عضد الدولة ، ابن العميد ، الصاحب ، ابن سعدان ، الوزير المهلبى ، سابور بن أردشير ، وأثرهم فى الحياة الفكرية . ١٢٦ - ١٣٦

الفصل الثالث — الأدب الرسمى : الرسائل الديوانية ، شعر المديح ، استخدامهما فى الدعاية الحكومية وتضليل الشعب عن الواقع ، أشهر الكتاب والشعراء الذين احتشدوا فى قصور الملوك والوزراء ، الأدب المعارض لهذا الأدب الرسمى . ١٣٧ - ١٥١

الفصل الرابع — أثر الروح الفارسى فى الأدب : إحياء الرسوم الفارسية فى هذا العصر ، ليلة الوقود ، تقديس الملوك ، حب الفخفخة والعظمة ، الأعياد ، أثر ذلك فى الأدب ، الأدباء الذين قاوموا هذا اللون من الأدب ، بديع الزمان الهمذانى والشريف الرضى . ١٥٢ - ١٦٩

الفصل الخامس — أثر التشيع فى الأدب : تشجيع البويهيين لظاهرة التشيع ، الطقوس الشيعية الغالية ، أثرها فى الأدب ، أشهر أدباء الشيعة فى هذا العصر ، الطقوس السنية الغالية وأثرها فى الأدب ، أشهر أدباء السنة . ١٧٠ - ١٨٧

الباب الثالث – أثر الحالة الاجتماعية

تمهيــــــد – ١٨٨ - ١٩٩

الفصل الأول – أدب النعيم : البيئات المترفة ، التأنق فى الطعام ، وصف الأطعمة ، التأنق فى مجالس الشراب ، وصفها ، أثرها فى كثرة المقطعات الشعرية ، الإخوانيات ، ازدهارها فى ظل بنى بويه وتعليله . ١٩٠ - ٢٠٨

الفصل الثانى – أدب الحرمان : الكدية والمكدون، بنوساسان ، أشهر شعراء الصعاليك ، الأحنف العكبرى ، وأبو دلف الخزرجى ، المقامات ، تطورها ، مبتدعها ، آراء القدماء والمحدثين فى ذلك ، مناقشة هذه الآراء ، دلالة المقامات على الحياة الاجتماعية ، أدب الشكوى من الظلم والفقر والزمان، أشهر الأدباء الشاكين . ٢٠٩ - ٢٤٧

الفصل الثالث – أدب المجون: طغيان المجون على المجتمع البويهى ، أدب الخمر والغناء، انهماك الناس فى شرب الخمر وسماع الغناء، تعليل ذلك، الغزل بالغلمان والجوارى ، شيوعه بين العامة والخاصة، أشهر الشعراء الذين تغزلوا بالغلمان والجوارى ، أدب المقاذر والفحش ، أشهر الشعراء الماجنين فى زمن بنى بويه ، ابن الحجاج ، ابن سكرة ، تعليل طغيان المجون على المجتمع البويهى. ٢٤٨ - ٢٩٠

(ق)

خاتمة فى خصائص الأدب البويهى - خصائص الأدب البويهى الرفيع ، التأنق فى الأسلوب والمبالغة فى المعانى ، تعليل ذلك . خصائص الأدب البويهى الشعبى .

٢٩١ - ٣٠٤

تنبيـــــه

بالرغم مما بذلنا من جهد قد وقعت بعض الأغلاط المطبعية ، نثبت أهمها فيما يلى :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	١٥	تضايس	تضاريس
٨	٩	البنسفج	البنفسج
١٧	١٤	يحاول	تحاول
٣٠	٢	يتجعل	يتعجل
٣٦	١٣	تقتربا	تقربا
٧٧	٩	شنفا	شغفا
١٠٩	١	فراش	فرش
١٦٦	٢٠	الخلفيه	الخليفة
١٧٩	١١	القوادين	القرادين
١٨٣	١٩	يحتفنى	يتحفنى
١٩٥	٦	الحيفة	الصحيفة
٢٠١	١٣	صعف	ضعف
٢٤٣	١٥	بجارونه	يجارونه
٢٥٦	١٣	افتصح	افتضح
٢٧٥	٧	الأدباد	الأدباء
٢٨٢	١٣	حيا	حييا

القسم الاول
فى
البيئة العامة

الباب الأول

الفصل الأول

البيئة الطبيعية

كانت دولة بنى بويه تسيطر على أربعة أقاليم هى : إقليم الأهواز وإقليم الجبال . واقليم فارس . واقليم العراق ، ومعنى ذلك أنها كانت تشتمل على معظم الهضبة الايرانية والسهول المجاورة لها .

وعلى هذا كان يحدها من الجنوب البحر الهندى وخليج فارس . ومن الشرق اقليم كرمان . ومفازة خراسان ، ومن الشمال جرجان وطبرستان ومن الغرب أذربيجان والموصل وبادية العراق . بيد أن نفوذ البويهيين كان يمتد فى بعض الأحيان الى ماوراء هذه الحدود تبعا لقوة جيوشهم وضعف أعدائهم من السامانيين فى خراسان، والزياريين فى طبرستان، والحمدانيين فى الموصل والجزيرة الفراتية ، ولا سيما فى عهد أعظم ملوكهم عضد الدولة (٣٦٥ — ٣٧٢) الذى وحد المملكة تحت سلطانه ، ثم أضاف اليها طبرستان وجرجان والموصل وكرمان وعمان .

* * *

وتتألف هذه البلاد التى قامت عليها الدولة البويهية (٣٢١ - ٤٤٧) من منطقة جبلية وأخرى سهلية ، وهما بالرغم من اختلافهما فى شكل الأرض

وخصائص المناخ وأنواع النباتات، تكونان وحدة جغرافية متصلة الأجزاء. فهذه السهول التى تبدو أول وهلة غريبة عن الجبال المتاخمة لها ما هى إلا أثر من آثار السيول المنحدرة من أعالى تلك الجبال المشرفة عليها، إذ تحمل معها الأتربة الى البحر فتتراكم فيه فإذا مياهه تنحسر على مر السنين عن أرض سهلة مستوية، قوية الخصب والنماء.

ولعل تشابه الحضارات التى قامت فى هذه البقعة من الأرض، وتأثر بعضها ببعض هما من أقوى الأدلة على وجود هذه الوحدة الجغرافية فليس من شك فى أن حضارة سومر كانت أساسا لحضارة بابل وآشور فى العراق، وأن هذه الحضارات مجتمعة كانت أساسا لحضارة فارس القديمة وأن حضارة فارس هذه كانت أساسا للحضارة الاسلامية فيما بين النهرين.

ونحن إذ نحاول الآن أن نلم بأحوال هذه البلاد الطبيعية لابد لنا من أن نقسمها قسمين:

أولهما: الهضبة الايرانية، وثانيهما: سهول العراق وخوزستان.

أما الهضبة الايرانية فانها تتكون من سلسلة جبال تمتد من الشمال الى الجنوب بانحدار تدريجى حتى تنتهى بالسهول الضيقة على شواطىء الخليج الفارسى والبحر الهندى. وفى هذه المنطقة ترتفع الجبال الشاهقة فى الجو آلافا من الأقدام عن سطح البحر حيث تنخفض درجة الحرارة ويبرد الجو الى درجة عظيمة، وحيث تتحول السحب الى ثلوج تسقط على قنن الجبال وعلى سفوحها وأوديتها فتتراكم طبقات فوق طبقات وذلك فى فصل الشتاء.

ومن الطبيعى أن تلقى الكائنات الحية تحت وطأة هذا الطقس القاسى ألوانا من المشقة والعناء، فتقفر الحقول والمزارع من النبات، وتتعرى الأشجار من الورق، وتهجر الطيور أوطانها إن استطاعت الى الهجرة سبيلا

وتلوذ الحيوانات بالكهوف والغيران. أما الانسان وهو أوسع هذه المخلوقات حيلة وأقواها على مغالبة الطبيعة ، فانه يلجأ الى الدثار والنار والبيوت لعلها تحميه من البرد والبرق والرعد والسيول والعواصف الهوج ، ولكنه مع ذلك يتشقق وجهه من البرد ويسيل أنفه ، وتخضر أطرافه وتتهافت دوابه وتوكف سطوح بيته(١)

وقد عرفت هذه المنطقة بشدة البرد وكثرة الثلوج ولا سيما همذان فهي موصوفة من بين بلدان الجبل بشدة البرد حتى كثر الشعر فى وصفها فمن ذلك قصيدة طويلة لأحمد بن بشار شاعر همذان تصور ما كان يعانيه أهل الجبال من عذاب شديد فى فصل الشتاء الطويل نذكر منها هذه الأبيات (٢)

قد آن من همذان السير فانطلق ... وأرحل على شعث شمل غير متفق
أرض يعذب أهلوها ثمانية ... من الشهور كما عذبت بالدهق (٣)
ثلثى حياتك ماتهنا بنافعة ... الا كما انتفع المجروض بالرمق
اذا ذوى البقل هاجت فى بلادهم ... برد وغلقت الأبواب بالغلق
أما الغنى فمحصور يكابدها ... طول الشتاء مع اليربوع فى نفق
يقول أطبق وأسبل ياغلام فقد ... خشيت أجمد من برد ومن دمق (٤)
والمملقون بها سبحان ربهم ... ماذا يقاسون طول الليل من أرق
تنسد أبوابهم بالثلج فهو لهم ... دون الرتاج رتاج غير منطبق

٭ ٭ ٭

هذا فى فصل الشتاء أما فى فصل الربيع فقد تتغير الأحوال ويتبدل وجه الأرض ، ذلك أن حرارة الشمس فى هذا الفصل تقوى وتزداد ، فيخف

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٣٨٤ (٢) البلدان لابن الفقيه ٢٣١
(٣) الدهق : خشبتان يضيق بهما على ساق المذنبين
(٤) الدمق الريح الشديدة يصحبها ثلج والكلمة فارسية

البرد ، وتذوب الثلوج وتنبعث الحياة فى الكائنات من جديد ،فاذاالانسان يسعى والحيوان يدب ، والطير تنطلق والنبات يتنفس بعد ركود طويل ، فتكثر المروج الخضر ، والغابات المورقة ، والرياض الزاهرة ، حتى قال أحد الهمذانيين مفتخراً على واسطى: «فاذا جاء الربيع فلنا الجنان المتصلة والرياض الخضرة والأنوار الحسنة والأمياه المطردة والأرواح الطيبة والمواضع النزهة ثم لنا من الأنوار والزهر والرياض والغدران ما لا يكون فى بلادكم ولا يعرف عندكم حتى لقد جهد ملوككم وكتابكم وذوو النعمة منكم أن ينبتوه عندهم فى جنانهم وبساتينهم فلم ينبت منها شىء مثل الزعفران والزردلال ... الخ»[1]

وكما أكثر الشعراء فى وصف الشتاء كذلك أكثروا من وصف الربيع ولا سيما ربيع إروند :

ألقى الربيع على إروند هاخلعا ... خضراً وخلعته البيضاء قد نزعا
للماء فيه خرير رجع نغمته ... فى الروض ترجيع نشوان اذا سجعا
اذا الشمال عليه جر أذيله ... حسبته سوق عطر بينها وضعا
فانظر الى بطن أورند البهى ترى ... بابا من الفردوس قد شرعا (٢)

والربيع فى هذه المنطقة الجبلية ما هو الا مقدمة لفصل الصيف الجميل الذى يعتدل فيه الهواء وينمو فيه الزرع ويدر الضرع ويثمر الشجر.

ولجمال الصيف فى هذه البلاد كان ملوك الفرس القدماء يشتون فى العراق ويصطافون فى همذان (اكباتانا) (٣) ، لأنها تقع فى واد خصيب رائع المنظر ترويه مياه الثلوج الذائبة التى تنحدر اليه من المرتفعات وقنن

---

(١) البلدان لابن الفقيه ص ٢٢٥ (٢) نفس المصدر ص ٢٣٥
(٣) الحضارة الاسلامية تأليف متز ٢ : ٣٥٠

الجبال » [١]

ولا يفوتنا أن نذكر بعض ماقال المقدسى فى هذا الاقليم الجبلى فقد وصفه بأنه : « اقليم حشيشه الزعفران ، وشراب أهله العسل والألبان ، وأشجاره الجوز والإتيان ، نزيه بهى ، خصيب ، وله شان ، به الرى الجليلة وهمذان والكورة النفيسة أصبهان ، لا حر به ولا براغيث ، ولا ذبان ولا أفاعى ولا عقارب ولا ديدان ، فى الصيف جنة وروضة وبستان » [٢]

أما جنوب الهضبة الايرانية فقد كان يسمى قديما اقليم فارس ويجعله الجغرافيون القدماء ثلاث مناطق « سرود [٣] وجروم » وما بينهما ، وقد بنوا تقسيمهم هذا على ما لاحظوه من اختلاف المناخ بين أجزاء هذا الاقليم فالصرود باردة حتى ليبلغ من شدة البرد فيها آن لا ينبت عندهم شيء من الفواكه سوى الزرع ، والجروم حارة بحيث يبلغ من شدة الحر فى الصيف الصائف ألا يثبت عندهم شيء من الطيور .

أما المدن التى فى المنطقة الفاصلة بين السرود والجروم ففيها مافيهما من النباتات والأشجار مثل فسا وجور وشيراز وسابور والنوبندجان وكازرون .

ولما كان هذا الاقليم مختلفا فى طقسه وفى تضاريس أرضه أصبح غنيا بمنازهه وفواكهه وحبوبه .

قال المقدسى فى وصفه : « اقليم ترابه معادن وجباله مشاجر وشوكه العنزروت ... به نخل واترج وزيتون وأقصاب وعكوب وجوز ولوز وخرنوب وبه المنازه المذكورة والقصبات المشهورة والمدن الطيبة كفسا وشعب بوان

(١) قصة الحضارة الفارسية ترجمة الدكتور ابراهيم امين ص ٤

(٢) احسن التقاسيم ص ٣٨٤

(٣) لعلهما من كلمتى « سرد بمعنى بارد » و « كرم بمعنى حار »

وسابور ونوبندجان ودارا بجرد الجليلة الشأن ، ولا يخفى فضل سيراف وأرجان ، وباصطخر العجائب والبنيان وقد جلت جور على البلدان بما ورد وأسباب ..»

ثم قال . « ففارس اقليم طيب، كثير الخيرات ومعدن التجارات » وسئل يوما : كيف وجدت فارس ؟ قال . وجدتها أشبه الاقاليم بالشام لأنها تجمع أضداد الثمار.»

ووصف كورة سابور فقال : (١) « كورة نزيهة قد اجتمع فى البستان الواحد منها : النخل والزيتون والأترنج والخرنوب والجوز واللوز والتين والعنب والسدر وقصب السكر والبنسفج والياسمين . وترى الأنهار جارية والثمار دانية والقرى ممتدة تمشى الفراسخ تحت ظل الأشجار» .

العراق وخوزستان :

كان العراق قديما يشتمل على ست كور فقط هى الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وحلوان وسامراء .وقد حدده الاصطخرى من الشرق بخط يمر من هذه البلاد على الترتيب وهى : تكريت — شهرزور — حلوان — سيروان — صيمرة — الطيب — السوس — جى ثم البحر . وحدده من الغرب بخط آخر يمر بهده الأماكن على التوالى : بادية البصرة وسوادها وبطائحها ثم واسط فالكوفة . فالانبار فتكريت .

ويتألف هذا الاقليم من سهل منبسط. ذى تربة خصبة صالحة للزراعة طول العام . تسقيه شبكة واسعة من الانهار والروافد والنهيرات والجداول وكانت دجلة والفرات وأكثر الأنهار المتفرعة منهما صالحة للملاحة وكان يجرى عليها كثير من أصناف القوارب الشديدة الاختلاف، وقد أضيف

---

(١) احسن التقاسيم ص ٢٢٠

إليها فى القرن الرابع الطيارات والحديديات التى كانت ترسو على أبواب كبار العمال . وكان صياح الملاحين الى جانب صوت آلات رفع الماء مما تمتاز به بلاد العراق(١)

وكانت أكبر شبكة من النهيرات توجد شرقى البصرة وقد أحصيت أيام بلال بن أبى بردة فزادت على مائة وعشرين ألف نهر تجرى فيها الزواريق، وتكثر فى هذه المنطقة من اقليم العراق غابات النخيل تتخللها الأنهار المتقاطعة ، وكانت هذه النخيل تمتد الى مسافات كبيره على هيئة خطوط مستقيمة .

ومن الظواهر الطبيعية التى تتأثر بها هذه البقعة مد الماء وجزره مرتين فى اليوم ، فاذا جاء المد من البحر تراجع الماء فى كل نهر حتى يدخل البساتين والجنان ، واذا جزر الماء عنها خلت منه البساتين والنخيل (٢) . قال المقدسى والجزر والمد أعجوبة على أهل البصرة ونعمة يزورهم الماء فى كل يوم وليلة مرتين ويدخل الأنهار ويسقى البساتين ويحمل السفن الى القرى ،فاذا جزر أفاد أيضا عمل الأرحية لأنها على أفواه الأنهار » . (٣)

وقد تزداد مياه دجلة والفرات وروافدهما على أثر ذوبان الثلوج فى منطقة الجبال أوائل الربيع ، فتطغى هذه المياه على السهول ، فتغرقها وتحولها الى مستنقعات وبحيرات لا سيما بين واسط والبصرة حيث يتشعب دجلة ثلاث شعب تنصب كلها فى مستنقعات وآجام تسمى البطائح . وكانت هذه البطائح من الأسباب المهمة التى أدت الى عدم استتباب الأمن فى جنوب العراق خلال القرن الرابع الهجرى ، ذلك أنها كانت الملجأ الأمين الذى

---

(١) متز ٢ : ٣٢٣ . (١) مسالك الممالك للاصطخرى ص ٨٠ ، ٨١

(٢) أحسن القاسيم ص ١٢٤

يعتصم به اللصوص وقطاع الطرق من أمثال عمران بن شاهين الذى غلب على تلك النواحى حتى تجرأ أصحابه على جند السلطان وصاروا يطالبون القواد والعمال بحق المرصد والخفارة ، وبالرغم من أن معز الدولة أرسل اليه الجيوش لتأديبه أكثر من مرة ، فانه استطاع أن يهزمها شر هزيمة بحيث اضطر معز الدولة الى مصالحته واجابة كل مطالبه ، فقلده البطائح عام ٣٣٩ﻫ

أما مناخ العراق على وجه العموم فهو من النوع « القارى » الذى يكون فيه الفرق بين حرارة الصيف وحرارة الشتاء كبيرا جداً ، كما يكون فيه الفرق بين حرارة الليل وحرارة النهار كبيراً أيضاً وذلك لأن العراق يقع تحت تأثير الرياح الغربية الجافة الآتية من ناحية الصحراء .

ولذلك كان صيفه ذا حرارة شديدة وسموم لافح أشبه شيء بلهيب النار ولشدة حرارته يلجأ الناس صيفا إلى استعمال الخيش والمراوح أو الاعتصام بالسراديب الأرضية أكثر ساعات النهار ولشدة حرارته أيضا تهجر بعض الطيور أرض العراق فلا تعود إليه إلا فى أواخر الخريف ، ولكن هذا الطقس الحار المزعج الذى يستمر أكثر ساعات النهار لا يلبث أن ينقلب الى طقس لطيف ، وادع هادىء ، فى أثناء الليل فترى السماء صافية والنجوم لامعة ، والنسيم عليلا . وعند ذاك تهدأ الأعصاب التى أنهكها حر النهار فتستيقظ النزوات الكامنة فى النفوس تبتغى الرى والاشباع .

قال المقدسى [١] : « هواء هذا الاقليم مختلف ، فبغداد وواسط وما دخل فى هذا الصقع بلد رقيق الهواء ، سريع الانقلاب ، ربما توهج فى الصيف وآذى ، ثم انقلب سريعا ، والكوفة بخلافه، ويكون بالبصرة حر عظيم غير أن الشمال ربما هبت فطاب » .

---

١) احسن التقاسم ص ١٢٥

وقال أيضا : «وقرأت فى أخبار البصرة :عيشنا فى البصرة عيش ظريف إن هبت شمال فنحن فى طيب وريف ، وان كان جنوب فإننا فى كنيف ». وذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ٣٧٨ أن الوباء قد وقع فى البصرة والبطائح من شدة الحر فمات خلق كثير حتى امتلأت منهم الشوارع .

وأما شتاء العراق فعلى العكس من صيفه تماما ، فهو بارد شديد البرودة لاسيما فى الليل، إذ تنخفض درجة الحرارة الى ماتحت الصفر فتتجمد قطرات الندى وغدران المياه فتكسو الأرض وماعليها من أشباح ثوبا أبيض تنعكس عنه أشعة الصباح فى لمعان وبريق .

قال المقدسى : « وربما جمد الماء فى البصرة وجميع بغداد » (١) . ولذلك نرى الناس شتاء يستعينون بالنار وبالملابس الكثيرة وبالأغطية الثقيلة ليتقوا شر هذا البرد الشديد ، ولكنهم - مع ذلك - إذا خرجوا من مساكنهم عند الصباح يسعون فى طلب الرزق، تحمر وجوههم وتخضر أناملهم ويصعب عليهم الكلام والحركة .

وفى هذا الفصل يتلبد الجو بالغيوم فى كثير من الأحيان فتسقط الأمطار الغزيرة وتتألق البروق وتهدر الرعود ، وقد تكون مصحوبة بالرياح العاتية التى تقتلع الأشجار وتهدم البيوت فى بعض الأحيان .

وبين هذا الصيف القائظ وهذا الشتاء البارد اللذين يستأثران بأكثر أيام العام ، فترتان قصيرتان من الزمان يعتدل فيهما الجو ويلطف هما فصلا الربيع والخريف ، فالربيع على قصره قد حباه الله جمالا رائعا لكثرة رياضه وجنانه .

---

(١) نفس المصدر ص ١٢٦

ويظهر أن اختلاف المناخ وخصوبة التربة وتوافر المياه قد كانت سببا في تنوع الاثمار والحيوانات والطير والحشرات وكثرتها . . .

أما خوزستـــان :

فهو عبارة عن سهل ضيق يقع بين البحر والعراق وفارس والجبل ، تشق أكثره الأنهار التى تجرى فى جميعها السفن ، وتغلب على طقسه الحرارة ، فليس فيه موضع يجمد فيه الماء ، ولا يقع فيه الثلج ، ولا يخلو من النخيل. وهو كثير الثمار والارزار وقصب السكر والانجاص والرطب والاترنج والعنب والرمان والحبوب والحشرات المؤذية كالبق والبراغيث والذباب والعقارب . . . الخ

هذا مجمل الأحوال الطبيعية للبلاد البويهية. ترى ماذا كان أثرها فى أدب هذه الحقبة ؟

ذلك ما سنتناوله فى فصل آت .

الفصل الثانى

الحالة السياسية

- ١ -

ليس جديداً إذا قلنا إن الدولة الاسلامية قد بسطت نفوذها على أقطار من الأرض كثيرة تختلف فيما بينها اختلافا كبيراً من حيث اللغة والدين والثقافة والعادات والتاريخ وأحوال الاقليم .

وليس جديداً أيضا إذا قلنا إن هذه الشعوب التى أظلها الاسلام قد تقاربت مؤثرة ومتأثرة بعضها ببعض بحكم الجوار والامتزاج والاشتراك بمظاهر سياسية وأخرى اجتماعية بحيث يخيل لدارس تاريخها فى القرنين الأول والثانى أن الفروق القومية قد تلاشت واندثرت ، وأن هذه الشعوب قد أصبحت أمة واحدة بدليل أن الرأى العام فى هذه المملكة المترامية الأطراف كان يستنكر كل حركة سياسية أو دينية أو فكرية تخرج على النظام القائم وكان يصفها بأشنع الاوصاف .

فاذا تمرد زعيم فى صقع من الأصقاع قيل إنه مارق أو خبيث أو ناجم، وإذا جاء إنسان ما بفكرة جديدة تخالف المألوف عند الناس رمى بالإلحاد والزندقة وإذا تناول شاعر معنى لم يطرقه شاعر قبله قامت قيامة النقاد عليه، فأبو نواس فاسق خليع وأبو تمام خارج عن عمود الشعر . . . وهكذا .

وليس غريبا أن يكون الأمر كذلك ، فهذه الشعوب المختلفة قد أخذت تتكلم لغة واحدة أو كادت ، وتدين بدين واحد . وتخضع لنظام سياسى

واجتماعى معين ، اشتركت فى بنائه جميع الشعوب حتى إنه كان يعز على تلك الأمة الاسلامية أن يمس هذا النظام بسوء . . . فالخلافة منصب مقدس عند هؤلاء المسلمين ، وأمير المؤمنين رمز تجتمع فيه معانى الاسلام ، طاعته واجبة وعصيانه يثير سخط الناس على العاصى .

وإذن فقد كان من المتوقع أن يبقى هذا النظام قائما ، وأن تظل هذه الشعوب متماسكة الى أجل طويل . ولكن ما كاد القرن الثالث يشرف على نهايته حتى رأينا الوحدة الاسلامية يدب فيها الضعف والانحلال فاذا هى متصدعة ، واذا هى منقسمة على نفسها وحدات سياسية مستقلة أو كالمستقلة ترى ماسبب ذلك ؟

أما المؤرخون فإنهم يوردون لذلك أسبابا لاتخرج فى مجموعها عن ضعف خليفة أو سوء تدبير وزير أو طموح وال أو دعوة لمذهب أو طغيان قائد أو نحو ذلك . فالمؤرخون على هذا يجعلون الأشخاص ـ كعادتهم ـ محوراً للأحداث السياسية . أما نحن فلا نريد أن نفهم التاريخ على هذا النحو وانما نريد أن نفهمه على أنه مظهر من مظاهر الامم النفسية والمادية تتركز فيه رغباتها وآمالها وآلامها أيضا .

أريد أن أقول . إن سبب هذا الانقسام فى الدولة الاسلامية يرجع فى الدرجة الأولى الى الشعوب التى لا يمكن أن تفقد خصائصها القومية التى تكونت على مدى الأجيال بمجرد خضوعها للسلطان الاجنبى ردحا من الزمن ، إذ ليس من المعقول أن تسير أية أمة من الأمم فى وجهة تأباها أو تحيا حياة روحية لم تفهمها أو تتذوق الحياة بذوق غير ذوقها

لذلك نرى هذه الشعوب تنتهز كل فرصة للإفصاح عن مشاعرها المكبوتة بشتى الوسائل منذ اللحظة الاولى التى فقدت فيها كيانها السياسى ، اذ كانت

تحس فى نفسها حاجة للانفصال والاستقلال ، فلما ضعفت السلطة المركزية فى بغداد وجدت هذه الشعوب الفرصة الملائمة فثارت وانفصلت واستقلت.

وتلك نتيجة حتمية ، بل ضرورة لابد منها لكل دولة مترامية الأطراف تسيطر على شعوب متباينة فى الحضارة والتراث القومى وأحوال الاقليم .

* * *

ونحن إذ نحاول أن نرسم الخطوط الرئيسية للحياة السياسية والاجتماعية فى عصر بنى بويه الذين ينتسبون إلى الأمة الفارسية نرى لزاماً علينا أن نتتبع النشاط السياسى والاجتماعى للعنصر الفارسى فى ظل الحكم العربى باختصار لنرى كيف قامت الدولة البويهية الفارسية من جهة ، وكيف أثر الفرس فى بناء الوحدة الاسلامية سياسياً واجتماعيا من جهة أخرى .

ولكننا قبل ذلك نود أن نعرف من هم آل بويه ؟ ولمن ينتسبون ؟ ، وكيف كانوا يعيشون قبل أن يؤول اليهم السلطان ؟ فنقول :

إن بنى بويه هؤلاء من الديلم الذين كانوا يسكنون البلاد الواقعة فى الجنوب الغربى من شاطىء بحر الخزر ، وهم شعب بدوى يمتاز بالخشونة والجلد والعجلة وقلة المبالاة كما يقول الاصطخرى (١) ، وكانوا وثنيين بالرغم من أن بلادهم قد افتتحها المسلمون منذ عهد عمر بن الخطاب (ض) ، ذلك أنهم استمروا خاضعين للحكم الاسلامى مع بقائهم على وثنيتهم فلم يكن استيلاء المسلمين عليهم مما ينقص من شجاعتهم أو يفقدهم جنسيتهم. غير أنهم دخلوا الإسلام منذ أن حل بينهم الحسن بن على الأطروش الذى لبث فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام وينشر بينهم المذهب الزيدى ويقتصر منهم على العشر ويدفع عنهم عدوهم ، فأسلم منهم خلق كثير واجتمعوا عليه وبنى لهم المساجد .

---

١) مسالك الممالك ص ٢٠٣

وكان ذلك أول القرن الرابع الهجرى .[١]

أما أسرة آل بويه الديلمية فانها لم تكن معروفة لدى المؤرخين قبل التوسع الديلمى . وكل مايعرفه المؤرخون عنها هو أنها تبدأ بأبى شجاع بويه الذى كان رجلا فقيراً يعيش هو وأولاده الثلاثة على صيد السمك واحتطاب الحطب . فقد ذكر ابن خلكان أن معز الدولة كان أول أمره يحمل الحطب على رأسه ، وقد اعترف بذلك بعد أن أصبح ملكا .[٢]

ثم ان بويه لفقره أدخل أولاده فى خدمة قواد الديلم جنودا مرتزقة فتقلبت بهم الأحوال حتى أصبحوا ملوكا قد خضعت لهم الرقاب ودانت لهم البلاد بعد ما كانوا يعانونه من الفقر والمسكنة . ومنذ ذلك الحين أصبح لهذه الأسرة التى أسسها الإخوة الثلاثة : على والحسن وأحمد ، أبناء بويه ، مكانة مرموقة فى التاريخ الاسلامى .

ولكنهم على مايظهر لم يكتفوا بما تهيأ لهم من مجد حديث بل حاولوا أن يصلوه بمجد قديم ، فأوحوا الى بعض الكتاب بأن يخترعوا لهم مآثر قديمة، وأن يختلقوا لهم نسبا مشرفا يصلهم بملوك الفرس القدماء ليجمعوا المجد من أطرافه ، فنشأ من أجل ذلك اختلاف بين المؤرخين حول نسب البويهيين فمنهم من ينسبهم إلى الملك الساسانى بهرام جور ، ومنهم من يرفض هذه النسبة ويرجعهم الى كبير وزرائه مهرنرسى ، ومنهم من يبالغ فى تمجيدهم حتى يلحقهم بالآلهة . غير أن الثقاة من المؤرخين القدامى يؤكدون لنا أن آل بويه أول أمرهم لم يكونوا ذوى مآثر ، كما لم يكونوا ذوى نسب فى الملك عريق ، وإنما كانوا من دهماء الناس ، فقد كان أبو شجاع بويه وأبوه وجده

---

١) ابن الاثير ٦ : ١٤٦ والنجوم الزاهرة ٣ : ١٨٥

٢) وفيات الاعيان ١ : ٥٦

كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم .

من ذلك ماحدثنا به صاحب تجارب الأمم عن ركن الدولة إذ قال :
« . . . وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم مالا يمكن أحداً تلافيه وردهم عنه، وكان مضطراً إلى فعل ذلك ، لأنه لم يكن من أهل بيت الملك ، ولا كانت له بين الديلم حشمة من يمتثل جميع أمره ، وإنما يرأس عليهم بسماحة كثيرة كانت فيه ومسامحة فى أشياء لا يحتملها أمير عن مأمور »(١)

وكذلك يذهب كاتب مادة (بويه) فى دائرة المعارف الإسلامية إلى أن شجرة نسب الأسرة البويهية « فى مجموعها ليست سوى محاولة لتمجيد هذه الأسرة »

ومهما يكن فإن مسألة انتساب البويهيين إلى ملوك الفرس هى من نسج الخيال، ومن وحى الغرور الذى يصيب الأسر حين ترتفع من الضعة والخمول إلى ذروة المجد والعظمة . وذلك أمر ليس مقصوراً على بنى بويه وحدهم دون غيرهم ، بل هو أمر مألوف تلجأ إليه الأسر كما تلجأ إليه الأمم ، إذ يحاول أن تمجد ماضيها باختلاق المآثر لأسلافها وانتحال الأساطير حول أبطالها ، لكى يكون هذا الماضى مناسبا لحاضرها المجيد ، مدفوعة إلى ذلك بما كان سائداً ـ وما يزال ـ فى المجتمعات من أن السيادة وقف على العناصر العريقة فى النسب دون غيرها . وتلك ميزة من ميزات المجتمع الطبقى الذى ينقسم الناس فيه إلى سيد ومسود ، وشريف ومشروف ، فإذا قدر لأسرة وضيعة فى مثل هذه المجتمعات أن تنهض وترتقى ، فتصل إلى المجد والسلطان حاولت أن تنتحل لنفسها نسبا عريقا لتبرر سيادتها على الناس نظريا كما بررته

(١) تجارب الأمم ٦ : ٢٧٩

عمليا بالقوة أو الدهاء أو المكر أوغيرها ، وذلك ماحصل بالضبط بالقياس إلى الأسرة البويهية والأسرة الفاطمية وغيرهما من الأسر التى لم ترث المجد كابراً عن كابر كما يقولون .

— ٢ —

إن الأمة الفارسية حينما تغلب عليها العرب عسكريا ، كانت لها دولة ثابتة الأركان ، وحضارة عريقة فى القدم ، فليس من المعقول أن تنسى هذا الماضى المجيد ، وتحيا حياة جديدة لم تعرفها ولم تألفها ، ولذلك نراها منذ خضعت للحكم العربى فى صراع متصل مع الغالبين فى ميدان الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، وقد كان صراعاً معقداً ، ذا ألوان مختلفة كما كان طويل الأمد .

ومظاهر هذا الصراع واضحة كل الوضوح حتى فى العصر الأموى حين كان العرب أقوياء وحين كانت سياستهم قائمة على جيوش عربية وعصبية عربية .

وقد ظهر ذلك فى مؤازرتهم لكل ساخط ، وفى انضمامهم لكل ثائر على الحكم الأموى ، فمن ذلك أنهم انضموا إلى المختار الثقفى وإلى عبد الرحمن ابن الأشعث فى ثورتيهما على الدولة الأموية فى العراق ، كما انضموا إلى الحارث بن سريج حين ثار فى خراسان .

ثم انهم لم ييأسوا بعد أن أخفقت هذه الثورات وأمثالها فى تقويض السيادة العربية ، بل نراهم ينضمون إلى الدعوة العباسية ويحتضنونها منذ البداية ويغذونها بأموالهم وأرواحهم ، حتى استطاعوا آخر الأمر أن يقيموا الدولة العباسية بجيوشهم الفارسية التى انحدرت من هضبة إيران فاكتسحت دولة

بنى أمية ومحت آثارها فى شىء كثير جداً من الشدة والقسوة والفظاعة .

ولاشك أن الفرس كانوا يقصدون من وراء ذلك أن يحققوا بعض أهدافهم القومية بما سيكون لهم من كلمة مسموعة وسلطان نافذ فى إدارة هذه الدولة الجديدة ، وهكذا كان .

ذلك أن بنى العباس قد اعترفوا بفضل الفرس عليهم، فاعتمدوا عليهم وعهدوا إليهم بإدارة دولتهم، فكان منهم الوزراء والحجاب والكتاب وقادة الجيش ، وبذلك أصبحت الدولة العباسية تحت نفوذهم الإدارى والعسكرى والفكرى .

أما موقف العباسيين من العرب فقد كان مشوبا بالحذر والاحتياط وسوء الظن ، الأمر الذى أضعف مركز العرب فى الدولة يوما بعد يوم ، لا سيما فى الناحية الحربية، التى هى أخص ما كان يميز العرب عن سواهم من الأقوام بحيث لا نجد فى زمن المأمون قائداً عربيا معروفا .

ولكن الفرس على ما يظهر كانوا يطمعون فى أكثر مما نالوا فى ظل بنى العباس من مكانة ونفوذ ، فلما لم تتحقق هذه الأطماع لجأوا إلى الكيد والدس والمؤامرات ضد الدولة التى أقاموها بأيديهم ، فتعرض كثير من زعمائهم وقادتهم للبطش والتنكيل من جانب الخلفاء اليقظين ، من ذلك قتل أبى مسلم الخراسانى وأبى سلمة الخلال وهما من مؤسسى هذه الدولة ومن ذلك أيضا نكبة آل الموريانى وآل برمك وغيرهم من الوزراء .

ولعل آخر مظهر من مظاهر النزاع المقنع بين العرب والفرس فى عهد بنى العباس تلك الفتنة المعروفة بين الأمين والمأمون ومن ورائه الفرس ، التى انتهت بمقتل الأمين وانهزام حزبه ، وبذلك أحرز الفرس انتصاراً حربيا آخر على خصومهم العرب بعد انتصارهم على جيوش الأمويين من قبل .

وليس من شك فى أن محاولات الفرس الكثيرة لقلب الدولة العباسية وإخفاق هذه المحاولات وانتهاءها بنكبة القائمين بها، قد أدت كلها إلى سوء ظن متبادل بين بنى العباس والفرس، مما دفع هؤلاء إلى أن يقوموا بثورات مسلحة ضد الخلافة العباسية، وذلك حين قام بابك الخرمى فى أول القرن الثالث بحركة عنيفة ضعضعت أركان الخلافة وأقضت مضجعها حينا من الدهر.

ويدلنا على مبلغ خطورة هذه الحركة، تلك الانتصارات الباهرة التى أحرزها بابك على جيوش الخلافة، والتى كان من نتائجها أن دخل اليأس قلوب العساكر الخليفية وقوادها فلم تعد تثق بنفسها ولم يعد الخليفة يثق بها.

وقد توفى المأمون وفى قلبه حسرة مما أصابه من الفشل فى حروبه مع بابك ومن خوفه على زوال دولة كان من أعظم خلفائها، فلما شعر بدنو أجله دعا إليه أخاه المعتصم، وألح عليه أن يداوم على حرب البابكية بحزامة وصرامة وجلد. (١)

وبعد أن توفى المأمون تولى أخوه المعتصم أمور الخلافة، فوجد نفسه إزاء خطر فارسى داهم يهدد ملكه بالزوال، فماذا يفعل؟.

أيعتمد على العرب وقد ضعفت ثقة الخلفاء بهم منذ عهد طويل؟ أم يعتمد على الفرس وقد رفعوا علم الثورة والعصيان على الدولة، فضلا عن أن تاريخهم مع أسلافه سلسلة من المؤامرات والدسائس؟ لا شك أن الحزم يقتضيه أن يفكر فى حل سليم لهذه الأزمة الشديدة التى حاقت به، فهداه تفكيره إلى أن يصرف النظر عن الفرس والعرب جميعاً، ويتجه إلى بلاد الترك يستكثر من شراء غلمانها، ويؤلف منهم جيشاً قويا، استطاع به أن يعيد الأمن إلى نصابه، إذ قضى على بابك وثورته كما قضى على بقية الثورات.

---

(١) من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام تأليف بندلى الجوزى ١ : ١٣

ولكن هؤلاء الأتراك سرعان ما أصبحوا مصدر قلق واضطراب للدولة ، مما حمل الخليفة المتوكل على أن يحاول أن يتخلص منهم ويعيد الدولة سيرتها الأولى فعزم على الفتك بهم ، ولكنهم أحسوا بالمؤامرة فعجلوا بقتله وقتل وزيره .

وقد كان قتل المتوكل بيد الأتراك أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين منذ أن تأسست الخلافة العباسية إلى هذا التاريخ ، ولهذا يعتبر نقطة تحول فى حياة الخلفاء الذين أصبحوا بعد ذلك ألعوبة بيد الأتراك يخلعونهم ، ويقتلونهم ويعذبونهم أنواع العذاب .

فهذا الخليفة المعتز ، ظل الله على الأرض ، يضيق ذرعا بهؤلاء الجند فيحاول الحد من غطرستهم ، ولكنه يهاجم فى داره ويسحب من رجله ويضرب بالدبابيس ويخرق قميصه ، ثم يقام فى الشمس تلفحه حرارتها ، فيرفع رجلا ويضع أخرى وتتداوله فى أثناء ذلك أيدى الجنود باللطم وهو يتقى بيديه ، ثم يمنع من الطعام والشراب ويدخل فى سرداب ويسد بابه بالجص حتى يموت . كل هذا كان يجرى بين سمع الشعب وبصره وهو غير قادر على أن يفعل شيئا لهذا الخليفة المنكود غير التفجع وسفح الدموع :

عين لا تبخلى بسفح الدموع   واندبى خير فاجع مفجوع
خانه الناصح السفيه ونالتـ   ـه أكف الردى بحتف سريع
بكر الترك ناقمين عليه   خلعته ، أفديه من مخلوع
قتلوه ظلما وجوراً فألفو   ه كريم الأخلاق غير جزوع

كذلك كان الخلفاء فى عهد الأتراك بين قتيل وسجين ومسمول ومحجور عليه .

أما أمور الدولة التى سيطروا عليها فقد كانت تسير من سىء إلى أسوأ ذلك أنهم كانوا منهمكين بالدسائس والمؤامرات فيما بينهم ، فأهملوا شؤون

الدولة وتركوها نهبا للطامعين من أمراء الأطراف بحيث لم يبق للخلافة أيام الراضى (٣٢٢ هـ) إلا بغداد. فقد كانت البصرة فى يد ابن رائق، وخوزستان فى يد البريدى، وفارس والرى وأصبهان والجبل فى أيدى بنى بويه، وكرمان فى يد محمد بن إلياس، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر فى أيدى بنى حمدان، وأصبحت مصر والشام فى يد محمد بن طغج، والمغرب وافريقية فى يد عبد الرحمن الناصر، وخراسان فى يد نصر بن أحمد، واليمامة والبحرين فى يد القرمطى، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم.[١]

على أن حال الخلافة فى بغداد قد ازدادت سوءاً على سوء فى عهد الراضى إذ عجز الوزراء عن إدارة شئون البلاد لازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى أمور الدولة مما دعا الراضى الى استمالة «ابن رائق» ثم سلم إليه مقاليد الأمور ولقبه «أمير الأمراء» وفوض إليه تدبير المملكة بحيث صارت الأموال تحمل إليه فيتصرف بها كما يرى ويطلق لنفقات الخليفة منها ما يريد، فبطل منذ يومئذ أمر الوزارة، فلم يكن الوزير ينظر فى أمر النواحى أو الدواوين أو الأعمال، ولم يكن له غير اسم الوزارة فقط، والحضور فى أيام المواكب إلى دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ويقف ساكتا، ثم تدخل بعد ذلك أمير الأمراء بتعيين الوزراء وعزلهم.[٢]

ولكن هذا التدبير لم ينقذ الخلافة ولا الشعب من الفوضى، إذ نافس ابن رائق على إمرة الأمراء كثير من القواد مثل بجكم التركى وابن البريدى وناصر الدولة الحمدانى وتوزون وابن شيرزاد. فكان من نتائج هذا التنافس حروب دامية، وفوضى شاملة، أصيب الشعب فى أثنائها بكثير من الخطوب

(١) ابن الأثير ٨ : ١١٢ وديوان العبر لابن خلدون ٣ : ٤٠١

(٢) تجارب الامم ٥ : ٣٥٢، والفخرى ص ٢٠٩

والأهوال التى أفاضت بها كتب التاريخ . ولم تنته هذه الفترة الصاخبة التى أطلق عليها المؤرخون فترة « أمير الأمراء » إلا باستيلاء البويهيين على بغداد عام ٣٣٤ ، وبذلك انتهت سلطة الخلفاء الزمنية ولم يبق لهم إلا السلطة الروحية على تلك المملكة الواسعة . ولا شك أن هذا مصير محتوم لكل دولة تعتمد على عناصر ليست من جنسها فى حياتها السياسية والإدارية والحربية .

أما الفرس فإنه لم يهدأ لهم بال منذ أن حل الأتراك محلهم فى تدبير أمور الدولة فحرموهم من مراكزهم وسلطانهم فى عاصمة الخلافة ، ومنذ أن قضوا على ثورتهم المسلحة أيام بابك الخرمى ، لهذا نراهم يغتنمون فرصة انشغال الأتراك بالمؤامرات والدسائس والحروب الأهلية فى العراق فيعدون أنفسهم لثورة استقلالية كبرى أعظم من سابقتها فى بلاد الفرس ، فأسندوا القيادة إلى رجل قدير هو يعقوب بن الليث الصفار لما رأوا من تدبيره وحسن سياسته وقيامه بأمرهم فأنشأ دولة فارسية (٢٦٤ — ٢٩٠) كانت من القوة بحيث هددت عاصمة الخلافة بالاحتلال ولولا تضافر جيوش السامانيين وجيوش الخلافة للقضاء عليها لاستطاعت أن تثبت دعائم الاستقلال الفارسى منذ ذلك الحين . (١)

ولكن الفرس لم ييأسوا بعد أن أخفقوا فى كفاحهم الطويل ، وما كان ينبغى لهم أن ييأسوا ، فقد احتفظت لهم مناطق إيران الجبلية فى الشمال بأقوام ما تزال محتفظة بميزاتها البدوية وبقدرتها على خوض المعارك . أولئك هم الديلم الذين كانوا بمثابة قوة مدخرة لميقات يوم معلوم ، فلما حل هذا الميقات

---

(١) راجع كتاب تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ١٤٢ — ١٦٠ الجزء الثالث

أوائل القرن الرابع انساحت جيوشهم التي لم يفقدها نعيم الحضارة، كما أفقد جيوش الخلافة، شجاعتها وخشونتها، نحو الجنوب فاحتلت فارس وبلاد الجبل والأهواز والعراق في فترة وجيزة، فكان من آثار ذلك ظهور دولة بني بويه التي حققت للفرس استقلالهم بعد أن كافحوا من أجله زمناً طويلاً.

وذلك أن أولاد أبي شجاع بويه حينما قام الديلم بتوسعهم وفتوحهم كانوا جنوداً مرتزقة في جيش ماكان بن كالي، ولكنهم ارتقوا بسرعة إلى مرتبة الأمراء، ثم فارقوه بعد أن ضعف أمره وانحازوا إلى قائد ديلمي آخر هو مرداويج بن زيار الذي خرج على أسفار بن شيرويه، واستولى على بلاد جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان وقم، والكرج، فزاد نفوذه إحوالي عام ٣٢٠، وتحبب إلى الرعية، وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه وسريراً من فضة يجلس عليه أكابر قواده، وامتدت سلطته إلى حدود العراق وأسس الدولة الزيارية، وعزم أن يستولي على بغداد وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب .

وقد رحب مرداويج أول الأمر بانحياز أولاد بويه إليه فخلع على عليّ والحسن، ثم ولى علياً بلاد الكرج، كما ولى بقيــة القواد الذين انحازوا إليه من جيش ماكان، ثم ندم على ذلك فأمر أخاه وشمكير — وكان في الري — أن يمنع هؤلاء القواد من المسير إلى أعمالهم، ولكن علياً خرج من الري قبل أن يعلم وشمكير بهذا الأمر، وكان ذلك بتدبير الوزير الحسين بن محمد الملقب بالعميد، فلما وصل بلاد الكرج أحسن معاملة الناس وكسب محبة القواد بالمال فأطاعوه، وحينذاك قويت نفسه فقصد أصبهان واستولى عليها، ثم بقي بعد ذلك هو ووشمكير يتنازعان أصبهان وهمذان وقم وقاشان وكرج والري وغــيرها حتى تم للحسن بن بويه

الاستيلاء عليها بعد حروب طويلة .

ثم خطر ببال على بن بويه أن يستولى على الأهواز والعراق ، وشجعه على ذلك ضعف قوة الخليفة ببغداد ؛ فسير أخاه الأصغر أحمد بن بويه إلى الأهواز فاستولى عليها بعد أن هزم بجكم الرائقى ،ثم سار إلى واسط فاحتلها ومنها سار إلى بغداد بعد أن كاتبه الخليفة،فلقيه ابن شيرزاد والأتراك ، ولكنه تغلب عليهم فهربوا إلى الموصل ، واحتل بغداد عام ٣٣٤ وكان الخليفة بها يومئذ هو المستكفى بالله فقابله واحتفى به وبايعه أحمد. وحلف كل منهما لصاحبه ، هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة . ولقب الخليفة عليا صاحب بلاد فارس عماد الدولة ولقب الحسن صاحب الرى وبلاد الجبل ركن الدولة ، ولقب أحمد صاحب العراق معز الدولة ، وأمر أيضا أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود ، وبذلك أصبح بنو بويه أصحاب الأمر والنهى فى بغداد .

وهكذا استطاع بنو بويه ، دون غيرهم من قواد الفرس ، أن يؤسسوا دولة فارسية ذات ثلاث عواصم كبرى هى الرى وشيراز وبغداد ، إذ كان تحت حكمهم أربعة أقاليم وهى العراق ، وفارس، وبلاد الجبل، والأهواز . ويرجع ذلك إلى ما اتصف به هؤلاء الإخوة الثلاثة من الدهاء والمكر والمهارة الجندية ، وإلى قدرتهم على جمع المال وادخاره لوقت الحاجة ، وإلى حسن معاملتهم للأسرى ومبالغتهم فى مداراة جندهم وقوادهم ، وأخيرا إلى ما كان بينهم من تضافر وثيق وطاعة تامة . (١)

يتبين لنا مما تقدم أن الدولة البويهية تمتاز عن غيرها من دول الفرس بأنها لم تنشأ عن الدولة العباسية كما نشأت الدولة الطاهرية والسامانية مثلا ،

---

(١) الحضارة الإسلامية ١ : ٣٢ وما بعدها

وإنما قامت بها أمة قد فتحت جزءاً كبيرا من المملكة الإسلامية بالسيف وأخضعته لسلطانها أكثر من مائة عام ، معتمدة على جيوش فارسية وتركية تدين لها بالولاء والطاعة ، ولهذا فلا نعجب إذا وقف ملوك آل بويه من الخلفاء موقفا يخالف موقف أسلافهم من الخلفاء الأولين كل الاختلاف ، فقد كان الفرس يدينون للعرب بالولاء وينظرون إليهم نظرة المسود إلى السيد أما الآن وقد أصبحوا هم السادة فإنه من الطبيعى أن تنعكس الآية فيصبح السيد مسودا ، ويزول ما كان فى نفوس الفرس من احترام الخلفاء وتقديسهم ،فكان من أثر ذلك أن حجر آل بويه على الخلفاء وانتقصوا حقوقهم وجردوهم من كل سلطان .

وبالإضافة إلى ما تقدم نلاحظ أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقيها ، فلم يكن عندهم باعث دينى يحثهم على الطاعة والاحترام ؛ فقد مر بنا أنهم أخذوا أصول التشيع عن الحسن بن على الأطروش ولهذا فكر معز الدولة حينما دخل بغداد أن ينقل الخلافة إلى العلويين ويزيل خلافة العباسيين ، ولكنه خشى أن يتعرض سلطانه للخطر إذا ما قامت خلافة علوية يطيعها الجند ويعترف بها الديلم فيكونون أداة فى يد الخليفة العلوى يستغلها متى شاء ، يدلنا على ذلك مارواه ابن الأثير من أن معز الدولة « استشار جماعة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين ، والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين ، فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه فإنه قال: «ليس هذا برأى فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة

خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه ، فأعرض عن ذلك . فهذا كان من أعظم الأسباب فى زوال أمرهم ونهيهم ، مع حب الدنيا وطلب التفرد بها »[١]

ولكن بالرغم من أن الخلفاء لم يكن لهم فى عهد بنى بويه أمر ولا نهى ولا وزير ، وإنما كان لهم كاتب يدبر إقطاعاتهم وإخراجاتهم فإنهم لم يسلموا من عسف البويهيين وسوء معاملتهم ، ففى سنة ٣٣٤ ذهب معز الدولة إلى دار الخليفة، وذهب إليها سائر الناس على رسمهم فلما جلس المستكفى على سريره ووقف الناس على مراتبهم دخل الأمير معز الدولة فقبل الأرض على رسمه ثم قبل يد المستكفى ووقف بين يديه يحدثه ثم جلس على كرسى فتقدم اثنان من الديلم ومدا أيديهما إلى المستكفى وعلا صوتهما بالفارسية ، فظن أنهما يريدان تقبيل يده فمدها إليهما فجذباه بها وطرحاه الى الأرض ووضعا عمامته فى عنقه وجراه . فنهض معز الدولة واضطرب الناس وارتفعت الزعقات وافتتنت دار السلطان وضربت الأبواق . وساق الديلميان المستكفى بالله ماشيا الى دار معز الدولة حيث خلع وسملت عيناه ، وأقيم مكانه المطيع خليفة.[٢]

ولكن حال المطيع هذا لم تكن أحسن من حال سلفه، فقد سامه معز الدولة وابنه بختيار ذلا وإهانة، ثم زاد بختيار على ذلك فصادره على أربعمائة ألف درهم، فاحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك ، فشاع بين الناس من العراقيين وحجاج خراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر، فلما قبض بختيار المال صرفه فى مصالحه ، ثم خلع المطيع وولى أمور الخلافة ابنه الطائع.[٣]

ولما ملك عضد الدولة وكان جباراً طاغية ، ساءت العلاقة بينه وبين الطائع فأمر بحذف اسمه من الخطبة مدة شهرين ثم حمله على أن يأمر بضرب

---

(١) الكامل لابن الأثير ٦ : ٣١٥ (٢) تجارب الأمم ٦ : ٨٦

(٣) نفس المصدر ٦ : ٣٠٧ وابن الأثير ٧ : ٤٥

الدبادب أمام داره ثلاث مرات فى اليوم ، وأن يخطب له على منابر بغداد ، مع أن ذلك كان من الأمور التى انفرد بها الخليفة دون غيره .

وفى سنة ٣٨١ احتاج بهاء الدولة إلى المال فدبر خلع الطائع وصادر أمواله [١] ، وفعل به مثلما فعل معز الدولة بالمستكفى بالله . وكان الشريف الرضى من شهود هذه الحادثة فقال فيها قصيدته النونية التى مطلعها :

لواعج الشوق تخطيهم وتصميني   واللوم فى الحب ينهاهم ويغريني

ثم جاء بعد الطائع ، القادر بالله ثم القائم بأمر الله ، ولكن سلطان بنى بويه على الخلفاء قد ظل كما كان عليه من قبل ، بل ازداد استهتارهم بالخليفة حتى إن جلال الدولة (٤١٦ - ٤٣٥) نزل ذات يوم وهو على سكر وصعد إلى بستان دار الخلافة وعقد فيه مجلس شرابه وغنائه ، فلما عرف الخليفة ذلك شق عليه وأزعجه ، وهدد بمفارقة البلد. [٢]

وهكذا ازداد أمر الخلافة إدباراً فى عهد بنى بويه ، وذهبت حرمة الخلفاء ولم يبق لهم من الأمر شىء . ولو قارنا حالهم مع بنى بويه بحالهم مع الأتراك لظهر لنا الفرق كبيراً بين الحالين ، فقد كانوا ـ على عهد الأتراك ـ يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل ، والحرمة قائمة بعض الشىء ، ولكن منذ أن تولى معز الدولة إمرة الأمراء فى بغداد زال ذلك جميعه [٣] ثم أن ثوار دار الخلافة كانوا قبل بنى بويه هم الذين يخلعون الخلفاء ويقتلونهم ، أما الآن، بعد قدوم الديلم، فقد صار الخليفة يعامل أمام الناس جميعاً معاملة سيئة لا تراعى له فيها حرمة ولا يعرف له فيها قدر. [٤]

ذلك موقف آل بويه من الخلفاء ، أما موقفهم من الشعب فقد كان

---

(١) ابن الأثير ٧ : ١٤٧   (٢) الحضارة الإسلامية ١ : ٢٤٨

(٣) ابن الأثير ٦ : ٣١٥   (٤) الحضارة الإسلامية ١ : ٢٤٠

أسوأ من ذلك بكثير، ذلك أن سياستهم لم تكن أفضل من سياسة من سبقهم من الحكام إن لم تكن أسوأ منها، فهذا الجمهور البائس الذى أنهكته الكوارث والمحن إثر الحروب الدامية فى فترة « أمير الأمراء » وما قبلها ، كان يطمع فى ظل هذه الدولة الجديدة فى إزالة معالم الظلم والجور ، أو يحلم بإصلاح ما أفسدته سياسة الحكام السابقين من مرافق حياته العامة ، أو يأمل — على الأقل — فى حياة يسودها الهدوء والاطمئنان . ولا غرابة فى ذلك فإن مثل هذه الأمانى الحلوة كثيراً ما تداعب أخيلة الناس حينما تؤذن ظروف الحياة بانقلاب سياسى أو اجتماعى . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لأن مصلحة الطبقة الحاكمة تتعارض دائما مع المصلحة العامة .

وإن تاريخ الانقلابات ليحدثنا أنه ما من ثورة سياسية أو اجتماعية إلا ابتعدت عن أهدافها الأولى ، فاجتنت ثمارها فئة محدودة العدد من الناس .

وإذن فلا بد أن تجرى الأمور وفق ما يريده لها ولاة الأمور . . . فلا عدل ولا استقرار ولا طمأنينة .

ذلك أن بنى بويه قد شغلتهم الحروب فى الخارج والداخل — إلا قليلا — فمن حروب مع الحمدانيين والسامانيين والزياريين، إلى حروب بين الترك والديلم وبين السنة والشيعة ، وبين أمراء البيت البويهى بعضهم مع بعض ، فصرفتهم هذه الحروب المتصلة عن الاهتمام بشئون بلادهم ، وحملتهم على الانقياد لرغبات جندهم وقوادهم فبالغوا فى مداراتهم وإرضائهم بالمال تارة ، وبإقطاعهم الضياع تارة أخرى حتى نفد المال وخربت الضياع فاضطروا آخر الأمر إلى « استخراج الأموال من غير وجوهها وإلى مصادرة العامة أو قرض من الخاصة أو حيلة على من يتهم بيسار كائنا من كان »[1]

---

(١) تجارب الامم ٦ : ٢٨٠

فركن الدولة ، وهو من أعظم ملوك آل بويه ، كان « مع فضله على أقرانه من الديلم على طريقة الجند المتغلبين ينعم بما يتجعل له ، ولا يرى النظر فى عواقب أمره وعواقب أمور رعيته ، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم مالا يمكن أحداً تلافيه ، كما كان لا يستجيب إلى عمارة نواحيه خوفا من إخراج درهم واحد من الخزانة ، ويقنع بارتفاع ما يحصل للوقت »(١)

ثم إنه كان يرى أن دولته مقرونة بدولة الأكراد ، فلذلك لا يمنعهم من العيث ولا يطلق يد حماة الأطراف فى قصدهم ويرضى أن يقال له : قطعت القافلة وسيقت المواشى ، فيقول : لأن هؤلاء أيضا — يعنى الأكراد — يحتاجون إلى القوت .

ومعز الدولة أمير العراق كان لا يأبه كثيراً لحقوق رعيته ، فلما شغب عليه الديلم شغبا قبيحا وطالبوه بالأموال اضطر إلى خبط الناس واستخراج الأموال من غير وجوهها ، وأقطع قواده وخواصه وأتراكه ضياع السلطان وغيرها .

وكان يسامح الوزراء المقطعين ويقبل منهم الرشى ، فاتسع الخرق حتى صار الرسم جاريا بأن يخرب الجند إقطاعاتهم ويعتاضوا عنها بما يختارون ويتوصلون إلى حصول الفضل والفوز بالربح ... حتى فسدت المشارب وبطلت المصالح ، وأتت الجوائح على التناء ورقت أحوالهم ، فمن هارب جال ، ومظلوم صابر لا ينصف ، ومستريح الى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره ، فبطلت العمارات وأغلقت الدواوين وامحى أثر الكتابة والعمالة(٢)

---

(١) تجارب الأمم ٦ : ٢٧٩ (٢) نفس المصدر ٦ : ٩٦ ، ٩٩

وعز الدولة بختيار بن معز الدولة كان يحب أن يقضى أوقاته فى الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد وتحريش الكلاب والديكة، فإذا وقفت أموره قبض على وزيره واستبــــدل به ، ثم طمع فى إقطاعات كبار الحاشية والقواد فتغيروا عليه واضطربوا حتى أرغموه على أن يستجيب لرغباتهم « فضمن لهم جميع ما التمسوه وإزاحة العلل فيه ، ولم يتسع لذلك ولا لبعضه فاضطر إلى مناظرة وزرائه على الاحتيال لهذا المال والنظر فى جمعه من أين كان وكيف كان»،فلما بلغ الأمر بوزيره أبى الفضل الشيرازى هذا المبلغ ولم تبق له حيلة فى درهم يأخذه من وجه عدل إلى طلب الأموال من الوجوه المذمومة التى تقبح الأحدوثة بها وتحرم ولا تحل فى شىء من الأديان . (١)

أما عضد الدولة بن ركن الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢) فقد وجد متسعا من الوقت صرفه فى العمل على النهوض بمرافق البلاد بقدر ما فى طاقته فعمد إلى تشجيع القراء والعلماء ، وشيـــد المساجد والبيمارستانات وغيرها من المنشآت العامة ، وأصلح القنوات والآبار فامتلأت بالمياه ، كما خصص جزءاً من أموال الدولة للترفيه عن الفقراء . (٢)

ولكنه — كما يقول الأستاذ متز — لم يكن أبا لرعيته ، بل ظل الحاكم الأجنبي عنهم ، فهو كالراعى الذى يحسن العناية بغنمه لينتفع منها بأكبر نصيب . وفى آخر أيامه أحدث رسوما جائرة، وزاد الرسوم القديمة، وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق . (٣)

ومهما يكن فقد كان عضد الدولة أعظم ملوك هذه الأسرة شأنا ، إذ

---

(١) تجارب الأمم ٦ : ٢٢٢ وما بعدها
(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بويه
(٣) الحضارة الإسلامية ١ : ٤٧

اتسعت الدولة على عهـده ووصلت إلى أوج عظمتها وقوتها ، بحيث دخلت فى حوزته البلاد الممتدة من بحر الخزر إلى كرمان وعمان ، وهى العراق وفارس والأهواز وبلاد الجبل وجرجان والموصل وديار ربيعة وديار بكر ، فلا عجب إذا لقب نفسه بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة فى الإسلام . (١)

ولكن أمد هذه الفترة التى سادها الرخاء النسبى والسلام المؤقت لم يطل لأن الدولة بعد وفاته قد عادت إلى التدهور والاضمحلال إذ سرعان مادب الخلاف والشقاق بين أمراء البيت البويهى حول الملك فنشبت بينهم الحروب وأنهكت قواهم ،فزاد من أجل ذلك نفوذ الأتراك وتدخلوا فى سياسة الدولة حتى إنهم كانوا يولون سلاطين آل بويه ويعزلونهم،ثم نضبت الموارد وقل المال حتى اضطر جلال الدولة (٤١٦ — ٤٣٥) إلى بيع ثيابه وآلاته فى الأسواق . فكان ذلك كله من الأسباب التى أضعفتهم وعجلت بملكهم إلى الزوال على يد السلاجقة عام ٤٤٧ هـ

وكان لسياسة بنى بويه أسوأ الأثر فى العراق خاصة ، إذ قامت الفتن الطائفية ، وثار الجند واشتبك بعضهم مع بعض ، فانتشرت الفوضى وعم الاضطراب ، وساد الفزع قلوب الأهلين ، فقد أدى تعصب بنى بويه للشيعة إلى أنهم أرغموا أهل السنة على الاشتراك فى أعياد الشيعة .

ولهذا كانت الحروب الأهلية مستمرة بدون انقطاع طوال عهدهم بين الشيعة والديلم من وجهة،وبين أهل السنة والأتراك من جهة أخرى،ففى سنة ٣٦٢ هـ احترق الكرخ حريقا عظيما وكان سبب ذلك أن صاحب المعونة قتل عاميا ، فثار به العامة والأتراك فهرب ودخل دار بعض الأتراك فأخرج منها مسحوبا وقتل وأحرق ، وفتحت السجون فأخرج من فيها .فركب الوزير

(١) الحضارة الإسلامية تأليف متز ١ : ٤٢

لأخذ الجناة وأرسل حاجبا له يسمى صافيا فى جمع لقتال العامة بالكرخ وكان شديد العصبية للسنية فألقى النار فى عدة أماكن من الكرخ، فاحترق حريقا عظيما، وكان عدة من احترق سبعة عشر ألف إنسان وثلثمائة دكان وكثير من الدور وثلاثة وثلاثين مسجداً ومن الأموال ما لا يحصى.(١)

وهكذا اضطرب حبل الأمن، وقامت الفتن، ونشبت الحرائق، وسفكت الدماء، فى عهد بنى بويه. وهذا ابن مسكويه يحدثنا عن ذلك فيقول:

« وانبسطت العامة وأغار بعضها على بعض، وظهرت الأهواء المختلفة والنيات المتعادية، وفشا القتل حتى كان لا يعدم كل يوم عدة قتلى لا يعرف قاتلوهم، وإن عرفوا لم يتمكن منهم، فانقطعت مواد الأموال وخربت النواحى المتباعدة بخراب دار المملكة، وظهر فى كل قرية رئيس منها مستول عليها، وتباغوا بينهم وحصل السلطان صفر اليدين والرعية هالكون والدور خراب والأقوات معدومة والجند متهارجون ». (٢)

أما عمال البويهيين وقضاتهم فقد ساروا بالناس سيرة السنور فى الفأر كما قال الخوارزمى فى إحدى رسائله، ذلك لأنهم كانوا عرضة للعزل، فلكى يستردوا مابذلوه من الرشى للوزراء والملوك لابد لهم من أن يعسفوا ويظلموا فى استخراج الأموال، حتى قال فيهم بديع الزمان: إن هؤلاء العمال ليعلقون المال كما تعلق النار الذبال، والنار لا تذر الفتيل وإن احتيل لها بما احتيل، حتى تطفأ وإطفاء العامل قتله.

وقال ابن مسكويه (٣): « ولما أنس أهل واسط بقرب عز الدولة منهم

---

(١) ابن الأثير ٧ : ٤٩

(٢) تجارب الأمم ٦ : ٢١٤

(٣) نفس المصدر ٦ : ٨٧

وطال مقامه بينهم تظلموا إليه سراً ولقيه نفر منهم فأعلموه أنه ـ أى العامل ـ قد أخرب بلادهم وأفقرهم وظلمهم وغشمهم وصادرهم وملك عليهم ضياعهم وأنه استحل منهم ما حرم الله . . . »

وقال ابن الجوزى (١) : « وكان سابور وزير بهاء الدولة يكثر الولاية والعزل فولى بعض العمال عكبرا فقال له : أيها الوزير كيف ترى ؟ استأجر السفينة مصعداً ومنحدراً ؟ فتبسم وقال : امض ساكتا »

ومما يدل على سوء إدارة بنى بويه واستهتارهم بحقوق الشعب ، واستخفافهم بأمور الدين أنهم ضمنوا القضاء والحسبة والشرطة لمن يشاء .

فقد ذكر ابن الأثير : (٢) أن أبا العباس بن أبى الشوارب قد ولى قضاء القضاء وضمن أن يؤدى كل سنة مئتى ألف درهم ، وهو أول من ضمن القضاء وكان ذلك فى أيام معز الدولة ، ولم يسمع بذلك قبله ، فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول عليه ، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء ثم ضمنت بعده الحسبة والشرطة ببغداد .

وقد ظهر فى ملوك آل بويه فظاظة الطبع وقلة المبالاة وحب المال ، تلك الصفات التى أشرنا إليها من قبل ، فعاقبوا وزراءهم بالقتل والقبض والمصادرة أحياء وأمواتا (٣) وصادروا الأغنياء فى أموالهم (٤) وغلبوا العوام على دورهم وضياعهم ، وانجلى أكثر الناس من جورهم . (٥)

ومن أمثلة ذلك أن معز الدولة قد قبض أموال المهلبى بعد وفاته وكل ما كان له ، وأخذ أهله وأصحابه وحاشيته حتى ملاحه ومن خدمه يوما واحداً

---

(١) كتاب الظراف والمتماجنين ص ٩١ (٢) الكامل لابن الأثير ٦ : ٢٦٠
(٣) نفس المصدر ٧ : ٦ (٤) ـ نفس المصدر ٧ : ١٠٢
(٥) ـ أحسن التقاسيم ص ٢٩٩

فقبض عليهم وحبسهم ، فاستعظم الناس ذلك واستقبحوه .

وكذلك فعل فخر الدولة بأهل الصاحب مثلما فعل معز الدولة بأهل المهلبي . قال ابن الأثير (١): « فلما توفى ـ أى الصاحب ـ أنفذ فخر الدولة من احتاط على ماله وداره ، ونقل جميع ما فيها إليه فقبح الله خدمة الملوك ، هذا فعلهم مع من نصح لهم ، فكيف مع غيره ؟ ! »

وقتل عضد الدولة أبا الفتح بن العميد وابن بقية ، ونكب الصابى وأبا أحمد الموسوى ومحمد بن عمر العلوى وصادرهم فى أموالهم واعتقلهم فى السجن سنين .

وقد تأثر البويهيون بما ورثوه عن أسلافهم الفرس من حب الفخفخة والعظمة ، فتلقبوا بأضخم الألقاب التى تذكرنا بعهود الأكاسرة من مثل — شاهنشاه الأعظم ، والسلطان الأعظم مالك الأمم ـ ووصلوا نسبهم بملوك الأكاسرة ، وأوعزوا إلى الصابى أن يؤلف كتابا فى مآثرهم مع أنهم كانوا من عامة الناس ، بل من فقرائهم ، فقد مر بنا أن بويه كان صياداً للسمك ، وأن معز الدوله كان يحتطب الحطب ويحمله على رأسه .

وهكذا أحاطوا أنفسهم بمظاهر العظمة والأبهة ، وبالغوا فى ذلك حتى أرغموا الخلفاء على الخروج لاستقبالهم ، فساروا بالناس سيرة كسروية أشاعت فى نفوسهم ذلا وخضوعا ورهبة ، فسبحوا بحمدهم والثناء عليهم نفاقا ورياء ، ثم إنهم شجعوا العادات الفارسية واختاروا وزراءهم من الفرس إلا نادراً

ومع ذلك كله فقد أحسنوا صنعا باختيارهم أكفأ الوزراء والكتاب لإدارة دولتهم ، فقد امتاز هؤلاء الوزراء كابن العميد والصاحب والوزير المهلبي وسابور وغيرهم بالقدرة الإدارية والحربية والبلاغية ، فهيأوا لنهضة علمية وأدبية ازدهرت فى عواصم الأقاليم وفى أرجاء البلاد .

---

(١) ابن الأثير ٧ : ١٦٩

الفصل الثالث

الحالة الاجتماعية

لقد كانت الهضبة الإيرانية وما جاورها من سهول ، منذ القديم ، ملتقى شعوب مختلفة ، ومنبت حضارات متباينة ، قد اختلطت وتمازجت على الأيام فخلفت تراثا مثقلا بالآفات الاجتماعية قد ورثته الحضارة الإسلامية فيما بعد ، وكان هذا التراث يتمثل فى مجموعة من العادات والتقاليد والأنظمة والأفكار ، قدر لها أن تتسرب إلى المجتمع الإسلامى بالتدريج عن طريق الأمم الأجنبية التى دخلت فى الإسلام ، فكانت من الأسباب التى عملت على انهياره وتفسخه فى القرن الرابع .

وذلك أن العرب حينما فتحوا هذه البلاد كانوا يحملون معهم رسالتهم الدينية التى تدعو إلى المساواة فى الحقوق والواجبات والإخاء بين جميع المسلمين على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم الاجتماعية . الأمر الذى حمل تلك الشعوب المغلوبة على أمرها على أن تدخل فى دين الله أفواجا تقربا من الفاتحين ، وأملا فى المنفعة . وطمعا فى أن يكونوا مواطنين فى ظل الدولة الإسلامية ، لهم من الحقوق ما للعرب ، وعليهم من الواجبات ما عليهم .

ولهذا لم يكد ينتهى القرن الأول ويبدأ القرن الثانى حتى رأينا هذه الشعوب الأجنبية ولا سيما الفرس، تشترك فى إدارة الدولة وفى بناء المجتمع الإسلامى، إذ كان منها القواد والجيوش والوزراء والعمال، وكان منها العلماء والفقهاء والأدباء أيضا، وبخاصة بعد أن قامت دولة بنى العباس التى اعتمدت

على العنصر الفارسى فى بث دعوتها وتثبيت سلطانها دون العنصر العربى . وبذلك أصبحت الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية تحت سيطرة الفرس، فكان من الطبيعى أن يتسرب كثير من عاداتهم وأفكارهم وأنظمتهم القديمة إلى المجتمع الإسلامى، فمن ذلك : تسرب المعتقدات الفارسية القديمة وغيرها إلى الدين الإسلامى عن طريق بعض الفرق الإسلامية ،فالسبئية مثلا كانت تعتقد بأن جزءا آلهيا قد تجسد فى الإمام على ، ثم فى خلفائه الأئمة من بعده . وهذا اعتقاد مبنى على الرأى القديم القائل بتجسد الألوهية .

والكيسانية كانت تعتقد بوجوب انفراد الإمام بتأويل الشريعة حتى انتهت إلى القول بضرورة طاعته إذ أن طاعته لم تكن إلا طاعة للقانون الإلاهى،فساعدما ذهبت إليه من التأويل والقول بأن لكل ظاهر باطنا على تسرب الكثير من العقائد غير الإسلامية إلى هذه الفرق الدينية ـ تلك العقائد التى انتقلت إليها عن المجوسية والمانوية والبوذية وغيرها من الديانات التى كانت سائدة فى آسيا قبل ظهور الإسلام.

وهكذا نشأ من اختلاط هذه العقائد بالإسلام مذاهب جديدة طالما كانت تظهر فيها العقائد الإسلامية تغمرها الأمواج المتلاطمة من الخرافات والبدع .

ومن ذلك أن الخليفة العباسى فى بغداد قد أحيط بهالة من التقديس من جانب العناصر الفارسية الغالية التى أدعت له الربوبية ، كما فعل الراوندية مع المنصور حين « خرج جماعتهم على الناس بالسلاح فأقبلوا يصيحيون بأبى جعفر ، أنت أنت ، يعنون أنت الله »

ولا شك أن هذه الأفكار التى نشأت فى بيئات غير عربية إنما كانت بقية من عبادة الملوك ، تلك العبادة التى كانت مشهورة عند قدماء الفرس

بعد أن خالطها بعض العقائد الإشراقية ، والتى لا يبعد أن تكون قد انتقلت إليهم عن طريق الديانة البابلية القديمة . (١)

فكان من أثر ذلك أن اعتبر الخلفاء العباسيون أنفسهم ظل الله على الأرض، كما اعتبروا إرادتهم متممة لإرادة الله، فابتعدوا بذلك عن الأسلوب الديموقراطى فى الحكم الذى امتاز به عهد بنى أمية والخلفاء الراشدين ، مقلدين فى ذلك ملوك الفرس فى الاستبداد والانفراد بالحكم والاحتجاب عن الشعب الذى لم يكن يراهم إلا نادراً .

ومن ذلك أيضا انتشار نظم الحياة الفارسية فى المأكل والملبس والمسكن لاسيما فى قصور الخلفاء والوزراء والأغنياء ، فشاع البذخ والإسراف والفخفخة فى جوانب الحياة الاجتماعية .

ثم اتخاذ الأعياد الفارسية كالنيروز والمهرجان أعياداً رسمية للحكومة والشعب معا ، وانتشار عادة اللواط والشراب والغناء وغيرها من العادات القديمة بين طبقات الأغنياء والخلعاء والمستهترين دون أن تلقى مكافحة جدية من الحكومة أو رجال الدين .

وأهم من هذا بكثير عودة النظام الإقطاعى إلى الحياة الاقتصادية ، ذلك النظام الذى كان سائدا فى إيران قبل الفتح الإسلامى . (٢)

كل ذلك ، وأكثر منه ، قد حدث والخلافة العباسية ما تزال قوية ، والعنصر العربى ما يزال محتفظا بشىء من نفوذه السياسى والاجتماعى ، لأن التيارات الاجتماعية الأجنبية كانت قوية ، جارفة ، لم يستطع الإسلام أن يستأصلها من النفوس أو يقف فى طريقها فيمنعها من الذيوع والانتشار .

ولكن بعد أن ضعفت الخلافة واختفى ظل العرب من الحياة السياسية أو كاد

---

(١) راجع كتاب السيادة العربية لفان فلوتن ٧٥ -١٠٦

(٢) الحضارة الإسلامية ١ : ٢٠٥

وبعد أن آلت السلطة إلى العنصر الفارسى فى القرن الرابع ، وجدت تلك الأنظمة والعادات الفارسية وغير الفارسية مجالا فسيحا وطريقا معبدا ، فشاعت بين الناس وذاعت ، مستخفية وراء حجاب رقيق من الدين حينا، سافرة فى كثير من الأحيان دون أن يعوقها فى طريقها عائق بحيث يخيل إلينا ونحن ندرس تاريخ هذه الحقبة أن الأمم الأجنبية، ولا سيما الفرس، لم تستطع أن تستسيغ التعاليم الإسلامية أو تتأثر بالتقاليد العربية، ويخيل إلينا أن تأثير هذه الأمم فى الشعب العربى اجتماعيا كان أشد من تأثيره فيها بدليل اختفاء العنصر العربى واللغة العربية والتقاليد العربية فى إيران بعد هذا القرن بزمن غير طويل .

وعلى هذا فإن الظواهر الاجتماعية التى سادت المجتمع البويهى لم تكن وليدة القرن الرابع ، بل هى ثمار بذور قد نمت فى هذه البلاد بالتدريج حتى تكامل نموها فى عهد بنى بويه حيث وجدت ظروفا ملائمة وبيئة صالحة ، فكانت سببا فى انهيار المجتمع الإسلامى وتفسخه .

وربما يكون فى حكمنا على المجتمع البويهى بالتفسخ والانهيار شىء من المبالغة والتطرف ، فقد لا يعدم هذا العصر أناسا يرون فيه عصراً مشرقا، قد ازدهرت فيه العلوم والآداب ، ونشطت فيه حركة الكتابة والتأليف ، وأنشئت فيه مظاهر مدنية رائعة فى مختلف الأقطار ، ولا عبرة بعد ذلك فيما كان فيه من مساوىء لأنها من مستلزمات كل زمان ومكان ، فهو - على هذا الأساس - عصر النضج والازدهار للحضارة الإسلامية . وقد يكون الأمر كذلك لو نظرنا إلى المجتمع تلك النظرة التقليدية التى لا تقيم وزنا للكثرة الغالبة من الشعب ولا تحسب لمصالحها حسابا .

وبعبارة أخرى أقرب إلى الوضوح ، إذا كان مقياس تماسك المجتمع

وعنوان رقيه وازدهار حضـــارته ، هو حال تلك الطبقـة الارستقراطية المتحكمة فى رقاب الناس وفى مصالحهم وشؤونهم فإن الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ـ بناء على ذلك ـ هى أزهى وأرقى وأنضج منها فى أى وقت مضى ، وأن المجتمـع البويهى أشـــد ما تكون المجتمعـات تماسكا ورقيا وارتباطا .

أما إذا نظرنا إلى حالة الشعب بصورة عامة فاتخذناها مقياسا للحكم على رقى المجتمع أو انحطاطه فإن العصر البويهى يعتبر على هذا الأساس أسوأ العصور التى شهدتها الأمـة الإسلامية حتى ذلك التاريخ .

وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فأى عصر أسوأ من هذا العصر الذى امتاز بالتطرف الشديد فى مختلف نواحى الحياة المادية والروحية ؟ بل أى عصر أسوأ من هـذا العصر الذى بلغ فيه التفاوت والاختـلاف بين الناس حد التناقض ، فإذا هم بين منعم ومحروم ، ولاه وجاد ، ووقور ومستهتر ، ومتدين وملحد ومتفائل ومتشائم . . . ؟ !

لا شك فى أن وجود مثل هذه الظواهر الاجتماعية المتناقضة فى مجتمع ما يكفى جداً لأن يفكك عراه ، ويزعزع أركانه ، ويباعد بين طبقاته المختلفة فإذا هو متصدع منهار .

ولـكن ألا يصح أن يسأل سائل فيقول : لماذا كان هذا التطرف الشديد فى الحياة الاجتماعية من خصائص هذا العصر دون غيره من العصور ؟

وللإجابة عن هذا السؤال لا بد لنا من أن نستعين بالرأى القائل بأن الحالة الاقتصادية هى العامـل النهائى الحاسم الذى يؤثر فى شكل المجتمع وفى الصراع القائم فى المجتمع وفى ضروب الأفكار التى تسوده ، والقائل أيضا بأن وعى الناس لا يكيف معيشتهم ، بل على العكس من ذلك فإن معيشتهم

هى التى تكيف وعيهم .[١]

وإذا كان هذا الرأى صحيحا ، فصحيح أيضا أن الحالة الاقتصادية للمجتمع البويهى هى التى كيفت وعى الناس وحددت مشاعرهم فدفعت بهم إلى سلوك هذه السبيل أو تلك فكانوا فى حياتهم الاجتماعية على اختلاف نواحيها على طرفى نقيض .

وتعليل ذلك هو أن فساد النظام المالى فى العصر البويهى قد سبب اختلالا هائلا فى التوازن الاقتصادى بين الطبقات ، فالثروة ـ كما يقول أستاذنا الجليل أحمد أمين بك ـ كانت غير موزعة توزيعا عادلا ولا متقاربا ، والحدود بين الطبقات كانت واضحة كل الوضوح ، فجنة ونار ، ونعيم مفرط ، وبؤس مفرط ، وإمعان فى الترف يقابله فقدان القوت .[٢]

وجدير بهذا الاختلاف الشديد فى أساليب العيش أن ينتج اختلافا شديداً فى الوعى والشعور عند الناس، وخليق بهذا الاختلاف الشديد فى الوعى والشعور أن ينتج مظاهر اجتماعية متباينة ومذاهب فكرية متناقضة فى صعيد واحد.

لقد كانت هذه الحالة أثراً من آثار النظام الطبقى الذى ساد المجتمع البويهى فى هذ العصر ، حيث كانت هناك طبقتان متميزيتان بعضهما عن بعض كل التميز: هما طبقة الخاصة وهى ضئيلة العدد قوامها الملوك والوزراء ورجال الدولة وبعض التجار والإقطاعيين . وطبقة العامة وهى تشمل أكثرية الأمة من علماء وأدباء وصناع ومزارعين وفلاحين ورعاع .

أما طبقة الخاصة وأغلبها من ذوى النفوذ والسلطان فإنها قد استغلت الطبقة العامة ـ بما كان لها من قوة وسيطرة ـ أفظع استغلال إذ كانت

---

(١) الفلسفة المادية الجدلية تأليف دافيد جوست ص ٣٨ من الترجمة العربية

(٢) ظهر الإسلام ص ٩٧

أشبه شيء بعصابة تواطأت فيما بينها على انتهاب أموال الرعية والاستيلاء عليها بطريق العسف والظلم والاغتصاب فقد كانت تنظر إلى رعيتها نظرة الراعي إلى بقرته الحلوب، ولكنها تختلف عنه بعد ذلك في أنها لم تكن تعنى برعيتها كما يعنى الراعي ببقرته، بل كان همها الوحيد هو الحصول على المال من أى طريق مشروع أو غير مشروع .

ولهذا زادت في الضرائب القديمة ، واستحدثت ضرائب جديدة باهظة لم تكن معروفة من قبل ،وقست في أساليب استخراج هذه الضرائب من الشعب وتفننت في القسوة على نحو لم يسبق له مثيل،فأدى ذلك إلى استئثار هذه الطبقة الحاكمة بموارد الرزق دون غيرها،فتجمعت الثروة في يدها وتركز الغنى الفاحش في قصورها .

يدلنا على ذلك تلك الأرقام الهائلة التي ذكرها المؤرخون عن الثروات التي كانت لدى الملوك والوزراء وبعض الأغنياء في هذا العصر،ومن أمثلة ذلك:

أن عضد الدولة حينما مات خلف ٢٨٤ ر ٨٧٥ ر٢ ديناراً ومن الورق والنقد والفضة ٧٩٠ ر ٨٦٠ ر ١٠٠ درهما ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلور والسلاح والمتاع شيئا كثيراً .

وأن محمد بن عمر العلوى الإقطاعي المشهور كان يملك ضياعا يؤدى عنها خراجا ـ فقط ـ للدولة في كل سنة ألفى ألف وخمسمائة ألف درهم . (١)

وأن أبا الحسن بن الفرات وزير المقتدر في أوائل القرن الرابع كان يملك أموالا كثيرة تزيد قيمتها على عشرة آلاف ألف دينار وكان يستغل من ضياعه في كل سنة ألفى ألف دينار . (٢)

---

(١) ابن الأثير ٧ : ١٣١ (٢) وفيات الأعيان ١ : ٤٧٠

وأن ابن الجصاص الجوهري كان من الغنى والثراء بحيث بلغ المال الذى صودر عليه عشرة آلاف ألف دينار وقيل أكثر من ذلك (١).

هكذا كان المال كثيراً والثراء واسعاً فى هذ العصر، ولكن عند أفراد قلائل من الأمة هم الحكام والأغنياء ومن يتصل بهم من الأقارب والأعوان أما الجمهور فلم يكن لديه غير الفقر والبؤس والشقاء.

وطبيعي أن يظهر أثر هذا الثراء العريض فى أسلوب العيش ووسائله فى الأوساط الغنية فيغشاها الترف والنعيم ويسودها البذخ والإسراف ولهذا نجد الأغنياء فى هذه الأوساط المترفة يتأنقون فى المأكل والمشرب واللباس والسكن فينشئون القصور الضخمة ويحيطونها بالحدائق والبساتين الجميلة ويملأونها بأدوات الترف وصنوف الزينة وفاخر الرياش ونراهم أيضاً يمعنون فى الجرى وراء شهواتهم حتى يبلغوا حد الإفراط، فمن مجالس شراب أنيقة إلى مجالس غناء معمورة بالقيان والغلمان إلى غير ذلك من صنوف اللهو والترف.

وإذا كان لا بد من أمثلة للاستشهاد بها على هذا الترف والنعيم فإننا نورد بعض الأمثلة التى توضح ما قدمنا من كلام أجلى وضوح:

قال المقدسى: « وبنى - يعنى عضد الدولة - بشيراز داراً لم أر فى شرق ولا غرب مثلها، ما دخلها عامى إلا افتتن بها، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها، خرق فيها الأنهار ونصب عليها القباب وأحاطها بالبساتين والأشجار، وحفر فيها الحياض، وجمع فيها المرافق والعدد، وسمعت رئيس الفراشين يقول: فيها ثلاثمائة وستون حجرة، كان مجلسه كل يوم واحدة إلى الحول وهى سفل وعلو . . . . وطفت فيها ورأيت الأنهار تطرد فى البيوت والأروقة، وأظنه بناها على ماسمع من أخبار الجنة وبان بونا بعيداً

---

(١) تجارب الأمم ٥ : ٣٥

وضل ضلالا مبينا . . . » (١)

وذكر ابن الأثير : أن معز الدولة بنى داراً ببغداد فكان مبلغ ما أنفق عليها إلى أن مات ثلاثة عشر ألف ألف درهم . وقال الحافظ عماد الدين : إنه أنفق عليها ألفى ألف دينار . (٢)

وكان الوزير المهلبي شديد التأنق بطعامه ولباسه حتى إنه كان لا يأكل إلا بملاعق الذهب ، وما كان يأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة ، فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة ، ويروى مثل هذا عن ابن الفرات .

وكذلك كان المهلبي شديد الشغف بالورود . حدث القاضي التنوخي فقال: « شاهدت أبا محمد المهلبي قد ابتيع له فى ثلاثة أيام ورد بألف دينار فرش به مجالسه وطرحه فى بركة عظيمة كانت فى داره ، ولها فوارات عجيبة يطرح الورد فى مائها فتنفضه على المجلس فيقع على رؤس الجالسين وبعد شربه عليه وبلوغه ما أراده منه أنهبه . » (٣)

وكان راتب أبي طاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة من الشمع ألف من فى كل شهر ومن الثلج ألف رطل فى كل يوم . (٤)

وكان الصاحب بن عباد يعجبه الخز ويأمر بالاستكثار منه فى داره، فنظر الزعفرانى الشاعر يوما إلى جميع من فيها من الخدم والحاشية وعليهم الخزوز الفاخرة فاعتزل ناحية وكتب قصيدة فى الصاحب منها هذا البيت:

وحاشية الدار يمشون فى　　　ضروب من الخز إلا أنا

وكذلك « تفننوا فى الصناعات الجميلة من أنواع الحلى والدقة فى النسج وزركشة الثياب وأنواع العطور والنقش والتصوير ، وأصناف الأزياء

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٤٩　　(٢) ابن الأثير ٦ : ٣٠٩ وما بعدها
(٣) معجم الأدباء ٩ : ١٣٨　　(٤) ابن خلكان ٢ : ٦٢

والمأكول والمشروب والحدائق والبساتين والغناء والموسيقى »[1]

وجعلوا لمجلس الشراب قواعد وآدابا كما جعلوا للظرف والظرفاء قواعد وآدابا من خرج عليها كان غير ظريف .

وألفوا الكثير من الكتب فى الطعام وأنواعه ، وفى الشراب وأصوله وفى الظرف وآدابه .

كل ذلك يدل على إمعان هذه الطبقة فى الترف والنعيم والإسراف فى طعامها وشرابها ولباسها وسكنها ، كما يدل على إمعانها فى تطلب المسرات وانتهاب اللذات .

* * *

وأما الطبقة العامة وأغلبها من صغار التجار والمزارعين ومن الصناع والفلاحين الكادحين فى الأسواق والحقول ، فقد أثقلت كاهلها الضرائب الفادحة وأنهكتها ويلات الحروب المستمرة بين الأمراء ، والفتن الدامية بين الطوائف ، وأقلقها أهل العيث والفساد من لصوص وقطاع طرق وعيارين وشطار . كل ذلك سبب تعطيل الأعمال وعدم الاستقرار وخراب البلاد ونضوب الموارد وبالتالى انخفاض مستوى المعيشة بين الجماهير انخفاضا هائلا ، ذلك أن أولئك الأمراء المختصمين حول السلطان كانو بحاجة إلى المال ينفقونه على قوادهم وجندهم بسخاء ليضمنوا طاعتهم وولاءهم ، وهم بحاجة إلى المال أيضا ينفقونه فى حياتهم المترفة وملذاتهم الكثيرة ويفرقونه على أتباعهم من أدباء وعلماء وحاشية وخدم ونحو ذلك .

لهذا كانوا مضطرين إذا ما نفد المال من خزائنهم - وكثيرا ما ينفد - إلى فرض ضرائب جديدة قاسية ، وإلى زيادة الضرائب القديمة ، فأحيوا من

---

(١) ظهر الإسلام ص ١٠٧

أجل ذلك، الكثير من الوسائل الاقتصادية القديمة التي جرت العادة باللجوء إليها لامتصاص ثروة الناس ، [1] ففرضوا ضرائب على الصادرات والواردات، وضرائب على ما ينتج من السلع والبضائع داخل البلاد حتى الضروريات من وسائل العيش كالملح مثلا ، ثم انهم أسرفوا ، في استغلال الشعب حتى إن الطواحين والدور التي يعمل فيها ماء الورد وشوارع المدن وأسواقها في فارس كانت ملكا للحكومة تتقاضى عليها أجوراً .[2]

من ذلك ما فعله عضد الدولة في آخر أيام دولته فقد زاد الرسوم القديمة وأحدث رسوما جائرة على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة ثم زاد ما تقدم فمنع من عمل الثلج والقز وجعلهما متجرا للخاص .

وما عزم عليه صمصام الدولة عام ٣٧٥ ببغداد من وضع ضريبة مقدارها عشر الثمن على الثياب الإبريسم والقطن المبيعة ، فاجتمع الناس في جامع المنصور وعزموا على قطع الصلاة وكاد البلد يفتتن فأعفوا من ذلك ، ولكن عاد السلطان في عام ٣٨٥ فوضع العشر على ما يعمل من الثياب الابريسميات والقطنيات بمدينة السلام فثار الناس وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة ومنعوا الخطبة والصلاة . . . واستقر الأمر أخيرا على أخذ العشر من قيم الثياب الابريسميات ووضعت الختوم على كل ما يقطع من المناسج ويباع ويحمل .

ويدلنا على فداحة هذه الضرائب المتنوعة التي استنزفت أموال الناس ما ذكره المقدسي عن الضرائب في العراق إذ قال :

« وأما الضرائب فثقيلة ، كثيرة ، محدثة ، في النهر والبر . وفي البصرة

---

(١) الحضارة الإسلامية ١ - ٢٠٧ (٢) المسالك والممالك ص ١٥٨

تفتيش صعب وشوكات منكرة ، وكذلك بالبطائح تقوم الأمتعة وتفتش ... وأما القرامطة فلهم ديوان على باب البصرة وللديلم ديوان آخر حتى إنه يؤخذ على الغنمة الواحدة أربعة دراهم (أى ضعف ثمنها) وإذا رجع الحاج مكسوا أحمال الأدم والجمال الأعرابية ، وكذلك بالكوفة وبغداد »[1]

وما ذكره أيضا حينما تحدث عن الضرائب فى فارس وقال :

« ولا تسأل عن ثقل الضرائب وكثرتها ، ثم قال : قرأت فى كتاب بخزانة عضد الدولة ، أهل فارس أنجع الناس بطاعة السلطان وأصبرهم على الظلم وأثقلهم خراجا وأذلهم نفوسا وهم لم يعرفوا عدلا قط .... »[2]

وكان مما زاد هذه الحالة سوءاً على سوء تلك الطريقة التى اتبعت فى جباية الخراج وسائر الضرائب ، فقد كان أولو الأمر يبيعون هذه الضرائب على سبيل الضمان والالتزام إلى أشخاص همهم ابتزاز الأموال والوصول إلى الثراء من أى طريق مشروع أوغير مشروع ، فظلموا الرعية وعسفوها وتفننوا فى الظلم والعسف ليستردوا منها أضعاف ما دفعوا إلى السلطان ، حتى عجز دافعو الضريبة عن الوفاء بها فهجر أكثرهم المزارع وتركوها خرابا ، فنقص الارتفاع نقصا بارزاً ، ولا سيما فى العراق بحيث آل الحال فى آخر القرن الرابع إلى أن يقول عضد الدولة : غرضى من العراق الاسم ومن أرجان الدخل .

يضاف إلى ماتقدم ما كان من إهمال السدود وفقدان العناية بالرى فى بلاد تعتمد فى زراعتها على الطرق الفنية فى الإرواء ، فطغى الماء على الأراضى فاستحالت مستنقعات وأهواراً ، وماجرى عليه الأمراء من إقطاع الضياع إلى جندهم وذوى النفوذ من رجال دولتهم وتخريبها على أيديهم .

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٣٣ (٢) نفس المصدر ص ٤٥١ ، ٤٤٨

ثم ما كان من فساد الحالة الإدارية وعدم الاستقرار فى جهاز الدولة لانقسام الجيش إلى فرق، وتعصب كل فرقة إلى جنسها، ولاختلال القضاء والحسبة والشرطة بتدخل الحكام، ولكثرة العزل والتولية بين الوزراء والعمال والموظفين، ولانتشار الرشوة انتشاراً فظيعاً حتى قيل: «الرشوة رشاء الحاجة».

وأخيراً ما أعقبته تلك الحروب والفتن من آثار سيئة فى حياة العامل والفلاح من حريق ونهب وسلب وتخريب ضياع وإهلاك زروع.

كل أولئك أمور تضافرت، فأضعفت القوى الإنتاجية فى البلاد يوما بعد يوم، وكل أولئك أيضا أمور تعاونت فسببت فقر الشعب وبؤسه ودفعت به نحو الخراب والدمار، فانتشرت الأمراض والأوبئة، وانعدم الغذاء، وعز القوت، وتوالت المجاعات فى طول البلاد وعرضها، بحيث لم تكد تمر سنة دون أن تجتاح البلاد موجة غلاء تعقبها مجاعة مهلكة تفتك بالناس فتكا ذريعا «تميت أكثرهم ومن يبقى منهم فهو على صورة الموتى» حتى قال أحد الشعراء فى ذلك: (١)

قد أصبح الناس فى غلاء ... وفى بلاء تداولوه
من يلزم البيت يود جوعا ... أو يشهد الناس يأكلوه

وقال آخر:

لا تخرجن من البيوت ... لحاجة أو غير حاجه
والباب أغلقه عليك ... موثقا منه رتاجه
لا يقتنصك الجائعون ... فيطبخونك شورباجه

وإذا لم يكن بد من الاستشهاد على هذا الغلاء وتلك المجاعات المتكررة

---

(١) ابن الاثير ٧ : ٢٥٤

نقل بعض ما ذكره ابن الأثير فى هذا الصدد إذ قال :

« وفيها — يعنى سنة ٣٨٢ — غلت الأسعار ببغداد فبيع الرطل الخبز بأربعين درهما »

وقال : « فى هذه السنة اشتد الغلاء بالعراق فضج العامة وشغب الجند وكانت فتنة » .

ويحدثنا عن إحدى المجاعات فيقول :[1]

« وفيها — يعنى سنة ٣٣٤ — اشتد الغلاء ببغداد حتى أكل الناس الميتة والكلاب والسنانير وأخذ بعضهم ومعه صبي قد شواه ليأكله وأكل الناس خروب الشوك فأكثروا منه وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه ، فلحق الناس أمراض وأورام فى أحشائهم ، وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم وانحدر كثير من أهل بغداد إلى البصرة فمات أكثرهم فى الطريق ومن وصل منهم مات بعد مديدة يسيرة وبيعت الدور والعقار بالخبز . . . »

ومما له عظيم الدلالة على انتشار الفقر المدقع بين طبقات الشعب، ما نراه من بؤس العلماء والأدباء الذين لم يتصلوا بالأمراء والوزراء وذوى اليسار.

فأبو سليمان المنطقى الفيلسوف المشهور كان فى « حاجة إلى رغيف ، وحوله وقوته قد عجزا عن أجرة مسكن ، وعن وجبة غدائه وعشائه . »

وعبدالوهاب البغدادى المالكى قد ضاقت به المعيشة فى بغداد فخرج عنها طالبا للرزق، ولما شيعه أكابرها قال لهم : « لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت عن بلدكم » .

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٢١

وأبو حيان التوحيدى كان دائم الشكوى والتذمر من الفقر والجوع وجور الزمان حتى قال : « وماذا أقول وسامعى يصدق أن زمانا أحوج مثلى إلى ما بلغك ، لزمان تدمع له العين حزناً وأسى ويتقطع عليه القلب غيظا وجوى وضنى وشجى . »

وهكذا كانت هذه الطبقة بائسة ممعنة فى البؤس ، كما كانت الطبقة العليا منعمة ممعنة فى النعيم ، فكانتا فى حياتهما المادية على طرفى نقيض .

* * *

وبعد ، فماذا كان من أثر هذا النعيم والبؤس فى المجتمع ؟ وماذا أنتجا من الظواهر الاجتماعية ؟ وبعبارة أخرى : هل كيف نعيم المنعمين وبؤس البائسين وعى الناس ومشاعرهم فى الحياة ؟

نستطيع أن نقول إن العامل الاقتصادى فى هذا العصر قد أصبح مصدرا لكثير من التيارات الاجتماعية والفكرية التى لونت حياة الناس على اختلاف طبقاتهم بألوان شتى .

وتعليل ذلك أن الناس فى المجتمع البويهى كانوا قد فقدوا الثقة بكل شىء اسمه العدل والحق والمثل الأعلى ، لما كان يجرى فى حياتهم من أمور وأحداث لا يقرها منطق ولا يبيحها دين ، ولا يسيغها عرف ، من ظلم وعسف ونهب وسلب وتخريب وسفك دماء ... الخ ، كنتيجة للفوضى والاضطراب فى الحياة السياسية والاجتماعية ، الأمر الذى جعل حياة الفرد خاضعة للمفاجآت وانتهاز الفرص ، والمغالبات ، قائمة على القوة والصراع والكفاح ، مهددة بالجوع والبؤس ، بل بالموت الذى لا يرحم ، كما جعلها أيضا بعيدة كل البعد عن القيم الأخلاقية والمثل العليا ، بعيدة عن عالم الروح الذى لا تزدهر مقوماته إلا فى جو من الهدوء والاطمئنان ، وفى ظل حياة يسودها النظام والاستقرار والأمان .

كل ذلك أسرع بالمجتمع البويهى نحو حياة لا يسمع فيها صوت إلا صوت المادة ، ولا خطر فيها إلا الخطر الذى ينجم من فقدان المال .

وهكذا وقع الإنسان فى هذا المجتمع تحت طائلة الجانب المادى من الحياة فتحدد سلوكه ، وتعينت تصرفاته ، وتلونت أخلاقه ونزعاته بوحى من منافعه المادية .

ونظرة بسيطة نلقيها على المجتمع البويهى ترينا عجباً ، ترينا عجباً من آثار المادة فى حياة البشر المنعم والبشر البائس .

فالطبقة العامة التى منيت بالفقر المدقع ، والحرمان الشديد والفاقة المؤلمة ، والجهل المطبق ، قد عاشت حياتها فى جو مادى قاس ، فلم تعد تفكر إلا بالقوت وإلا بالوسيلة التى تحصل بها على القوت .

وإذ كان الحصول على القوت شاقاً وعسيراً ، بل مستحيلا فى بعض الأحيان ، كان من الطبيعى أن يلجأ الناس — مدفوعين بغريزة حب البقاء — إلى أن يسلكوا سبلا وعرة قد لا يبيحها العرف ، وقد لا يقبلها الخلق الكريم ، وقد تتنافى مع الدين وتتجافى مع العقل ، كل ذلك ليدفعوا عن أنفسهم غائلة الجوع .

ولا شك فى أنهم كانوا يصدرون فى تصرفاتهم هذه عن آراء وأفكار تكونت عندهم وهم تحت تأثير عوامل اقتصادية قاسية فاقتنعوا بها وارتضوها . ومن هنا تفرقت بهم السبل وتشعبت بهم المذاهب حتى أصبحوا شيعاً وأحزاباً مختلفة فى نظرتها إلى الحياة .

فهذه طائفة من الناس قد قست عليها ظروف الحياة وهددتها بالموت جوعاً فاستهانت بأغلى ما يعتز به الإنسان وفرطت به .. باعت عرضها ، وتاجرت بشرفها ، لتظفر بالقوت ، فأتخذت لنفسها بيوتاً تعرض فيها اللذة كما تعرض

السلع فى الأسواق، مستهترة ، ساخرة، من كل ما يسميه الناس عرفا،وديناً، وتقاليد، وأخلاقاً.

وتلك فئة أخرى أراقت ماء الوجه، وأهانت المروءة ، فاتخذت التسول والتكدى وسيلة للارتزاق ، وفضلتها على الزراعة والتجارة والإمارة ، لما كان يحف هذه المهن من المكاره والخطوب . وذلك من أغرب الأمور ! .

وهؤلاء قوم قد سدت فى وجوههم أبواب الرزق فاستعانوا على العيش بقوة أجسامهم وسعة حيلتهم ، فاتخذوا من التلصص وقطع الطريق والسطو على أموال الناس حرفة يرتزقون منها .

وأولئك أناس لم يستطيعوا أن يجاروا الناس فى ميادين الكفاح، فأخفقوا وتملكهم اليأس من النجاح فى هذه الحياة الدنيا فاحتقروها ووقفوا منها موقفاً سلبياً فدعوا وأسرفوا فى الدعوة إلى « التوكل على الله والثقة المطلقة به ، تاركين الأمر كله لمشيئته » ، حتى أصبح شعارهم « صم عن الدنيا تفطر بالآخرة (١) » ، فصوروا الحياة بصورة قاتمة ، وأشاعوا فيها نغمة حزينة مملة . . . أولئك هم المتصوفة والزهاد .

ذلك أثر المادة فى حياة الطبقة البائسة، وتلك هى الظواهر الاجتماعية التى نجمت عنها ، فما هو أثرها فى حياة الطبقة المنعمة ، ثم فى حياة المجتمع على العموم ؟

لقد كان أصحاب الثروة واليسار والمناصب الكبرى فى الدولة فى هذا المجتمع فريسة للقلق والخوف ، مهددين فى كل لحظة بالمصادرة والقتل ، والتعذيب والقبض وزوال النعمة والجاه، وغير ذلك مما ذكرنا طرفا منه فيما تقدم .

---

(١) الاعجاز والإيجاز ص ١٢٩

كل ذلك كان من أجل أموالهم ومراكزهم ، وكل ذلك أيضا دعاهم إلى أن ينكبوا على اللذات يعبونها عباً ، وإلى الأوقات يختلسونها اختلاساً ، كأنهم كانوا مع زوال النعمة وحلول النكبة على ميعاد . . . لقد كانوا يعيشون ليومهم ، بل للساعة التي هم فيها .

فإذا أضفنا إلى هذا ما كان من ضعف أثر الدين وانحلال الاعتبارات الاجتماعية عند القوم لظهور البدع الدينية وعودة العادات الشرقية القديمة إلى المجتمع من جديد، استطعنا أن ندرك سبب انتشار بعض الظواهر الاجتماعية كالفسق والفجور والشراب والغناء وألفاظ المقاذر والمجون فى المجتمع حتى بين العلماء والفقهاء والقضاة الذين ينتظر منهم التزمت والوقار والتزام جانب الدين والأخلاق، واستطعنا كذلك أن ندرك سبب عدم استنكار المجتمع لهذه الموبقات ، وسبب جموح النزوات والشهوات عند الطبقة المترفة .

وكان للمال — العامل الاقتصادى — آثار أخرى سيئة فى أخلاق الناس ولا سيما الطبقة العليا ، فقد تعلقوا به تعلقاً شديداً ، إذ كان المحور الذى تدور عليه حياتهم ، فتنازلوا فى سبيل الحصول عليه عن كثير من الصفات الكريمة ، واستعاضوا عنها بالذل والضعة ، وفقدان الشعور بالكرامة والاستخفاف بكرامة الغير . وبالكيد والدس والجشع والبغض والنفاق وما إلى ذلك .

وكان لفقدان المال — العامل الاقتصادى — آثار أخرى سيئة أيضا فى حياة الناس ، ولا سيما الطبقة العامة ، إذ أصبح مصدراً لانتشار الدجل والتخريف بينهم ، فقد « تعلق الناس بالأسباب الموهومة فى الحصول على الغنى لعجزهم عن تحصيله بالوسائل المعقولة ، فتنجيم واعتقاد فى الطوالع التى تسعد وتشقى ، وانصراف إلى الكيمياء التى تحول النحاس والقصدير ذهباً ،

والالتجاء إلى دعوات الأولياء، لعل دعوتهم تتحقق فينقلب فقرهم غنى . هذا إلى الاعتقاد فى السحر والطلسمات والبحث عن الكنوز المخبوءة ونحو ذلك [١] ».

لا نريد أن نطيل فنضرب الأمثال ، فالشواهد على ذلك أكثر من أن يحيط بها حصر ، ولكننا نريد أن نشير إلى شيء لا بد من الإشارة إليه وهو: أن هــذه الطبقة الارستقراطية قد أصبحت هيا كل فارغة ، وطبولا خالية قد ملأت حياتها بالتوافه من قشور الحياة وأعرضت عن جوهرها ، فعجزت عن أن تلهم من حولها من الأدباء بالمعانى القوية السامية .

فكان من أثر ذلك أن التجأت هذه الطبقة إلى استعمال عبارات المجاملة المتكلفة وتهادى العواطف المزيفة ، وإلى « شراء » الألقاب الضخمة ، والتعلق بالمظاهر الكاذبة ، وحشد الأدباء الذين يحسنون الملق والنفاق فى قصورها للشهرة وبعد الصيت . كل ذلك كان سداً للفراغ وتكميلا للنقص اللذين شعرت بهما وهى تحت تأثير هذه الحياة المادية الفارغة .

* * *

وكما كان العامل الاقتصادى سبباً رئيسياً فى وجود هذه الظواهر الاجتماعية المتناقضة ، كذلك كان سبباً جوهرياً فى ظهور مذاهب دينية وأخرى فكرية تهدف إلى إصلاح الأحوال الفاسدة ، كالتى نجدها عند الإسماعيلية والقرامطة وإخوان الصفاء وبعض المتنبئين والزهاد .

وإن نظرة عابرة على هذه المذاهب الدينية والفكرية ، وعلى هــذه الظواهر الاجتماعية التى سادت المجتمع البويهى فى هذا العصر لترينا ما بينها وبين التراث الاجتماعى القديم فى هذه البلاد من صلة وثيقة ، ذلك التراث

(١) ظهر الإسلام ص ١٢١

الذى انحدر وتسرب إلى الحضارة الإسلامية رويداً رويداً حتى استفحل أمره فى هذا العصر لتوافر الشروط والأسباب وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

* * *

ولست أدرى بعد ذلك، كيف يكون التفسخ والانحلال والانهيار فى مجتمع اضطربت حياته السياسية هذا الاضطراب، وانهارت أواصره الاجتماعية هذا الانهيار وتحطمت مثله العليا على صخرة المادة ؟ !

والأدب، ما موقفه من هذا المجتمع ؟ وهل استجاب لمؤثراته السياسية والاجتماعية المختلفة فصورها وأبان عنها ؟

هذا ما سنحاول دراسته فى الفصول الآتية .

القسم الثاني

في

أثر البيئة العامة

في الأدب البويهي

الباب الأول

أثر البيئة الطبيعية

فى الأدب البويهى

تمهيد

لا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن الإنسان ابن بيئته الطبيعية ، إذ فيها يولد ، وفى ظلها يترعرع ، وعلى هديها فى الحياة يسير ، ومنها يستمد لونه وشكل أعضائه وهيئة جسمه وجرس لغته ، وعنها يأخذ أسلوب معيشته وطراز مسكنه ولباسه. ولا يقف الأمر به عند هذا الحد بل نراه يجاريها فى أخلاقه ، ويماشيها فى طباعه وعاداته . ولم لا يكون الأمر كذلك وآثار البيئة الطبيعية فى أهلها ظاهرة لكل ذى عينين ؟

فالصحراء الفسيحة ، القاسية ، ذات الشمس المحرقة ، والسموم المتوهج هى التى جعلت البدوى أسمر اللون ، ممشوق القوام ، فظاً غليظ القلب ، محباً للانطلاق ، نافراً من القيود .

والبلاد الجبلية المرتفعة ، ذات المسالك الوعرة والأشجار الملتفة قد أورثت أهلها بياض اللون ، وضخامة الجسم ، وقوة العضلات ، والميل إلى الوهم والخيال.

والبلاد التى تتعدد فيها القوى الطبيعية توحى إلى أهلها بتعدد الآلهة.

والسهول التى تجرى فيها المياه فى رفق ، وتنمو فيها النباتات ببطء ، قد طبعت أهلها بطابع الوداعة ، وطول الأناة .

والتربة الخصبة التى تجود على أبنائها بالرزق دون مشقة أو عناء توحى إليهم بالكسل والجود . وعلى العكس منها تكون التربة الشحيحة ، إذ تورث أبنائها النشاط ، والحرص ، وهكذا .

وكذلك تؤثر البيئة الطبيعية فى الحياة النفسية عند الإنسان تأثيراً بالغاً ، فتلونها بلونها ، وتطبعها على غرارها ، ذلك أنها تقسو عليه بحرها وبردها وعواصفها حيناً ، فيلوذ بالمغاور والكهوف والأشجار والبيوت، وتحنو عليه بنسيمها الوانى وأشعتها الدافئة، ورياضها الزاهرة حيناً آخر، فينطلق فى جوانبها ينشد الراحة أو يسعى وراء الرزق . وهو تحت تأثير هذه القسوة وهذا الحنان إما مرح أو مكتئب وإما ساخط أو راض ، فهذا العراقى سريع الغضب ، سريع الرضى ، لأن نهاره جحيم ، وليله نعيم . وهذا المصرى ، وديع ، هادىء ، دمث الأخلاق لتأثره بهذا الطقس اللطيف الذى يكاد يسير على وتيرة واحدة طول العام .

وليس من شك فى أن هذا الإنسان كان أول أمره يفصح عن هذه الانفعالات والأحاسيس المختلفة بالإشارة والأصوات المبهمة وتغيير الملامح ولكنه بعد أن ارتقى فى سلم الحياة وتوصل — فيما توصل إليه — إلى معرفة اللغة ، اتخذ منها أداة للتعبير عما يجيش فى نفسه من إعجاب بمظاهر الطبيعة أو سخط عليها ، ثم استطاع آخر الأمر أن ينشد الشعر أو ينشىء النثر ، متغنيا بجمالها ، مأخوذاً بهمساتها ، أو ضيقا بقسوتها ، مستغيثاً من كربها وبلائها .

ومن هنا كانت النفس الإنسانية، وما تزال ، أشبه شىء، بالقيثارة توقع عليها الطبيعة بأناملها ضروبا من الأنغام والألحان هى أصداء وأرجاع لما فى هذا الكون من مظاهر الجمال والقبح أو الخير والشر.

ولو قدر لهذا الإنسان أن يحيا بعيداً عن المؤثرات الاجتماعية لكان نتاجه الفنى صورة لبيئته الطبيعية طبق الأصل ، كما يقولون ، ولكنه مدنى بالطبع ، يميل إلى الإلف ويكلف بالاجتماع فينشىء الأحياء ويؤسس القرى والمدن ، ويقيم الممالك ، حتى إذا تم له ذلك وجد نفسه مقيداً بعد أن كان حراً طليقاً ، مقيداً بهذا النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، فإذا هو خاضع لمظاهره المختلفة ، من نعمة وحرمان، وزهد واستهتار، وظلم وإنصاف ... الخ وإذا هو مضطر إلى أن ينفعل بهذه المظاهر الاجتماعية كما انفعل بمظاهر الطبيعة ، وإلى أن يصور هذا الانفعال بالشعر تارة ، وبالنثر تارة أخرى . فنراه مثلا يتغزل إذا أحب ، ويشكو إذا ظلم ، ويهجو إذا حرم ويمدح إذا وصل ، ويمجن إذا كان فى سعة من عيش أو فى حل من دين وعرف.

وهكذا تقع النفس الإنسانية تحت تأثير عوامل مختلفة من الطبيعة والسياسة والاجتماع ، فتتعقد أحاسيسها ، وتتعدد انفعالاتها ، وتختلف نظراتها إلى الحياة بل إلى الكون بأجمعه ، ولذلك تتعدد ميادين الأدب الذى يصور هذه الانفعالات فتختلف - تبعا لتعددهذه الميادين - فنونه وألوانه فتجد أدبا يصور الخلاعة والمجون ، وآخر يصور الشكوى والحرمان ، وثالثا يصور مظاهر الطبيعة ، وهكذا .

وإذن فليست الطبيعة وحدها هى التى تؤثر فى تكوين الأدب ، بل تشترك معها فى هذا التأثير مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية التى تحياها الأمة المنشئة لهذا الأدب . أريد أن أقول : إن الأدب صورة تتركز فيها الحياة النفسية للجماعة التى تنشئه بعد أن تتأثر بمظاهر الكون المختلفة ، وبعبارة أخرى أقرب إلى الإيجاز : إنه رجع وصدى للبيئة العامة .

وإذا صح ما قدمناه من أن البيئة الطبيعية هى أحد العوامل المؤثرة

فى حياة الأدب ، فأين إذن أثرها فى الأدب البويهى ؟ وبمعنى آخر هل تأثر أدباء العصر البويهى أو انفعلوا بمظاهر الطبيعة فى بلادهم ؟ وهل صوروا هذا الانفعال فى أدبهم كما فعل الجاهليون مثلا ؟

نستطيع أن نقول — ونحن مطمئنون — إن هؤلاء الأدباء قد تأثروا ببيئتهم الطبيعية التى ألممنا فيما تقدم بمظاهرها المختلفة ، كما تأثروا ببيئتهم السياسية والاجتماعية ، فنظرة عابرة إلى آثارهم الأدبية ترينا أنهم قد أحبوا مناظرها الفاتنة ، كالرياض والحدائق والمياه الجارية وهاموا بها ، كما سخطوا على مظاهرها القاسية كالحر والبرد والحشرات المؤذية ، وتذمروا منها ، ذلك أن مظاهر الطبيعة فى بلادهم لم تكن كلها جميلة ، ولم تكن جميعها خيرة بل كان فيها ما هو جميل وما هو قاس شديد القسوة ، ولذلك كان موقفهم منها مشوبا بالحب والإعجاب حينا ، وبالبغض والاشمئزاز حينا آخر .

ولعل هذا الموقف المتناقض ذا الوجهين إن دل على شىء فإنما هو يدل على شدة تأثرهم بها واستجابتهم لمؤثراتها ،فالإنسان كائن حى يتأثر بما حوله وينفعل به ، فيعجب بما يسر ، ويسخط على مايؤلم ، وما أكثر المناظر السارة والمناظر المؤلمة فى هذه البلاد ! .

على أن تأثر الأدباء فى هذه البلاد ببيئتهم الطبيعية قد ظهرت بوادره قبل هذا العصر بكثير ، ظهرت فى شعر شاعرين محافظين لم يعرفا بين الشعراء المجددين هما إسحق الموصلى [١] ومسلم بن الوليد ،فهذان الشاعران حينما أرادا أن ينسبا ، أو يتغزلا ، لم يقفا على الأطلال يسألانها عن ظعائن الأحبة،

---

(١) كان إسحق بن إبراهيم الموصلى يتعصب على أبى نواس وكان فى كل أحواله ينصر الأوائل ، راجع الموشح للمرزبانى ص ٢٦٣ المطبعة السلفية

كما كان يفعل الجاهليون ومن حذا حذوهم من الشعراء ، بل نراهما يعدلان عن سنن الأقدمين فيتخذان مادة غزلهما من الواقع ، من بيئتهما التى كانا يعيشان فيها ، فيقفان على المياه الجارية ، مياه دجلة والفرات يسألانها عن السفن التى نأت بالحبيب .

فسلم بن الوليد يقف على الفرات يسائل مياهه لعلها تخبره عن سفن الأحبة أين اتجهت ، وأين تولت ، فيقول :

يا ليت ماء الفـــرات يخبرنا أين تولت بأهلها السفن
ما أحسن الموت عند فرقتهم وأقبح العيش بعد ماظعنوا

أما إسحق الموصلى فإنه يأسى ويجزع حينما يطرق سمعه خبر مجىء السفن التى ستقل أحبابه ، فتفرق بينه وبينهم ، فيقول :

ما كنت أعلم مافى البين من حزن حتى تنادوا بأن قد جىء بالسفن
قامت تودعنى والعين تغلبها فجمجمت بعض ماقالت ولم تبن

ويظهر أثر البيئة الطبيعية كذلك بصورة أجلى وأوضح فى شعر طائفة من الأدباء بزعامة أبى نواس ، فقد كانت هذه الطائفة تمثل الرعيل الأول من الفرس الذين تنبهت فيهم الميول الآرية القديمة التى نمت وترعرعت فى هذه البيئة على مر العصور ، ولذلك نراهم يضيقون ذرعاً بالمناهج القديمة فى الشعر فيثورون بها ، ويتمردون عليها ، ويستبدلون الديباجة البدوية بأخرى حضرية مؤلفة من وصف الشراب ومجالسه أو من ذكر النعيم والقصور والرياض والزهور .

ترى هل كانت هذه الثورة على القديم تمثل نزعة شعوبية كما يعتقد أكثر المؤرخين قديماً وحديثاً ؟ ، أم أنها تمثل شيئاً آخر لا يتصل بالحياة السياسية؟ ولكن هؤلاء المؤرخين أنفسهم يؤكدون لنا أن أبا نواس زعيم الثائرين

على أساليب القدماء كان عربى الرأى فى السياسة ، وكان شاعر الأمين ونديمه ، وكان خصما للبرامكة زعماء الحزب الفارسى ، حتى إن بعضهم قد ذهب إلى أبعد من ذلك فزعم أنه قتل بتدبير فارسى .(١)

أليس فى هذه الحقائق ما يعارض بعضها بعضاً ؟ بلى ! وإذا كان الأمر كذلك فكيف نفسر خروج أبى نواس وطائفته على المألوف من طرق القدماء فى الأدب ؟ وبماذا نعلل هذا التهكم المر بالعرب ، وهذه السخرية اللاذعة من دمنهم وأطلالهم وباديتهم ؟

وعندى أن الجواب على هذه المسألة ليس شاقاً ولا عسيراً إذا أدخلنا أثر البيئة الإقليمية فى الحساب ، أريد أن أقول إن ثورة أبى نواس لم تكن تتصل بالناحية السياسية من قريب أو بعيد ، إنما هى استجابة أو تلبية لنداء الطبيعة ، ورجوع إلى التراث القديم من الميول والعادات ولهذا كان من العبث أن يطلب إلى أبى نواس أو غيره من شعراء الفرس أن يهيموا بالصحراء ، وأن يذوبوا وجداً بأطلال الأحبة ، بينما هم يعيشون فى الحاضرة بين القصور والحدائق والمياه والمروج .

فنحن إذن نرى فى هذه الثورة بالأساليب الأدبية القديمة بوادر لآثار البيئة الطبيعية فى الأدب ومحاولة للتخلص من قيود البيئة البدوية وآثارها ، استطاع أصحابها أن يمهدوا الطريق بها للشعراء الذين ظهروا فيما بعد .

وقد كانت هذه الثورة التى تمثل استجابة الأدباء للمؤثرات الإقليمية قوية أول أمرها بحيث كادت تعصف بالقديم عصفاً فتزلزل أركانه وتدك بنيانه ، لولا ما عاصرها من ميل شديد إلى تدوين ما أثر عن العرب من شعر وأخبار وقصص وأنساب وأيام ، ولولا ما اقترن بها من نزعة شعوبية

---

(١) تطور الخمريات للدكتور جميل سعيد ص ٢٠٥

متطرفة فى السياسة والدين ، مضافا إلى ذلك ما فى طبيعة الإنسان من إلف للقديم ، ونزوع إليه ، كل ذلك قد أحدث رد فعل قوى فى الأوساط السياسية والاجتماعية والعلمية ، فكان من آثاره أن اندفع بعض الخلفاء والعلماء والرواة والنقاد إلى تأييد المذاهب القديمة فى الشعر والتزام جانب أصحابها مما كان سبباً فى عرقلة سير حركة التجديد وإضعاف شأنها وتخفيف حدتها ونشاطها إلى درجة اضطر معها أبو نواس ، وهو زعيم الثائرين ، أن يكون محافظاً فى مدائحه وهجائه ، مجدداً فى خمرياته ومجونه .

على أننا كنا نتوقع أن تصيب هذه الحركة فى القرن الثالث الهجرى نجاحاً وتوفيقاً أكثر من قبل ، لا سيما بعد أن تم تدوين العلوم العربية ، وانقطعت الصلة بين العلماء وبين الجزيرة العربية وبعد أن خف الصراع القومى بين العرب والفرس بدخول الأتراك عنصراً ثالثاً فى النزاع ، حيث سيطروا على شؤون الدولة بدلا من العرب والفرس أيام المعتصم وخلفائه ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فاضطراب الحالة السياسية فى أطراف المملكة بقيام الثورات الانفصالية واضطراب الحالة الداخلية فى بغداد وما جاورها على يد الأتراك ، وظهور بعض الخلفاء الذين يميلون إلى الروح العسكرية كالمعتصم والواثق والمعتضد ، كل ذلك قد هيأ للشعر القديم أو الشعر الذى ينحو نحو القديم أن ينفق فى البيئات السياسية والاجتماعية فى العراق وأن يفضل على كل شعر سواه .

أريد أن أقول : إن انتكاس الأحوال السياسية واضطراب الأحوال الاجتماعية وسيطرة الروح الحربية على قلب المملكة وعلى أطرافها من جديد قد حدت جميعاً من نشاط التجديد ، وغيرت من اتجاهه ، ووقفت بينه وبين أن يبلغ الغاية التى كان يريدها له المجددون الأولون . وتعليل ذلك أن هؤلاء الخلفاء والقواد

والولاة الذين شغلتهم الحروب الداخلية والخارجية كانوا فى حاجة ملحة إلى نوع من الشعر قد خلت منه بغداد أو كادت ، ذلك هو شعر الحماسة والبطولة والفروسية ، ولهذا نجدهم يفتحون أبوابهم أمام الشعراء الذين كانوا مايزالون بدواً أو كالبدو أمثال أبي تمام والبحترى من شعراء الشام ، فقد كان شعرهم الجزل القوى الذى يجمع بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة — كما يقول الثعالبي — أقدر من غيره على إشباع رغبات هؤلاء الممدوحين ، وأقوى على أداء المعانى الضخمة التى تتطلبها حياة الضرب والحرب التى كانوا يحيونها حينذاك.

ولعل هذا وحده يستطيع أن يضع أيدينا على موطن السر فى سيادة أبى تمام ثم البحترى من بعده على عرش الشعر فى بغداد طول حياتهما كما أنه يستطيع أن يفسر لنا سبب تأخر ابن الرومى وابن المعتز عن طبقتهما ، إذ أنهما لم يقدرا حق قدرهما عند الساسة ونقاد الأدب ، مع أنهما كانا من أعظم شعراء زمانهما .

وهكذا كانت هذه النكسة فى الأحوال السياسية والاجتماعية فى القرن الثالث الهجرى سببا فى ازدهار شعر الحرب والبطولة الذى يستمد عناصره من حياة البداوة والخشونة ، الأمر الذى حمل الشعراء فى العراق كابن المعتز ، والشعراء الطارئين على العراق كأبى تمام والبحترى على أن ينهجوا فى مدائحهم — على الأقل — نهج الأقدمين . ولهذا لم يستطيعوا أن يتحرروا من آثار البادية ، كما لم يستطيعوا أن يتأثروا بالبيئة الإقليمية تأثرا قويا يجعل لشعرهم طابعا إقليميا خاصا يميزه عما سواه من شعر .

وإذا كان شعراء القرن الثالث لم يستطيعوا أن يتحرروا من آثار البيئة البدوية فى شعرهم لما قدمنا من أسباب ، فإن شعراء القرن الرابع قد تهيأ لهم أن يتفرغوا لبيئتهم الإقليمية الخاصة وينصرفوا عن البادية إلى حد كبير ،

ذلك أن قيام الدول والإمارات المستقلة على أنقاض المملكة الإسلامية أوائل القرن الرابع قد أدى إلى نشوء الآداب القومية فى ظل هذه الدول والإمارات، الأمر الذى حمل الأدب العربى على أن يتأقلم وأن يبتعد عن أصوله الأولى، لاسيما فى هذه البلاد التى عاد الحكم فيها إلى الفرس من جديد منذ أوائل هذا العصر، حيث نشأ جيل جديد من الأدباء أغلبهم ينتسب إلى أصل فارسى، وأقلهم ينتمى إلى أصل عربى، ولكنهم جميعا لا يمتون إلى الجزيرة العربية بصلة، ولا تربطهم بأهلها رابطة نسب أو ولاء أو إقامة أو تلمذة أو ما يشبه ذلك من الصلات التى كانت بين شعراء القرن الثانى والثالث وبين الجزيرة وأهلها إلا فى القليل النادر.

بل بالعكس كان أدباء هذا العصر البويهى يتخرجون فى مدارس فارسية ويتلمذون على أساتذة من الفرس، سواء فى ذلك من كان منهم فارسيا أم عربيا.

ونظرة عابرة على آثار هذه المدارس الأدبية وشيوخها وتلامذتها فى الرى وأصبهان وهمذان وشيراز وبغداد وغيرها من مواطن الأدب فى هذه البلاد ترينا بوضوح وجلاء أن الثقافة الأدبية كانت فارسية وأن الزعامة فيها كانت لرجال من الفرس، ذلك أن الأستاذ أبا الفضل بن العميد صاحب الطريقة المعروفة فى الترسل كان قد درس على أبيه وأخذ عنه، وأن الصاحب ابن عباد وأبا الفتح ذا الكفايتين، وعضد الدولة وغيرهم كانوا تلامذة لابن العميد هذا. وأن شعراء أصبهان وغيرها تخرجوا على الصاحب، كما تخرج بديع الزمان الهمذانى وغيره من الأدباء على أبى الحسين بن فارس فى همذان، وهكذا، حتى الشريف الرضى الشاعر العربى الوحيد الذى بقى متعلقا بأذيال الماضى كان تلميذاً لابن جنى اللغوى المعروف.

وقد كان لهذه الظاهرة أثران اثنان :

أولهما :أن هؤلاء الأدباء الأعاجم أو المستعجمين كانوا لا يعتبرون الشعر الجاهلي مثلا أعلى للشعر الجيد جديرا بالإعجاب والتقدير ، خليقا بالاحتذاء والتقليد ، كما كان يفعل أسلافهم من قبل أو معاصروهم من أهل الشام مثلا ، ذلك لأنه أصبح — في رأيهم — عاجزاً عن مسايرة الحياة في تطورها وتبدلها .

ولسنا حين نقول بهذا الرأي نرجم بالغيب أو نسير وراء الفروض ، وإنما نقول بذلك معتمدين على مالا حظناه في أثناء دراستنا لآثار هذا العصر ، وعلى ما قال به بعض المعاصرين من أمثال أبي الحسين بن فارس وأبي منصور الثعالبي وهذا الأخير هو أول من أرخ أدب هذه الحقبة في كتابه « يتيمة الدهر ».

فأبو الحسين بن فارس يرى في إحدى رسائله (١) أن الزمان في تبدل وأن الحياة في تطور وأن لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة ،وأن من العبث الذي لا طائل تحته أن تقصر الآداب على زمان معلوم ، وأن توقف على أناس دون آخرين ، ولهذا كان لكل عصر من العصور نتاج أدبي خاص به يلائم روحه ويتمشى مع صور الحياة عند أهله .

وإذ أراد ابن فارس أن يقنع القارئ بصحة ما ذهب إليه ، وازن بين الشعر القديم والشعر العصري فتخلص بعد ذلك إلى :

أن الأول لم يعد صالحاً للتعبير عن حاجات هذا العصر ، لأنه أصبح رثاً ، بالياً ، قد أخلقت جدته الليالي والأيام ، فمجه السمع ، ولفظه القلب،

---

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٢١٤ وما بعدها

وسئمته النفس، ثم يعقب على كلامه هذا بقوله :

وحتام لا يسأم : « لو كنت من مازن لم تستبح إبلى » ؟ !

وإلى متى : « صفحنا عن بنى ذهل » ؟ !

وتخاص أيضاً إلى :

أن الثانى — أى الشعر العصرى — لا ينحط عن درجة ما قبله من ناحية ، ثم إنه خليق بالإعجاب من ناحية أخرى لما فيه من جديد يروع، وهزل يروق ، واستنباط يعجب ، ومزاح يلهى .

ولا يفوت ابن فارس فى هذا المقام أن يأتى — زيادة فى التدليل — بشواهد كثيرة لشعراء معاصرين من قزوين وشيراز معقبا عليها بمثل هذه العبارات : « وكيف تقول لهذا ؟ ومن أى وجه تأتى فتظلمه ؟ وبأى شىء تعانده فتدفعه ؟ عن الإيجاز والدلالة على المراد بأقصر لفظ وأوجز كلام ؟ وهل ضر ذلك أن لم يقله حماد عجرد وأبو الشمقمق ؟

أما أبو منصور الثعالبى [1] فقد كان — كزميله ابن فارس — معجباً بهذا الشعر العصرى ، مأخوذاً به ، مفضلا إياه على كل شعر قديم محدثاً كان أو إسلاميا أو جاهليا ، لأنه — أى الشعرى العصرى — كان أجمع لنوادر المحاسن وأنظم للطائف البدائع من غيره .

وكان مفتونا به أيضا ، يرى أنه يكاد يخرج من باب الإعجاب إلى الإعجاز ومن حد الشعر إلى السحر ، لأنه ينتهى إلى أبعد غايات الحسن ، ويبلغ أقصى نهايات الجودة والظرف ولأنه يمتاز برواء الحداثة ولذة الجدة وحلاوة قرب العهد وازدياد الجودة .

ثم يعقب على هذا بقوله : « فكأن الزمان أدخر لنا من نتائج خواطرهم

---

(١) يتيمة الدهر ١ : ٢ ، ٣

وثمرات قرائحهم وأبكار أفكارهم أتم الألفاظ والمعانى استيفاء لأقسام البراعة وأوفرها نصيبا من كمال الصنعة ورونق الطلاوة».

لهذا كله، ولما يشين الشعر القديم من نبو العين من إخلاق جدته ، وبلى بردته ومج السمع لمردداته ، وملالة القلب من مكرراته، يفضل الثعالبي وغير الثعالبي من معاصريه هذا الشعر العصرى ويؤثرونه على كل شعر سواه . . .

وثانيهما : أن الهضبة الإيرانية وما جاورها من السهول قد أصبحت موطن الوحى والإلهام والذكريات بالنسبة لأدباء العصر البويهى بدلا من الجزيرة العربية ، يدلنا على ذلك مالاحظه التوحيدى على أبى على الحاتمى حينما بدا له أن يحذو فى شعره ونثره حذو القدماء إذ قال فيه : « إنه غليظ اللفظ، كثير العقد ، يحب أن يكون بدويا قحا ، وهو لم يتم حضريا ... جامع بين النظم والنثر على تشابه بينهما فى الجفوة وقلة السلاسة ، والبعد عن المسلوك ، بادى العورة فيما يقول » (١)

أو مالاحظه على ابن نباتة السعدى الذى تخرج فى مدرسة الشام - وهى ما تزال تسلك سبل الأقدمين فى شعرها - فأحسن تقليدها واحتذاءها ، إذ قال فيه : « قد لحق عصابة سيف الدولة، وعدا معهم وورا‌ءهم، حسن الحذو على مثال سكان البادية ... » (٢)

كل ذلك جعل الصلة قوية بين أدباء العصر البويهى وبين بيئتهم الطبيعية فتأثروا بها واستجابوا لدواعيها . ولا عجب ،فقد كانت موطن لذاتهم وأحلامهم وفتنتهم ، وكيف لا ، وقد سباهم صوت خرير المـــاء السائح وشجاهم تغريد الطيور والحمائم ، وملك عليهم سحر الرياض والجنائن قلوبهم ونفوسهم

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ : ١٣٥

(٢) نفس المصدر ١ :١٣٧

ففضلوها على بوادى الأعراب وأطلالهم ودارانهم ؟ (١)

لو عاينت عيناك بركة زلزل ونزلت من عرصاتها فى منزل

* * *

ورقدت بالنجمى رقدة شارب تحت الغصون وحملها المتهدل
وسباك صوت خرير ماءسائح وشجاك تغريد الحمام المهدل
وسعيت سعياً فى البطالة والصبا لم تذر دمعك فى محل محول (٢)
ولقلت وا أسفا على القصف الذى لم أجنه بالقفص أو قطر بل (٣)
لا أتبع الأعراب إن هم قوضوا من مجهل حتى أحط بمجهل
وصرير أرجاء السرير بمسمعى أحلى بقلبى من صرير المحمل
فالكرخ دار اللهو أعذب مشرعاً من مشرع يختص دارة جلجل
لادردر العيش فى متربع بخيم بين الدخول فحومل

ومهما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع فقد ظهرت آثار البيئة الطبيعية الصامتة والحية واضحة كل الوضوح فيما أنتجوا من أدب ، ونستطيع أن نلمس ذلك فى موضوعات الفصلين التاليين .

---

(١) يتيمة الدهر ٣ : ١٦٧ (٢) تذرى من أذرى الشيء بمعنى ألقاه وأذرت قعين دمعها إذا صبته . والمحول الذى أتى عليه حول. (٣) ـ القفص وقطر بل: الريتان مشهورتان بين بغداد وعكبرا كانتا من مواطن اللهو ومعاهد النزه ومجالس الفرح، تنسب إليهما الخمور الجيدة والحانات الكثيرة وهما متنزه للبطالين (معجم ياقوت)

الفصل الأول

الطبيعـــة الصامتة

١ - الرياض :

لقد مر بنا أن الهضبة الإيرانية وما يحف بها من سهول كانت تمتاز بتربة خصبة وأنهار جارية وينابيع متفجرة ، فكثرت فيها النباتات والأشجار المثمرة والرياض الزاهرة ، فأوحت إلى سكانها منذ القدم بحب هذه المظاهر الطبيعية حتى قدسوها وعبدوا من أجلها « أناهيتا » آلهة النماء والخصوبة والتوالد والأنوثة [١]

ولذلك نراهم يعشقون الزهور ويكلفون بالرياض ويهيمون بالخضرة ، ولا عجب ، فحب الإيرانيين للزهور والحدائق والبساتين قديم ، وقصة حضارتهم تروى لنا أنهم « كانوا يمتلكون المنازل الجميلة والحدائق الغناء التي تكبر وتتسع أحيانا حتى تصبح حظيرة للصيد والقنص أو مأوى لمختلف الحيوانات كحدائق الحيوان في عصرنا الحاضر » [٢] .

وكذلك يحدثنا تاريخ فنونهم أنهم كانوا يتخذون من رسوم النباتات والأزهار عنصراً من عناصر الزخرفة في تصويرهم وفي خزفهم ونسيجهم. [٣]

ومما زاد في حبهم للرياض عادة شرب الخمر ، فلأمر ما كانوا يعقدون مجالس الشراب والطرب على أرض خضراء بين الغصون والأزهار والمياه

---

(١) قصة الحضارة الفارسية ص ٥٢ (٢) نفس المصدر ص ٦٦

(٣) الفنون الإيرانية للدكتور زكي حسن ص ٣٠٦

الجارية فتجتمع لهم اللذة من أطرافها. وعادة شرب الخمر فى هذه البلاد قديمة تتصل بطقوسهم الدينية ، إذ كانوا يتناولون شراباً مسكراً يستخرجونه من عشب « الهوما » الذى يكثر على سفوح الجبال فى بلادهم . وكان ذلك من أجل آلهتهم « ها أوما » ، الثور المقدس الذى أشفى على الموت ثم انبعث حياً وسقى البشر دماءه ليكسبهم البقاء والخلود . (١)

وطبيعى أن يتوارث سكان هذه البلاد تلك الميول والعادات جيلا بعد جيل ، فتراهم ينشئون البساتين الجميلة ويشربون فيها الخمر ويعتبرونها لذة الدنيا وبهجة الحياة . روى عن الخليفة القاهر أنه أنشأ لنفسه بستانا كبيراً قد غرس فيه النارنج وقد حمل إليه من أرض الهند ، فاشتبكت أشجاره ولاحت ثماره وتنوعت أطياره ، فكان يكثر فيه الجلوس والشراب وكان يقول فيه : هو لذتى من الدنيا .

وطبيعى أيضا أن يكون الربيع ، وهو الفصل الذى يمتاز بكثرة رياضه وزهوره ورياحينه ، أثيراً عندهم ، محببا إلى نفوسهم ، فيحتفلون بقدومه ويجعلون أوله عيداً يدعونه عيد النيروز يمارسون فيه الطرب واللهو ويظهرون الفرح والسرور .

وهذا أمر طبيعى يتمشى مع طبيعة الحياة فى هذه البلاد ، ففى فصل الربيع الذى يعقب فصل الشتاء الطويل القاسى ، تعود الحياة إلى الأشجار والنباتات فتورق وتزهر وتنمو الأعشاب والورود البرية فتكسو وجه الأرض الكالح ببساط أخضر قد طرز بمختلف الألوان، ويرق الجو بما يغشاه من أنسام عليلة وأشعة دافئة وصحو جميل .

---

(١) قصة الحضارة الفارسية ص ٣٩

فلا عجب إذا رأيناهم يعتبرونه بشيراً بإقبال السعادة والهناء، فيستبشرون به:

أبشر بنيروز أتاك مبشراً   بسعادة وزيادة ودوام
واشرب فقد حل الربيع نقابه   عن منظر متهلل بسام

ويحيونه:

حيّ الربيع فقد حيا بباكور   من نرجس ببهاء الحسن مذكور
كأنما جفنه بالغنج منفتحاً   كأس من التبر فى منديل كافور

ويجزعون لفراقه:

استزرنى بحرمتى أو فزرنى   إن هذا الربيع ليس بباق
آفة البدر ما علمت كسوف   وكسوف المحب يوم الفراق

وهكذا ظفر الربيع بحظ موفور من حبهم وعنايتهم، فاستهواهم كما استهوى أسلافهم من قبل فوصفوا رياضه وما فيها من أزهار وأغصان وطير وماء فى مدائحهم، كما كان يصف الجاهليون باديتهم وما فيها من أطلال وحيوان وأعشاب وهم فى طريقهم إلى الممدوح. فهذا أبو الحسين الغويرى[١] يهيب بالصاحب أن يقيم الرسم فى صبيحة النيروز بكؤوس مملوءة من الخمر يجدد بها ما اندرس من ربوع الأنس والطرب، بعد أن يقدم بين يديه صورة للربيع بديعة الصنع تامة التكوين، يبرز فيها الألوان فى تناسب دقيق وتدرج واضح، ويشق فيها الجداول تنساب فيها المياه، وتتمايل فوق حواشيها الأغصان المنورة، وتتنقل بين أزاهيرها الزرازير والحمام فى صفير وهديل، فيقول:[٢].

أيها الصاحب الربيع تجلى   فى رياض تحار فيها العقول
نرجس ناضر وأحمر ورد   وشقيق يزينه التكحيل

---

(١) من أصبهان وهو من شعراء الصاحب بن عباد (٢) اليتيمة ٣ : ١٦٢

وغصون تجر أذيال نور   فى حواشى جـداول وتميل
للرزازير فى خلال الأزاهيـر صفير وللحمام هديـل
فأقم رسمنا صبيحة نيرو   ز به ربـع أنسنا مأهول
بكؤوس مملوءة من مدام   أنت لمن حساها عـذول

ونحو هذا قول أبى محمد الخازن [١] فى الربيع ولكنه زاد على صاحبه بان أسبغ على الكائنات الصامتة من ذاته حسا وحركة وحياة، فإذا هى تضطرب وتتحرك وتتكلم، إذ صور الربيع على هيئة إنسان يطلع على الأرض فيطلب إليها أن تشكر نعم السماء وأن تبالغ فى هذا الشكر، فإذا الحدائق تستجيب لندائه فتواصل شكرها بألسنة الطيور المغردة .

ثم إنه صور النرجس الغض ضعيفا، متهالكا، عليلا ؛ حتى إذا بصرت به الصبا وهو فى حاله تلك أشفقت عليه فعادته : [٢]

طلع الربيع فقال للأرض اشكرى   نعم السماء وأبدئى وأعيدى
فغدت حدائقها تواصل شكرها   بلسان كل مطوق غريد
روض إذا نشرت طرائف وشيه   طويت لها أبراد آل يزيد
ريان لم يعثر نسـيم صبابتى   فى ظلها إلا بورد خدود
واعتل نرجسه فعادته الصبا   أحسن بنظرة عائد ومعود [٣]

وكذلك أكثروا من وصف الربيع فى جو الخمر لما بينهما من علاقة

---

(١) هو أبو محمد عبدالله بن أحمد الخازن أصبهانى الأصل . تولى خزانة كتب الصاحب فى حداثته ثم غضب عليه الصاحب فهرب إلى العراق فالشام فالحجاز ثم عاود حضرة الصاحب فى جرجان مستعطفا ومعتذرا .

(٢) اليتيمة ٣ : ١٥٩   (٣) عاد المريض زاره فهو عائد.

وثيقة ، كقول السلامى [١]

نسب الرياض إلى الغمام شريف ... ومحلها عند النسيم لطيف
فاشرب وثقل وزن جامك إنه ... يوم على قلب الزمان خفيف
أو ما ترى طرز البروق توسطت ... أفقا كأن المزن فيه شفوف [٢]
واليوم من خجل الشقيق مضرج ... خجل ومن مرض النسيم ضعيف
والأرض طرس والرياض سطوره ... والزهر شكل بينها وحروف [٣]
وكأنما الدولاب ضل طريقه ... فتراه ليس يزول وهو يطوف [٤]

وقول السروى [٥]

أما ترى قضب الأشجار قد لبست ... أنوارها تتثنى بين جلاس
منظومة كسموط الدر لابسة ... حسنا تبيح دم العنقود للحاسى [٦]
وغردت خطباء الطير ساجعة ... على منابر من ورد ومن آس

وكما وصفوا رياض الربيع وزهوره فى معرض المدح، كذلك وصفوها مستقلة مما يدل على أنها قد أصبحت عندهم غرضا رئيسيا من أغراض الأدب ، نجد ذلك عند التنوخى والصابى وغيرهما من الأدباء .

قال التنوخى فى الروض : [٧]

ورياض حاكت لهن الثريا ... حللا كان غزلها للرعود
نثر الغيث در دمع عليها ... فتحلت بمثل در العقود
أقحوان معانق لشقيق ... كثغور تعض ورد الخدود
وعيون من نرجس تتراءى ... كعيون موصولة التسهيد

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ١٧٠ — (٢) الشفوف جمع شف وهو الثوب .
(٣) الطرس : الصحيفة عموماً — (٤) الدولاب كل آلة تدور على محور.
(٥) يتيمة الدهر ٣ : ٢٨٠ — (٦) السموط جمع سمط وهى القلائد
(٧) المرجع السابق ٣ : ٢٨٠

وكأن الشقيق حين تبدى ظلمة الصدغ فى خدود الغيد (١)
وكأن الندى عليها دموع فى جفون مفجوعة بفقيد

وقال الصابى فى الورد : (٢)

أما ترى الورد قد حياك زائره بنفحة فرجت عن كل مصدور
كأن أنفاسه أنفاس غانيـــة معشوقة خالطت أنفاس مخمور
تفتحت وجنات فى جوانبه كأنما انتزعت من أوجه الحور

وقد تشتد الألفة، وتقوى الصلة بينهم وبين هذه الرياض، حتى إذا فارقوها تذكروا عهودهم الحبيبة فى ظلالها ، فحنوا إليها ، وتغنوا بهذا الحنين كقول سعيد الطبرى : (٣)

أروضتنا ـ سقاك الله ـ هل لى إلى أفياء دوحك من مصير ؟
غنينا فى ذراك على غناء وافق رجعه سجع الطيور
وكم فى فرع أثلك من صـــفير وكم فى أصل أثلك من زفير
وأحشاء تؤلفهـا الحشايا كتأليف العقود على النحور
وشدو ترقص الأعضاء منه وبم لا يمل عراك زير (٤)
فيالك روضة راعت فراحت رضى الأبصار من نور ونور

فهو يدعو لروضته بالسقيا ، ويتمنى لو استطاع أن يصير إلى أفيائها مرة أخرى ، ولكن أيدى الليالى قد ضربت بينه وبينها ، فلم تبق فى نفسه من ألوان العيش الرغيد إلا أصداء الغناء وسجع الطيور وصفير الحمائم وزفير

---

(١) الصدغ : ما بين العين والأذن وهما صدغان ، والشعر المتدلى على هذا الموضع وهو المقصود هاهنا. (٢) اليتيمة ٢ : ٤٢ (٣) نفس المرجع ٣: ٢٨٤
(٤) البم من العود أغلظ أو تاره والزير الدقيق من الأوتار .

الشرب وحركات أعضائهم ، وعراك البم والزير ، ولذلك تراه يحاول أن يستعيد الذكرى بهذه الألفاظ الموسيقية السلسة فيجانس ويطابق ويستوحي الألفاظ والحروف .

هذا ولما كانت بيئتهم الطبيعية غنية بالمنازه فإنهم تأثروا بها ، فوصفوها كما فعل السلامى حينما وصف شعب بوان.

قال صاحب اليتيمة : [1] نزل عضد الدولة شعب بوان والسلامى معه متوجها إلى العراق فقال له : قل فى الشعب ، فقد سمعت ما قال المتنبي فعاد إلى خيمته وكتب :

اشرب على الشعب واحلل روضة أنفا قد زاد فى حسنه فازدد به شنفا [2]
إذ ألبس الهيف من أغصانه حللا ولقن العجم من أطياره نتفا [3]
ونمرت حسنه الأغصان مثمرة من نازع قرطا أو لابس شنفا [4]
والماء يثنى على أعطافه أزراً والريح تعقد فى أطرافها شرفا [5]
والشمس تخرق من أشجارها طرفا بنورها فترينا تحتها طرفا [6]
من قائل نسجت درعا مفضضة وقائل ذهبت أو فضضت صحفا

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ١٧٢ (٢) روضة أنف : لم توطأ ولم ترع

(٣) الهيف جمع أهيف وهو الضامر البطن ونتف جمع نتفة وهى الشىء القليل

(٤) نمرت : جعلت فيه نكتا مختلفة الألوان والمفرد نمرة بضم أوله وتسكين ثانيه . والقرط ما يعلق فى شحمة الأذن من درة ونحوها والشنف بفتح الشين ما علق فى الأذن أو أعلاها من الحلى . وتحريك الراء فى قرط والنون فى شنف للضرورة الشعرية . (٥) الشرف جمع شرفة وهى ما أشرف من البناء .

(٦) الهاء فى أشجارها تعود إلى الروضة والطرف جمع طرفة وهى الملحة .

ظلت تزف لها الدنيـــا محاسنها   وتستعيد له الألطاف والتحفا (١)
من عارض وكفا أو طائر هتفا   أو بارق خطفا أو سائر وقفا (٢)
ولست أحصى حصى الياقوت فيه ولا   دراً أصادفـــه فى مائه صدفا
يظن من وقفت فيه الشجون به   أن الصبابة شابت والهـــوى خرفا
تعسف الشوق فيه كل ذى شجن   والشوق ألطفـــه ما كان معتسفا
فاحلل عرى الهم واشربها مشعشعة   رق النسيم مبـــاراة لهـا وصفا

ولنقف عند هذا القدر ، فالحديث فى هذا الموضوع طويل .

* * *

٢ - المـاء

وكما أحبوا الرياض وافتتنوا بها ، كذلك أحبوا المياه وافتتنوا بهـا ، فقد سحرتهم الينابيع يتفجر ماؤها وينحدر على سفوح الجبال فيحدث خريراً يحـلو وقعه فى المسامع ، كما سحرتهم الأنهار والجداول ينساب فيها المـاء فى رفق وهدوء فتتكسر على صفحته أشعة الشمس ونور القمر أو تضربه الريح فيتخدد ويتموج كأنه السيوف اللامعة بين أثناء الدروع .

وهذه الفتنة بالمياه أمر طبيعى بالقياس إلى أناس يعيشون فى بيئـة تكثر فيها الأنهار والينابيع والسدود ، يحف بها الشجر والزهر والنخيل ، ولهذا نراهم يصفون الأنهار ومياهها وما يحيـــط بها من معاهد وجنان ، ويتفننون فى هذا الوصف.

لقد أعجبوا بالماء الجارى فشبهوا خريره بالرعود ومثلوا ماتفعله الريح فوق صفحته من أخاديد وتجاعيد تنعكس عنها أشعة القمر بالسيوف والدروع.

---

(١) الألطاف الهدايا والتحف والأشياء الفاخرة الثمينة .
(٢) العارض السحاب ووكف بمعنى سال قليلا قليلا .

فمن ذلك قول القاضي الجرجاني يصف موضعه بناحية رامهرمز : (١)

كأن خرير الماء في جنباتها رعود تلقت مزنة تستريعها

إذا ضربتها الريح وانبسطت لها ملاءة بدر فصلتها وشيعها (٢)

رأيت سيوفا بين أثناء أدرع مذهبة يغشى العيون لميعها

فمن صنعة البدر المنير نصولها ومن نسج أنفاس الرياح دروعها

وافتتنوا به وهو يجرى على الرضراض فشبهوه بصفائح التبر المذابة ، تشتد في جريها حتى ليخيل إلى الرائى أنها أصيبت بالجنون فكبلتها الريح بالسلاسل والأغلال : (٣)

وماء على الرضراض يجرى كأنه صفائح تبر قد سبكن جداولا (٤)

كأن بها من شدة الجرى جنة فقد ألبستهن الرياح سلاسلا

وهاموا به وهو يتسلسل خلال الروض ، كالحيات خف سراها ، ولكنها تنسل أو تنساب دون أن تؤذى ، فكأن لها من وشى الحباب رقى تمنعها من اللذع والإيذاء : (٥)

يتسلسل الماء الزلال خلاله فتخاله الحيات خف سراها

تنسل أو تنساب غير لواذع فكأنما وشى الحباب رقاها (٦)

وربما كان هناك من يرى أن هذا الإعجاب بالماء متكلف ، وأن هذا الشعر الذي يصوره مصنوع ، قد نهجوا فيه نهج القدماء ، فالماء موجود في كل

---

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٢٤٨ (٢) الملاءة ثوب يلبس على الفخذين او الريطة ذات لفقين والوشيع ما يجعل حول الحديقة من الشوك ونحوه منعا للداخلين . وفصلتها أي جعلتها فصولا أو قطعا متمايزة (٣) اليتيمة ٣ : ٤٨ (٤) الرضراض ما صغر ودق من الحصى (٥) اليتيمة ٢ : ١٢٧ (٦) الحباب الفقاقيع التي تعلو الماء أو الخمر .

بيئة والشعر الذى قيل فى وصفه كثير وقديم .

وقد يكون هذا الرأى وجيها ، وقد يكون مقبولا ، لو أن هؤلاء الأدباء وقفوا عند وصف الماء والفتنة به ، كما فعل أسلافهم من قبل ، ولكنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك كثيراً حينما تناولوا فى أدبهم موضوعات جديدة مستمدة من بيئتهم النهرية ، بينما لم يتناولها أسلافهم ممن كانوا يعيشون فى هذه البيئـــة .

لقد وصفوا أنهار بلادهم بالذات كدجلة والأبلة ومعقل والمسرقان كما وصفوا ما يحدث فيها من مد وجزر وفيضان، وما يجرى فوقها من سفن وقوارب ، وما يكنفها من رياض و بساتين وقصور ، وما يقام فى بعضها من سدود .

وكان وصفهم هذا يدل على حب عميق لهذه المظاهر الطبيعية وتعلق شديد بها ، كما يدل أيضا على تجلى الشخصية الإقليمية فى الأدب بصورة ملموسة .
ونجد هذا التأثر بالبيئة النهرية واضحا كل الوضوح فى شعر كثير من أدباء هذا العصر أمثال أبى القاسم التنوخى وأبى الحسن السلامى وعبد العزيز ابن يوسف وأبى هلال العسكرى والسرى الرفاء وغيرهم.

أما أبو القاسم التنوخى فقد عاش فى البصرة زمنا طويلا من حياته والبصرة - كما هو معروف - بلد الأنهار والجداول والسواقى التى تؤلف بتقاطعها واختراق بعضها بعضا شبكة واسعة من النهيرات تغطى مساحة كبيرة من الأرض وكانت هذه الأنهار تجرى وسط غابات كثيفة من البساتين والجنائن ، تتشابك أشجارها وتتعانق أغصانها وتتزاحم ورودها وتكثر أطيارها ، وكان يقوم على جوانب هذه الأنهار بين الجنائن وأشجار النخيل الباسقة كثير من القصور . فلا عجب إذا هام أهل البصرة بهـــذه المناظر

الأنيقة والمعاهد الخلابة فجاسوا خلالها وهم على متون القوارب والزواريق، أو أقاموا فى جوانبها حيناً من الزمان يمتعون النفس والقلب والحس بما يسمعون من غناء وما يشربون من كؤوس بين الماء والورد والخضرة، فقد كانت هذه المغانى، وما تزال، مواطن اللهو والسرور والطرب عند البصريين .

ولا عجب أيضا إذا رأينا التنوخى يعجب بهذه البيئة النهرية الساحرة ويعشقها من أعماق نفسه، فيرتمى فى أحضانها، لتقيه الآلام، وتنسيه الهموم، وتبعث فى قلبه النشوة والسرور بمائها وجنانها وقصورها وأطيارها، فنلمس أثر ذلك كله فى وصفه لنهر معقل ودجلة والأبلة، بقصيدة كثيرة العيون، زاخرة بمعانى الحب والجمال والفناء فى الطبيعة، قد أعجب بها الصاحب ففضلها على سائر شعر التنوخى، كما يقول الثعالبى .

وهذه القصيدة الرائعة تنهض حجة قوية على من ينكرون أثر البيئة الإقليمية فى الأدب، ولهذا سنثبتها فيما يلى دون تحليل أو شرح لسهولة ألفاظها ووضوح معانيها أولا ولاعتقادنا بأنها من الشعر الذى يفسده الشرح والتحليل ثانياً . وهذه هى :(١)

أحبب إلى بنهر معقل الذى ... فيه لقلبى من همومى معقل
عذب إذا ماعب فيه ناهل ... فكأنه فى ريق حب ينهل (٢)
متسلسل وكأنه لصفائه ... دمع بخدى كاعب يتسلسل
وإذا الرياح جرين فوق متونه ... فكأنه درع علاها صيقل (٣)

---

(١) اليتيمة ٢ : ١١٠ (٢) الحب : المحب والمحبوب
(٣) الصيقل شحاذ السيوف

وكأنها ياقوتة أو أعين زرق تلاثم بينها وتواصل
وكأن دجلة إذ يغطمط موجها ملك يعظم خيفة ويبجل (١)
عذبت فما تدرى أماء ماؤها عند المذاقة أو رحيق سلسل (٢)
ولها بمد بعد جزر ذاهب جيشان يدبر ذا وهذا يقبل
وإذا نظرت إلى الأبلة خلتها من جنة الفردوس حين تخيل
كم منزل فى نهرها آل السرو ر بأنه فى غيره لا ينزل
وكأنما تلك القصور عرائس والروض حلى فيه خود ترفل
غنت قيان الطير فى أرجائها هزجاً يقل له الثقيل الأول (٣)
وتعانقت تلك الغصون فأذكرت يوم الوداع وعيرهم يترحل
ربع الربيع به فحاكت كفه حللا بها عقد الهموم تحلل (٤)
فمدبج وموشح ومدنر ومعمد ومحبر ومهلل (٥)
فتخال ذا عينا وذا ثغرا وذا خداً يعضض مرة ويقبل

وكذلك تغنى السلامى بنهر معقل على سبيل الذكرى لأيام لهوه السالفة ، إذ كان ينفق حياته فى اللهو والخمر والغناء بين يدى الخمار والملاح ، ولكنه لم يبلغ ما بلغ التنوخى من قدرة على اجتلاء محاسن هذا النهر والهيام به والفناء فيه، ولو أنه زاد عليه فوصف المركب والملاح : (٦)

---

(١) يغطمط : غطمط البحر عظمت أمواجه (٢) الرحيق الخمر
(٣) القينة : المغنية ، والهزج والثقيل الأول ضربان من الألحان .
(٤) ربع به أقام به (٥) المدبج المزين بالديباج وهو الثوب الحرير، المدنر المشرق المتلألىء كالدينار والمحبر الموشى والمهلل الثوب جعلت فيه صور على شكل الهلال . (٦) يتيمة الدهر ٢ : ١٧٤

زمن فات بين لهو وشرب وغناء وراحة وارتياح
معقلى نهر معقل فإن ارتحـ ـت إلى منزل فدير نجاح
وحياتى بما حوته إلى الخما ر مصروفة او الملاح
مركبي مثل لمتى أدهم جو ن ويحكيهما نديمى وراحى

ولكن السلامى إذا قصر فى وصفه لنهر معقل فإنه تلافى هذا التقصير حينما صور مفاتن دجلة فأبدع فى تصويرها فى جو النار ليلة السذق، فقد كان من عادة الفرس القدماء أن يحتفلوا فى هذه الليلة بإيقاد النيران وتأجيجها وإرسال الوحوش فيها، وتطيير الطيور فى لهبها، والشرب والتلهى حولها، فلما عاد السلطان إلى الفرس فى هذا العصر أحيوا هذه العادة من جديد، فصارت رسماً من رسوم ملوكهم يقيمونه كل عام.

وكان منظر دجلة هذه الليلة خلاباً، يستثير الفتنة والإعجاب فى نفوس الشعراء فوصفوه، وأكثروا من وصفه، من ذلك قول السلامى :

ولم نر بحراً جرى بالعقا ر ولا ذهباً صيغ منه جبل (١)
إلى أن جرت دجلة فى الشعا ع وطنب بالنور أعلى القلل
سحاب الدخان وبرق الشرا ر ورعد الملاهى وغيث الجدل
ومازال يعلو عجاج الدخا ن حتى تلون منه زحل
فكنا نرى الموج من فضة فذهبه النور حتى اشتعل

وقوله من سذقية أخرى :

ألست ترى الأوضاح فى دهمة الدجى ومنشئها بالناظرين رفيق
دخانا سخامى الصفات شراره بروق وعقد الريح فيه وثيق (٢)
وليلا كيوم الوصل أما رياضه فزهر وأما مسكه ففتيق

---

(١) العقار من معانيه الصبغ الأحمر (٢) السخام السواد

وبغداد بحر ساحلاه جواهر　　ودجـلة روض طرتاه شقيق
وقد صار ياقوتا حصاها وعنبراً　　ثراها وأمسى الماء وهو رحيق

* * *

على أن أثر هذه البيئة النهرية فى الأدب لم يكن مقصورا على وصف الأنهار وتصوير محاسنها فحسب ، بل تعداها إلى وصف السفن التى كانت تتخذ وسيلة للانتقال أو لحمل البضائع والحبوب والثمار من بلد إلى آخر .

فمهيار الديلمى يصف السفينة التى تقله إلى الممدوح كما كان شعراء الجاهلية يصفون نياقهم ، فهو يصفها بأنها دهماء لأنها مطلية بالقار الأسود ، وبأنها ملساء تجرى فوق ماء أملس ، فلا يتشذب لها خف ، ولا يحفى لها حافر ، وبأنها سريعة فى سيرها فلا تحتاج إلى سوط ولا صوت :

يا راكب الدهماء تمطو به　　فى زافر تياره زاخر
ملساء تجرى منه فى أملس　　يروى صداها نقعه الثائر
تطوى السرى لم يتشذب لهـا　　خف ولم يحف لها حافر
سابقة لا السوط هيها به　　فيه ولا الصوت لها زاجر (١)
إذا سوافى الريح شقت على الر　　كب سفتها العاصف العاصر (٢)
يزاحم القاطول من دجلة　　رام إلى البحر بها صائر (٣)
يرود روض الجود حيث استوى الـ　　ظل ورف الورق الناضر (٤)

والسرى الرفاء يصف هذه السفن أيضاً وقد تقاذفتها أيدى الأمواج الصاخبة فى دجلة فيشبهها وهى تعلو وتهبط برقص بنات الزنج حينما تستولى

---

(١) [illegible]　(٢) السوافى الرياح [illegible] ، وسفتها حملتها كما تحمل الريح التراب .　(٣) القاطول نهر متفرع من دجلة فى سامراء .

(٤) ديوان مهيار ١ : ٨٠

عليهن سورة الشراب ، أو بالخيول الدهم المذعورة ، أو بصفوف الطير التى أفزعتها أسود السماء من نسر وصقر وبازى ، فلاذت بالأرض تبغى الاحتماء والنجاة :

أحذركم أمواج دجلة إذ غدت مصندلة بالمد أمواج مائها
فظلت صغار السفن يرقصن وسطها كرقص بنات الزنج عند انتشائها
تغرقها هوج الرياح وتعتلى ربى الموج من قدامها وورائها
فهن كدهم الخيل جالت صفوفها وقد بدرتها روعة من ورائها!
كأن صفوف الطير عاذت بأرضها وقد سامها ضيما أسود سمائها (١)

ونحو هذا قول أبى هلال العسكرى : (٢)

مررت بنهر المسرقان عشية فأبصرت أقماراً تروح وتغرب
كأنهم در تقطع سلكه وغودر فوق الماء يطفو ويرسب
فكم ثم من خشف على الماء لاعب فيا من رأى خشفاً على الماء يلعب
كأن السميريات فيه عقارب تجىء على زرق الزجاج وتذهب (٣)

وكما وصفوا السفن، كذلك وصفوا السمك والشباك ، وأكثر ما نجد ذلك عند السرى الرفاء ومهيار الديلمى .

قال الأول :

تضحك عن مثل صغيرات المدى كأنها عقد لآل قد وهى
أو عن نقى البطن موشى القرى تومض فيها كالحسام المنتضى
لم يدر لما قصرت عنه الخطى أظلله منها رداء أو ردى
فذلك اللذات لا صيد الطلا

---

(١) ديوان المعانى ٢ : ١١   (٢) نفس المصدر ٢ : ١١

(٣) السميريات مراكب أهل سميرة بصيغة التصغير

وقال الثانى :

وجارية بيضاء حمراء ربما … تكون غداً سوداء إن شئت أو صفرا
تعيش بخفض ما تمنت ونعمة … بحيث سواها لو يرى فارق العمرا
سرت تقطع الخرق الوسيع وما مشت … ولا ركبت فيه سفيناً ولا ظهرا
مسربلة لم تدفع النبل درعها … وعريانة لم تشك قيظاً ولا قرا

وكذلك وجد عندهم شيء آخر يتصل بالأنهار هو وصف السدود التى كانت تقام فى الأنهار ، من ذلك وصف السد الذى بناه عضد الدولة فى شيراز كقول عبد العزيز بن يوسف :

شربنا ذهبا يجرى … بشاطىء فضة تجرى
وما زلنا على السكر (١) … نداوى السكر بالسكر
درينا كيف أصبحنا … وأمسينا وما ندرى
وفاض الماء فيض البحر … منصباً إلى بحر

وليس من شك فى أن ما تقدم من نماذج شعرية لينهض دليلا قويا على شدة تأثرهم ببيئتهم النهرية وعلى انعكاس هذا التأثر فيما أنتجوا من أدب .

* * *

٣ - المناخ

ا — الحر والبرد والريح :

ذكرنا فيما سبق أن الطقس فى هذه البلاد متقلب بين الحرارة والبرودة والاعتدال ، وأن الحر والبرد إذا اشتدا أصبح الجو تحت تأثيرهما جحيما أو زمهريراً ليس إلى احتمالها من سبيل. وقلنا أيضاً إن الناس كانوا يلجأون إلى

---

(١) - السكر بكسر السين ما يسد به النهر وجمعه سكور.

السراديب أو استعمال الخيش والمراوح هربا من حر الصيف، كما كانوا يحتمون بالبيوت المغلقة الأبواب، وبالملابس الثقيلة، ووسائل الدفء المختلفة اتقاء لبرد الشتاء، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا بمنجى من التعرض لآثار هذا الطقس القاسى .

ولهذا انعكست آثاره القاسية فى الأدب إذ ضاق الأدباء بحره وشكوا منه، كقول الزعفرانى :

تعاونها على سموم صيف ... بلفح من لظاه واتقاد

وقول الصابى :

وليلة لم أذق من حرها وسنا ... كأن من جوها النيران تشتعل
أحاط بى عسكر للبق ذو لجب ... ما فيه إلا شجاع فاتك بطل (١)
من كل مائلة الخرطوم طاعنة ... لا تحجب السجف مسراها ولا الكلل
طافوا علينا وحر الصيف يطبخنا ... حتى إذا طبخت أجسامنا أكلوا

وحملهم الحر الشديد على الإعجاب بالخيش والماء المثلج، فذكروهما فى أشعارهم كقول ابن الحجاج :

الخيش نصف النهار يعجبنى ... والماء بالثلج بارداً خصرا (٢)

وقول الصابى :

لهف نفسى على المقام ببغدا ... د وشربى من ماء كوز بثلج

وكما ضاقوا بالحر وأحبوا من أجله الخيش والماء المثلج، كذلك ضاقوا بالبرد ولجأوا من أجله إلى النار، فظهر أثر هذا الضيق فى أدبهم كقول التنوخى

أما ترى البرد قد وافت عساكره ... وعسكر الحر كيف انصاع منطلقا
والأرض تحت ضريب الثلج تحسبها ... قد ألبست حبكا أو غشيت ورقا (٣)

---

(١) ذو لجب ذو جلبة وكثرة (٢) الخيش نسيج خشن من الكتان.
(٣) الحبك جمع حبيكة من معانيها الدرع الحديد.

فانهض بنار إلى فحم كأنهما في العين ظلم وإنصاف قد اتفقا
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا
برداً فصرنا كقلب الصب إذ عشقا

ولكن جيوش هذا البرد التي حلت في البلاد بعد انهزام جيوش الحر فألبست الأرض ثوبا أبيض من ضريب الثلج، لم تبعث في قلوب الناس أمناً، ولم تنشر بينهم سلاما، بل نقلتهم من حال سيئة إلى أخرى أسوأ منها، فإذا هم مقيدون، مكبلون، فلا يستطيعون حركة، ولا يقوون على كلام، وإذا هم خرس ومفاليج دون أن تنالهم علة أو يصابوا بمرض:

وليلة ترك البرد البلاد بها كالقلب أشعر بأساً وهو مثلوج
فإن بسطت يداً، لم تنبسط خصراً وإن تغلّ فغلّ فيه تثليج (١)
فنحن منه ـ ولم نخرس ـ ذوو خرس ونحن منه ـ ولم نفلج ـ مفاليج

* * *

أما الرياح ولاسيما الجنوبية منها فقد تهب عاتية، عاصفة، وقد يتلبد معها الجو بالغيوم أو بالأتربة الناعمة التي تحملها من الصحراء، فيضيق بها الناس ويلقون منها نصباً شديداً. قال المقدسي: «ورأيتهم ـ يعني البصريين ـ إذا كانت جنوب في ضيق صدر، يلقى الرجل صاحبه فيقول: الاترى ما نحن فيه؟، فيجيبه: نرجو من الله الفرج».

أما إذا هبت الرياح من الشمال فإن الجو يلطف ويعتدل.

وقد ظهر أثر الريح في كلتا الحالتين في أدب هذا العصر، كقول ابن لنكك

---

(١) في اليتيمة (٢ : ٢٠٩) : «... وان تقل فقل لي فيه تثليج»، ولعل الصواب ما أثبتناه.

البصرى فى جو البصرة :

نحن فى البصرة فى لو　　ن من العيش ظريف
نحن ما هبت شمال　　بين جنات وريف
فإذا هبت جنوب　　فكأنا فى كنيف

وقول أبى الحسن الجوهرى يصف ليلة راكدة الهواء هب فيها نسيم طيب :

بادر الصهباء فالدهر فرص　　ولقد طاب نسيما فخلص
أهدت الريح إلينا نسماً　　جمش الأرواح منا وقرص (١)
فكأن الكأس لما جليت　　طرب الجو عليها ورقص
وإذا خص زمان بمنى　　فزمان الورد باللهو أخص

وكذلك كانت الريح الطيبة تداعب نفوسهم وتجمش أرواحهم وتزيل ما علق بها من حزن وضيق فتنطلق وتهتز وترقص فتحملهم على قول الشعر الراقص ، وتدفعهم إلى انتهاب اللذة فى هذا الجو الطروب .

ومما له عظيم الدلالة على شدة تأثرهم بهذا الطقس أنهم اتخذوا من مظاهره القاسية مادة لهجاء خصومهم كما فعل ابن الحجاج إذ يقول : (٢)

ياقعدة　فى　دجلة　　والريح تلعب بالجسور
ياشؤم إقبال الشتا　　ء أضر بالشيخ الفقير
ياليلة العريان غـ　　ـب عشية اليوم المطير
يانومة فى شمس آ　　ب على التراب بلاحصير
يافجأة المكروه فى الـ　　ـيوم العبوس القمطرير

---

(١) النسم حركة نفس الريح إذا كان ضعيفا أو أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد وجمعها أنسام وجمش قرص ولاعب .

(٢) اليتيمة ٢ : ٢١٦ ، ٢١٧

ياحيرة العطشان وقـــت الظهر فى وسط الهجير

وتلك معان جديدة فى الهجاء دون شك ، أوحت بها البيئة الطبيعية العراقية ، وهى فوق هذا من المعانى الصارمة العنيفة دون شك أيضاً . ولكن هذه الصرامة وهذا العنف لا يدركهما إلا الذين عاشوا فى هذه البيئة وخبروها ، فعرفوا كيف تكون الرياح بغيضة إلى القلب ، ثقيلة على النفس حينما تثور وتغضب ، وكيف يكون إقبال الشتاء شؤماً ما بعده من شؤم على العراة من الشيوخ المملقين، وكيف تكون النومة — بلا حصير — على التراب المتوهج إذا ما أحرقته شمس آب الملتهبة ، مؤلمة ، مفرطة فى الألم . . . الخ .

* * *

ب – السحب والأمطار والثلوج :

وفى هذه البيئة تكثر الأمطار أيضاً ، إذ تتلبد السماء بالغيوم الكثيفة التى تجود بالمطر الغزير ، يتخلله البرق والرعد والريح الأهوج . وقد يستمر هطول الأمطار ساعات طويلة من الليل والنهار ، أو أياماً متوالية فى بعض الأحيان ، فيحيل البر بحراً زاخراً كما يقول التنوخى .

وطبيعى أن يتعرض الناس فى هذه البلاد تحت تأثير الأمطار الغزيرة إلى ألوان من المشقة والأذى ، فاستمرار نزولها زمنا طويلا يجعل الطرق والممرات الضيقة سلسلة من البرك المملوءة بالوحول والمياه ، وحينذاك يصعب أو يتعذر الانتقال من مكان إلى مكان ، حتى إن الإنسان المغامر لا يأمن فى مثل هـذه الأحوال أن تزل به القدم فيهوى فى إحدى البرك ، ويؤوب إلى مأواه ملوث الثياب بالوحول، مشيعا بابتسامات السخرية والازدراء أو بنظرات الإشفاق والرثاء .

ولو وقف أثر هذه الأمطار السيء عند هذا الحد لهان الأمر ولأصبح من الممكن احتمالها واستساغتها ، ولكنها كثيرا ما تقسو على الناس وتمعن فى هذه القسوة بحيث تخترق سطوح منازلهم المتواضعة ، فتحيلها بركا ، وتجعل أهلها كالضفادع فى ثراها أو كالحمام فى روازنها على حد تعبير السلامى .

وقد تقوم هذه الأمطار مقام الرقباء المبغضين من الأصدقاء فتمنعهم من التزاور واللقاء حتى إذا فاتها أن تعوقهم من ذلك أدركتهم فى عرض الطريق ذاهبين أو رائحين وعندئذ لا ينجيهم من أذاها عدو ولا كساء .

فإذا أضفنا إلى هذا كله أن هؤلاء القوم كانوا متحضرين يعيشون فى القرى والمدن ، فلا يرعون إبلا ولا ماشية ، وأنهم كانوا يعتمدون على الرى المنظم فى إسقاء مزارعهم وبساتينهم لكثرة الأنهار والجداول فى بلادهم ، استطعنا أن نقدر موقفهم السلبى من هذه الأمطار إذا كثرت فجاوزت الحد المعقول.

فلو قارنا بين حياة ذلك البدوى فى الصحراء وبين حياة هذا الحضرى الذى يعيش فى هذه البلاد لظهر لنا الفرق بينهما واضحاً ،وذلك أن البدوى كان ظاعناً لا يكاد يقيم ، راحلا لا يكاد ينزل ، فلم يكن يعرف الحياة المستقرة فى المدن التى تتحول فيها الطرق والممرات إلى برك ومستنقعات ، ثم إنه كان يعتمد فى حياته وحياة ماشيته وإبله على الأمطار ، فإذا انقطعت انقطع معها سبب حياته ، فلا عجب بعد ذلك إذا رأيناه يحتفل لها ويتعلق بها ،ويسميها حياة وغيثاً ورحمة .

أما هذا الحضرى فلم تكن به حاجة ملحة لهذه الأمطار الغزيرة بل لعله لا يحتاج إليها فى حياته على الإطلاق ، ذلك أن بيئته الطبيعية قد زودته بالمياه الجارية طول العام فاعتمد عليها فى استنبات النباتات وإنشاء البساتين والجنائن . لهذا ، ولما تقدم من أسباب أيضا لم تكن ترتسم على محياه علائم

البشر والارتياح حينما تؤذن السماء بالأمطار بل نراه على العكس من ذلك يضيق بها ويجزع لمرآها .

وإذن فالبدوى والحضرى كلاهما متأثر بهذه الظاهرة الطبيعية على السواء ولكنهما بعد ذلك يختلفان كل الاختلاف فى النظرة إليها والشعور نحوها ، إذ يعتبرها الأول بشيراً بالخير والسعادة ، بينما يرى فيها الثانى نذيراً بالشر والدمار . وكلاهما يصدر فى رأيه هذا عن وحى من بيئته الطبيعية .

ولعلنا فى غير حاجة إلى ضرب الأمثال من الشعر الجاهلى لندلل بها على أثر هذه الظاهرة الطبيعية فى أدب الجاهليين فذلك أمر لا يتنازع فيه اثنان ، كما يقولون . ولكننا فى حاجة ملحة جداً إلى إيراد شواهد شعرية من أدب هذا العصر الذى نؤرخه ، لنؤيد بها ما ذهبنا إليه فإن وفقنا إلى ذلك فإننا سنظفر بأسطع برهان على تأقلم أدب هذا العصر . . .

على أنه ليس من العسير علينا إذا قلبنا صحائف الأدب البويهى وقرأنا سطوره بإمعان أن نظفر بكثير من الشواهد الشعرية التى تصور لنا نفور الناس من المطر وانقباضهم عند حلوله . ولماذا نطيل الحديث فى هذه المقدمات وهذا أبو الحسن الجوهرى يحدثنا فى لهجة صادقة عن بغضه لأنواء الربيع وإنكاره لها خوفاً على بيته المتداعى من أن يتهدم وينقض، فتظل جفونه من أجل ذلك فى امتداد وانقباض كلما لاح بارق فى عرض السماء ، إذ يقول [١] :

أهش لأنواء الربيع إذا انبرت   وأكره أنواء الربيع وأنكر
تظل جفونى كلما مر بارق   تطول إلى خيط السماء وتقصر
حذاراً على خاوى الجوانب مائل   يكاد بأنفاسى عليه يقطر
لدى عرصات أصبحت غرفاتها   مناخل أمطار تروح وتبكر

---

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٢٦٨

أساطين حكتها السنون كأنها   قيام تثنت للركوع تكبر
رثى لى أعدائى بها وتطيرت   برؤيتها العين التى لا تطير

وها هو ذا نفسه يحدثنا أيضاً عن الشتاء وأمطاره ، فيصوره بصورة بشعة تشمئز منها النفس ، هى صورة الناعى ، إذ يقول . (١)

واغبر وجه الجو مما رفرفت   فيه الغيوم فأشبه الغبراء
ونعى الشتاء إلى بيتى إذ رأى   أعلاه ليس يكف كف الأنداء (٢)
وسوارياً لو دب فوق متونها   نمل هوت من أجلهن هباء (٣)
وعليلة بليت بلاى وأصبحت   غرفاتها عن (٤) أهلهن خلاء
أخشى الرياح إذا جرت من حولها   أبداً وأحذر فوقها الأنواء (٥)

* * *

وهذا أبو الحسن السلامى يصف ما أصابه من بلاء الأمطار وسوء فعلها حينما أحالت بيته وادياً صعب المرام ، وبحراً طامياً يعوم فيه صغاره كالضفادع ، ويهرب منه أهله فيتشبثون بالروازن كالحمام ، ولهذا تراه كلما تلبدت السماء بالغيوم جازعا ، هاتفاً بتلك الجملة التى كان يرددها الناس وما يزالون يرددونها فى مثل هذه الأحوال وهى : « حوالينا بذاك ولا علينا » .

وأظننى أكون مسيئاً مسرفاً فى الإساءة إلى السلامى لو اكتفيت بهذا

---

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٢٦٧ (٢) يكف كف يمنع ويصرف . والأنداء جمع ندى وهى هاهنا بمعنى الأمطار . (٣) السوارى جمع سارية الأسطوانة .
(٤) لعلها (من) (٥) الأنواء الأمطار

الشرح المقتضب لأبياته الرائعة التى وصف بها مأساته دون أن أثبتها بنصها ، وهذه هى : (١)

وكيف أزوركم والمزن تبكى على دارى بأربعة سجام
وكانت منزلا طلق المحيا فصارت وادياً صعب المرام
وبحراً من عجائبه خلوصى إليكم ظاميا والبحر طامى
بناتى كالضفادع فى ثراها وأهلى فى الروازن كالحمام (٢)
أنادى كلما ارتفعت سحاب فأبكتنا البوارق بابتسام
حوالينا بذاك ولا علينا كفانا الله شرك من غمام
تهافت ركع الجدران فيها سجوداً للرعود بلا إمام (٣)

وبعد ، أليس فى هذا القدر من الشواهد كفاية تغنينا عن الإطالة ؟ أم أن هناك من لايزال تساوره الشكوك فيما نقول فيطلب منها المزيد ؟

وإذن فلنجاوز هذين الشاعرين اللذين أسبغا على المطر هذه المسحة العابسة البغيضة فربما كانا موتورين لما أصاب متاعهما وأهلهما من ضر وربما كانا من الشذوذ الذى لاتبنى عليه قاعدة ولا ينهض عليه حكم .

أقول فلنجاوز هذين الشاعرين إلى غيرهما من الشعراء ولنمعن النظر مرة أخرى فى آثارهم ، فماذا نجد ؟ .

نجد من هؤلاء الشعراء من شبه المطر بالرقيب البغيض الذى يحول بين الناس وما يحبون ، فقال :

زاد غرامى لهبا قطر غمام سكبا
فعاقنى عن قصدكم كما تعوق الرقبا

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ١٥٨   (٢) الروازن جمع روزنة وهى الكوة .
(٣) تهافت أى تتهافت بمعنى تتساقط.

وكان عهدى قبل ذا بالماء يطفى اللهبا
فكيف قد فارق لى طباعه وانقلبا ؟ !

ونجد بينهم من وصفه بالصلف :

خرجت من عندكم فأدركتنى سحابة ذات منظر صلف

ومن اعتبره مصدراً للخطر :

جملة أمرى أنى ركبت إلى دارك — لما أتيتها — الخطرا

ومن اتخذ منه معنى من معانى الهجاء إذ يقول :

يا ليلة العريان غب عشية اليوم المطير
يا فجأة المكروه فى اليوم العبوس القمطرير (١)

وأظن أننى قد أطلت بضرب الأمثال التى لاترضى أولئك الذين يسوءهم أن لا يسمى المطر غيثا أو رحمة فى هذه البيئة التى تتفجر فيها الينابيع وتجرى فوقها الأنهار .

ومهما يكن من شىء فإننا نستطيع أن نقول إننا لم نكد نعثر على شاعر ممن عاشوا فى هذه البيئة وفى هذا العصر بالذات، كان يأنس بمنظر الأمطار أو يطرب لمرآها فيهتف بالخمر ويدعو إلى السرور فى جوها كما كان كان يفعل أسلافهم من قبل، على أننا نستثنى من هذا الحكم شاعرين اثنين هما الشريف ومهيار الديلمى اللذين أصرا على أن يكونا بدويين فى أغلب شعرهما، مع أنهما كانا يعيشان فى بغداد وفى القرن الرابع الهجرى أيضاً ، وذلك لأسباب ربما عرضنا لها فى غير هذا المكان .

على أن اشمئزازهم من المطر وضيقهم به لم يمنعاهم من ان يصفوا السحب والبروق والرعود ويجيدوا فى وصفها ، فقد شبهوا السحاب بالعمامة لكثافته

---

(١) القمطرير الشديد من الأيام

الشديدة ودنوه من الأرض وشموله جميع الكائنات على وجهها ، وشبهوا قطراته لشدة وقعها على أكسيتهم بسهام الأتراك التى لا تخطئ أهـــدافها، كما شبهوا الرعود بأصوات الدبادب والصنوج التى تضرب فى حفلات الشرف أمام قصور الملوك والأمراء ، وشبهوا البروق بالسيوف اللامعة التى تنتضى من أغلافها، كل ذلك ، وأكثر منه ، نجده فى قول أبى أحمد الشيرازى:(١)

غمامة كالعمامـــة ائتلفت   فوق رؤوس المشاة فى السدف (٢)
تنالهـــا كف من يزاولها   تقـول للمرء : ويك لا تقف
تختطف الأرض وقع صيبها   مثل اختطاف المخالب العقف
فوقعـــه والـكساء يدفعه   وقع سهام الأتراك فى الهدف
كأنمـا كل قطـرة وقعـت   عليه در بدا من الصدف
فيها من الرعد كالدبادب والصنـ   ـج إذا ما ضربن فى شرف (٣)
واشتعل البرق فى جوانبهـا   مثل السيوف انتضين من غلف (٤)

أليس فى هذه الأبيات ما يدل على شعورهم بالخطر حينما تلم بهم الأمطار؟ ألم يصور الشاعر سحابته بصورة مخيفة ، تنذر السائر بشر مستطير وتوحى إليه بأن يحث الخطا فلا يتمهل ؟ وهل هناك جملة أبلغ من قوله : « ويك تقف » تصور شعور الخائف فى مثل هذه الأحوال ؟ وأخيراً أين هذا من قول تلك الأعرابية فى السحاب ؟ (٥)

---

(١) - اليتيمة ٢ : ٩٩ (٢) - السدف بفتح السين والدال الضوء والظلمة (ضد) وجمعها أسداف (٣) الدبادب بالدال المهملة جمع دبداب وهو الطبل والصنج صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للطرب (٤) انتضى السيف استله من غمده (٥) ديوان المعانى ٢ : ٦

فلما مراها هبوب الجنوب　　وانهمر الماء منه انهمارا
تبسمت الأرض لما بكت　　عليها السماء دموعا غزارا
فكان نواجذها الأقحوان　　وكان الضواحك منها البهارا

أما التنوخي فإنه يصور السحاب هادئا كالمفكر المطرق، واجما كالنادم المتلهف، قد امتدت جوانبه حتى طبقت الآفاق، فإذا استقر به المقام أرسل مياهه إلى البر، فإذا هو بحر زاخر، وإذا النهار المضيء ينقلب ليلا مظلما، حالك الظلام، يتألق فيه البرق في أرجاء الغيوم كأنه ابتسامة على ثغر نحيل عابس.

وتلك صورة دقيقة لغيوم الشتاء في بغداد، تلك الغيوم التي تمتاز عن غيوم الربيع بالدوام والهدوء: [1]

سحاب أتى كالأمن بعد تخوف　　له في الثرى فعل الشفاء بمدنف [2]
أكب على الآفاق إكباب مطرق　　يفكر، أو كالنادم المتلهف [3]
ومد جناحيه على الأرض جانحا　　فراح عليها كالغراب المرفرف
غدا البر بحراً زاخراً وأنثنى الضحى　　بظلمته في ثوب ليل مسجف [4]
يعبس عن برق به متبسم　　عبوس نحيل في تبسم معنف
تحاول منه الشمس في الجو مخرجا　　كما حاول المغلوب تجريد مرهف [5]

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ١١١

(٢) المدنف من دنف المريض إذا ثقل مرضه ودنا من الموت.

(٣) المتلهف الحزين المتحسر.　　(٤) ليل مسجف ممتد الظلام.

(٥) المرهف المحدد والمرقق.

وكما وصفوا الأمطار والسحب، كذلك وصفوا الوحول التى تنشأ على أديم الأرض بعد هطول المطر فتتلوث بها الثياب، كقول السلامى :

لبست دراعتى وعمتى الخز   فصارا كما ترى حبرا
أصبحت فى الطين عقعقا أبلقا   وإن تعريت خلتنى نمرا

وقول الصاحب :

إنى ركبت وكف الأرض كاتبة   على ثيابى سطورا ليس تنكتم
والأرض محبرة والحبر من لثق   والطرس ثوبى ويمنى الأشهب القلم [١]

وإذا كانت الأمطار والسحب والوحول قد أزعجتهم فلم تنل إعجابهم فإن الثلوج قد فتنت نفوسهم وسحرت ألبابهم بغلائلها البيض التى تسبغها على الأرض فإذا هى كالعروس تجلت بأبهى حللها وأبدع زينتها، وإذا الطبيعة على اختلاف مظاهرها فى حفل عرس بهيج .

وقد حملتهم هذه الفتنة على التغنى بجمال الثلج وبهائه ، كما أغرتهم بشرب الخمر وممارسة اللهو فى جوه البهيج السار ، فاكتساء الجو بحلله البيض الناصعة، وتهادى الكائنات فى أرجائه بذرات الثلج يوحيان إليهم بجو الأعراس الأنيقة التى تظللها البهجة ويحيطها الفرح ، وحينذاك ينبسطون للسرور ويشربون بالكبير بعد الصغير :

أقبل الثلج فانبسط للسرور   ولشرب الكبير بعد الصغير
أقبل الجو فى غلائل نور   وتهادى بلؤلؤ منثور
فكأن السماء صاهرت الأر   ض فصار النثار من كافور

وقد شاعت هذه الثلجيات عند أهل الجبال أكثر من غيرهم لكثرة الثلوج فى بلادهم وندرتها فى بلاد السهول ، فالصاحب يصف الثلج ويتفنن

---

(١) اللثق الوحل .

فى وصفه شعراً ونثراً ، ويشاركه فى هذا الغرض أبو معمر الإسماعيلى وأبو عبد الله الروزبارى وغيرهما من الأدباء .

* * *

٤ - الفواكه والثمار

وكما تأثروا بالرياض وزهورها فى أدبهم ، كذلك تأثروا بالبساتين والحدائق فوصفوا فواكهها وثمارها المختلفة ، ذلك أنهم كانوا يغشون هذه المواطن فى الصباح أو فى المساء للنزهة حيناً وللهو أحياناً ، وهناك كانوا يعقدون مجالس الشراب والغناء على ضفاف السواقى والأنهار الجارية التى تذهب مياهها أشعة الشروق والغروب ، وفى ظلال الأغصان المتهدلة بالثمار ذات الألوان الزاهية ، فيأخذون من اللذات بحظ موفور .

ورقدت بالنجمى رقدة شارب   تحت الغصون وحملها المتهدل

لهذا أعجبوا بالثمار وصوروا هذا الإعجاب فى أدبهم ، فوصفوها شعراً ونثراً ، وصفوا النارنج والأترج حينما كانوا يشربون تحت أشجارهما، وحينما كانوا يزينون بهما مجالسهم أو يهادون بهما أصدقاءهم .

لقد كان الصاحب بن عباد معجباً بهاتين الفاكهتين ، مغرما بهما ، وكان يزين بهما مجالس لهوه وشرابه ، ويصفهما ويتفنن فى هذا الوصف فيقول :

بعثنا من النارنج ماطاب عرفه   فقيل على الأغصان منه نوافج (١)
كرات من العقيان أحكم خرطها   وأيدى الندامى حولهن صوالج (٢)

وأراد ذات مرة أن يقدم إلى أحد أصدقائه هدية فلم يجد بعد طول

---

(١) النافجة وعاء المسك   (٢) العقيان الذهب الخالص والصوالج جمع الصولجان وهى العصا المعقوفة الرأس والكلمة فارسية . والندامى جمع ندمان بفتح النون وهو المنادم على الشراب .

التفكير إلا أترجة فأرسلها إليه مصحوبة بفصل فى وصفها يقول فيه :

« ما زلت ياسيدى — أفكر فى تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق، وتنظم نعوت مشوق وشائق، حتى ظفرت بأترجة كأن لونها لونى وقد منيت ببعدك وبليت بصدك ، وكأن عرفها مستعار من عرفك وظرفها مشتق من ظرفك . . الخ »

وكان ابن العميد جالساً ذات يوم والشعراء من حوله مجتمعون وإذا بزائر يحييه بأترجة حسنة فيقول لهم : تعالوا نتجاذب أهداب وصفها ، فيشترك الجميع فى هذا الوصف .

فيقول ابن العميد : وأترجة فيها طبائع أربع

ويقول أحدهم : وفيها فنون اللهو للشرب أجمع

ويقول الثانى : يشبهها الرائى سبيكة عسجد

ويقول الثالث : على أنها من فارة المسك أضوع

ويقول الرابع : وما اصفر منها اللون للعشق والهوى

ويقول الخامس : ولكن أراها للمحبين تجمع

أما السلامى (١) فقد كان مفتوناً بمنظر النارنج على الأشجار ، حتى خيل إليه أنه فتاة ذات خد رقيق وقوام رشيق ، تصطنع مغازلته ، أو خيل إليه أنه جمر شب فى الأغصان فأحالها حريقاً ملتهباً أضاع الماء فى وهجه . وكان مسحوراً أيضا بمنظر النهر الجارى خلال الشجر تذهب أمواجه أشعة الشمس حينما تطلع عليه فى الصباح أو تغيب عنه فى المساء ، وكان مأخوذاً بجمال هذا وذاك حتى تصورهما ميدانا من التبر تجول فيه الخيول الدهم وقد

---

(١) هو أبو الحسن محمد بن عبدالله السلامى من أشعر أهل العراق ، ولد فى كرخ بغداد سنة ٣٣٦ ونسبته فى بنى مخزوم ، سافر إلى الموصل وهو صبي ثم ورد حضرة الصاحب بأصبهان ثم قصد حضرة عضد الدولة بشيراز ثم توفى سنة ٣٩٤

صيغ لها كرات من عقيق .

وحق لهذا المنظر الخلاب أن يسحر الشاعر ويستهويه ، ويهيب به أن ينشط للصبوح : (١)

أتنشط للصبوح أبا علي ... على حكم المنى ورضى الصديق
بنهر للرياح عليه درع ... تذهب بالغروب وبالشروق
إذا اصفرت عليه الشمس صبت ... على أمواجه ماء الخلوق (٢)
وقفت به فكم خد رقيق ... يغازلني على قد رشيق
وجمر شب في الأغصان حتى ... أضاع الماء في وهج الحريق
فدهم الخيل في ميدان تبر ... يصاغ لها كرات من عقيق
فهل لك في ختام المسك فضت ... نوافجه ومختوم الرحيق

ولا شك أن السلامي في وصفه هذا قد أبدع وأجاد فبز ابن المعتز حين قال :

كأنما النارنج لما بدت ... صفرته في حمرة كاللهيب
وجنة معشوق رأى عاشقاً ... فاصفر ثم احمر خوف الرقيب

وكذلك وصفوا الرمان والتين والعنب والتمر والتفاح والمشمش والخوخ وغيرها . من ذلك وصف التمر في مخازنه لأبي الحسين الثغري :

أما ترى التمر يحكي ... في الحسن للنظار
مخازنا من عقيق ... قد قمعت بنضار
كأنما زعفران ... فيه مع الشهد جاري

---

(١) اليتيمة ٢ : ١٦٩
(٢) الخلوق ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران .

يشف مثـــل كؤوس مملوءة من عقـــار

ووصفوا فوق هذا كله الباذنجان والبطيخ والنبق والباقلاء وقصب السكر.

ولعل وصفهم لقصب السكر الذى كان يزرع فى الأهواز فقط دليل قاطع على تأثرهم بنباتات بيئتهم. قال العسكرى: [١] «وقلت فى قصب السكر ولا أعرف فيه شيئا لأحد»:

وممشوقة القامات بيض نحورها وخضر نواصيها وصفر جسومها
لها حقب لا تستطيع اطراحها وليس يطيق سلبها من يرومهـا
وهن رماح لا تريق دم العدا ولـكن يراق فى القدود صميمها
يميل على أعرافها عذباتها كحور تناصى هندها ورميمها [٢]
تناهى بها الإدراك حتى كأنها يعل بمـاء الزعفران أديمهـا
ترى الريح يغريها بنجوى خفية إذا ما جرى قصر العشى نسيمها

---

(١) ديوان المعانى ٢ : ٤٣

(٢) رميم اسم امرأة كهند .

الفصل الثاني

الطبيعة الحيـــة

١ - الحيوان

لم يعن أدباء العصر البويهى بالحيوان كما عنى به الجاهليون من قبل ، ولم يفتتنوا به كما افتتنوا بالرياض والمياه الجارية مثلا ، ذلك أن حياتهم الحضرية المستقرة اللاهية لم تكن لتسمح لهم أن يصحبوا الحيوان كما صحبه الجاهليون فى حلهم وترحالهم وفى حربهم وخصامهم فأحبوه لفائدته لهم واستجلوا صفاته لطول صحبتهم له .

لهذا لم تظهر آثاره فى أدبهم كما ظهرت فى أدب الجاهليين إلا على سبيل التقليد والاحتذاء ، فهم إذا وصفوا الناقة والفرس والذئب والأسد ، وقليلا ما يصفونها ، باستثناء الشريف ومهيار ، كانوا مقلدين فى هذا الوصف . وذلك أمر طبيعى بالنسبة لأناس شغلتهم الحياة المعقدة ، العابثة ، عن الاهتمام بهذا الجانب من جوانب الطبيعة الحية فاتجهوا إلى غيره مما يلائم ذوقهم ويتصل بحياتهم من قرب .

على أننا نجد أحيانا فى أدبهم ما يدل على أنهم تأثروا بحيوان بيئتهم الخاصة وذلك حين وصفوا الفيل والبرذون كقول الجوهرى من قصيدة فى وصف الفيل :

مثـــل الغمامـة ملئت   أكنافها برقا ورعـدا
رأس كقـلة شـاهـق   كسيت من الخيلاء جلدا

فتراه من فرط الدلا ل مصعرا للناس خدا
يزهى بخرطوم كمثـــل الصولجان يرد ردا
متمرد كالأفعوا ن تمده الرمضاء مدا
أو كم راقصـــة تشيـــر به إلى الندمان وجدا
وكأنه بوق تحر كه لتنفخ فيه جدا
يسطو بساريتى لجيــــن يحطمان الصخر هدا
أذناه مروحتان أســــندتا إلى الفودين عقدا
عيناه غائرتان ضيــــقتا لجمع الضوء عمدا (١)

وهكذا يطنب فى وصفه إطنابا ، ويشاركه فى هذا الميدان عبد الصمد ابن بابك وأبو محمد الخازن وغيرهما .

أما البرذون فقد وصفه جميع شعراء الصاحب كالزعفرانى والقاضى الجرجانى والسلامى وغيرهم .

* * *

٢ - الطير

وإذا كان الحيوان لم يشاركهم فى حياتهم العابثة أو الجادة مشاركة فعلية، وإذا كان أثره الإقليمى فى أدبهم غير واضح كل الوضوح فإن شأن الطير معهم كان على العكس من ذلك ، فقد كانت صلتهم به وثيقة وألفتهم له شديدة فالحمام والبلبل والزرزور وغيرها من الطيور كثيرا ما كانت تلقاهم فى البساتين والرياض وفى غيرها من المواطن ، فأشجتهم بهديلها وأطربتهم بتغريدها وصفيرها فتغنوا بها ووصفوها وأكثروا .

تغنوا بها حينما تغنوا بجمال الرياض وبهاء الزهور، كقول التنوخى :

وكأنما تلك القصور عرائس والروض حلى فيه خود ترفل

---

(١) اليتيمة ٣ : ٦٩ و ٧٠

غنت قيان الطير فى أرجائها ... هزجا يقل له الثقيل الأول

وقول السروى : (١)

وغردت خطباء الطير ساجعة ... على منابر من ورد ومن آس

وقول الغويرى :

للزرازير فى خلال الأزاهيـــر صفير وللحمام هديل

ووصفوها بقصائد مستقلة كما فعل الصابى والعسكرى وغيرهما.

وقد كان الصابى معنيا بالطيور ، معجبا بها ، فوصف القبجة والببغاء ، والخطاف ، وأسهب فى أوصافها ، فهو حين يتحدث عن القبجة يصف جميع نواحى جسمها ومزاياها ويذكر أقفاصها: (٢)

أنعت طارونية الثياب ... لابسة خزا على الإهاب
تصبغت تصبغ التصابى ... وأبرزت وجها بلا نقاب
ريان من محاسن الشباب ... مكحولة العينين كالكعاب
مغموسة الحاجب بالخضاب ... منقارها أحمر كالعناب
كأنما تسقى دم الرقاب ... محذورة ، محمية الجناب
لها على الأرجل والأعقاب ... حملات ليث من ليوث الغاب
أقفاصها كمحبس الحجاب ... مدورات الشكل كالقباب
تسمعنا منها وراء الباب ... تمتمة بالقاف فى الخطاب

ويشير إلى موطنها بقوله :

---

(١) أبو العلاء السروى ، قال فيه الثعالبى (٣ : ٢٨٠) هو واحد طبرستان أدبا وفضلا ، ونظما ونثرا، وله كتب وشعر سائر مشهور كثير الظرف والملح .

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٤٥

ربيبة الجبال والهضاب   كريمة الأعراق والأنساب
لم تدر ما بادية الأعراب   غريبة صارت من الأحباب

وكذلك وصف أبو هلال العسكرى القبجة والخطاف والبلابل والعصفور والقمرى ، ووصفه لهذه الطيور يدل على أنه كان يحبها ويأنس إليها ، فهو حين يصف الخطاف لا يخفى إعجابه بهذا الطائر حينما يحط وسط العراص ، ولا يكتم أنسه به حينما يحوم بين الديار. وقد يذهب الى أبعد من هذا فيرى فيه وهو عائد من أوطانه زائراً ، محبوباً ، يبشر بطيب الزمان ، ويخبر عن رقة الجو وازدهار الرياض ، واخضرار وجه الأرض ، كما يرى فى عودته بعد الفراق دليلا على حبه لهذا الإنسان وحنينه إليه ، على ما بينهما من اختلاف فى الجنس ، ولا شك فى أن هذا الشعور دليل على شدة التأثر والاتصال بالبيئة الطبيعية:

وزائرة فى كل عام تزورنا   فيخبر عن طيب الزمان مزارها
تخبر أن الجو رق قميصه   وأن الرياض قد توشى إزارها
وأن وجوه الغدر راق بياضها   وأن وجوه الأرض راع اخضرارها
تحن إلينا وهى من غير شكلنا   فتدنو على بعد من الشكل دارها
فيعجبنا وسط العراص وقوعها   ويؤنسنا بين الديار مطارهـــا
أغار على ضوء الصباح قميصها   وفاز بألوان الليـــالى خمارها
تصيح كما صرت نعال عرائس   تمشت إليها هنـــدها ونوارها
تجاورنا حتى تشب صغارها   وتقضى لبانات النفوس كبارها (١)

ووصفوا فوق هذا ، الدجاج والديكة والبزاة ونحوها .

---

(١) ديوان المعانى ٢ : ١٣٩

٣ - الحشرات المؤذية

وفى هذه البيئة أيضاً تكثر الحشرات المؤذية كالبق والبعوض والبراغيث والقمل والذباب والنمل والزنابير ونحوها ، وربما كانت وفرة المياه والنباتات والثمار من الأسباب التى دعت إلى نموها وتكاثرها .

فالبعوض على اختلاف أنواعه يكثر فى المستنقعات والمزارع والبساتين كثرة هائلة بحيث يتراءى لمن قدر له أن تحمله قدماه إلى مثل هذه الأماكن كسحب من الدخان الكثيف ، ولا سيما فى وقت العصر فإذا أقبل المساء زحفت جيوشه الجرارة على المدن والقرى والأحياء المجاورة فلا يعود منها إلا أواخر الليل .

أما البراغيث والقمل والذباب والزنابير فإنها من الحشرات الأليفة التى تقيم مع الإنسان فى صعيد واحد على الرغم من ضيقه بها وكرهه لها .

وقد تتعاون هذه الحشرات جميعا على إيذاء الإنسان فى نفسه وفى حيوانه وفى طعامه ، غير أن البعوض والبرغوث والبق هى أشد حشرات هذه البيئة فتكا بالإنسان ، وأقدرها على حرمانه لذة النوم وطعم الراحة كلما آوى إلى فراشه ، وقد اشتهر بعوض البطائح من بين أنواع البعوض بالضراوة وشدة الفتك بالإنسان ، حتى ضرب به المثل ، قال الجاحظ : « بعوض البطائح كجرارات الأهواز وعقارب شهرزور ، وربما ظفر بالسكران النائم فلا يبقى منه إلا العظام العارية » .

فماذا يفعل الإنسان فى مثل هذه الظروف ؟ لاشك أنه يحاول أن يتغلب على هذه المزعجات ، فيستعمل الكلل ، أو يستعمل الأغطية الخفيفة ، أو أية وسيلة أخرى . ولكن هذه الوسائل ، إن استطاعت أن تخفف عنه بلاء البق والبعوض ، فإنها عاجزة كل العجز عن أن تحول بينه وبين البراغيث

وقرصها المؤلم ، فلهذه البراغيث قدرة عجيبـــة على النفوذ من أى حاجز يقام فى طريقها .

وهكذا يصبح هذا الإنسان فريسة لهذه الحشرات المؤذية طول الليل تتداوله قرصا ولسعا دون ما رحمة أو شفقة ، فإذا هو سهران يتقلب فى مضجعه ذات اليمين وذات الشمال ، وإذا هو محنق مغيظ، يكاد ينفجر من شدة الغيظ والحنق . أريد أن أقول إنه متأثر شديد التأثر، منفعل شديد الانفعال بما ألم به من أذى وما حاق به من مكروه .

وإذا كان الأمر كذلك ، فهل ظهر أثر هذا الانفعال فى الأدب ؟ وبعبارة أخرى ، هل تأثر أدباء العصر البويهى بهذا الجانب من جوانب الطبيعة الحية فى بلادهم فأفصحوا عن تذمرهم منه ، ووصفوا مصدر هـذا التذمر فى بيان جميل ؟

والحق إنهم فعلوا ذلك ، ففى أدبهم تصوير رائع لما كان يقاسيه الناس فى هذه البيئة من أذى الحشرات وبلائها ، وفى أدبهم أيضا وصف دقيق لهذه الحشرات يدل على أنهم لاحظوها واهتموا بها ، وهم فى هذا الوصف وذلك التصوير لم يكونوا هازلين ولا عابثين وإنما كانوا جادين كل الجد . وقصيدة الزعفرانى التى بعث بهـا إلى الصاحب والتى « يصف فيها علتـــه بجرجان وتأذيه بهوائها وبراغيثها وبقها (١) » خير دليل على ما نقول :

تعاونها علىّ سموم صيف بلفح من لظـاه واتقاد
وذبان أشردها فتأبى وترجع كالمراغم ذى الكياد
كأنى حين أطردها وتأبى أفرق بين ذى سغب وزاد
ويا ويلى من الليل الموافى فإنى حين يطرق فى جهاد
له جيشـا براغيث وبق يطل علىّ إطلال الجراد

---

(١) اليتيمة ٣ : ١٧٣

ولى فراش هى الميدان فيه | براغثه وخمشى فى طراد
وبق فعله فى كل عضو | فعال النار فى يبس القتاد (١)
عصائب ينتحين على عروقى | بعوج كالمباضع فى الفصاد
فتروى ثم ترجع عاطفات | علىّ وهن كالهيم الصوادى
وأنقف بعضهن وفى حشاها | دمى فأنال ثأراً من أعادى (٢)
تفرق بين جنبى والحشايا | وتجمع بين جفنى والسهاد
ولو أنى ثملت وملت سكراً | لحالت بين طرفى والرقاد
وأستر دونها وجهى بكفى | وعطف الردن وهو لهن بادى
وأظهر فى صباحى كل يوم | بوجه مجدر قلق الوساد (٣)
وأدمن حك ما تركت بجسمى | فيحسبنى جربت ذوو عناد

ثم يصف كيف كان يقضى ليلته فيقول :

وفى يمناى مروحة فطوراً | أذود بها وما يخفى ذيادى
وطورا أستريح إلى انتصابى | وطوراً أنثنى ويدى اعتمادى
وعلمنى البعوض بلطم خدى | خلائق لسن من شيمى وعادى (٤)

ففى هذه القصيدة يصور الشاعر أدق ما يختلج فى نفس الإنسان من خوف وقلق إذا ما أحس بالخطر يدنو منه ويقترب، فهذا الليل يبدو له شبحاً مخيفا مفزعا ، إذا أقبل ، لما يحمل فى طياته من مشقة وعناء .

ولم لا يخاف ولهذا الليل جيشان من بق وبرغوث يزحفان عليه كما

---

(١) القتاد شجر صلب له شوك كالإبر .
(٢) نقف الحنظل ونحوه شقه عن حبه والمعنى هنا أنه يضرب البق فيقتل بعضه.
(٣) المجدر : المصاب بالجدرى. (٤) العاد جمع عادة وهى ما يعتاده الإنسان.

تزحف جيوش الجراد على المزارع والبساتين ؟ وكيف لا يفزع وفراشه هو الميدان الذى ستجرى عليه المعركة الدامية ، وجسمه هو الهدف الوحيد الذى سيتعرض لآلام اللسع والقرص والخمش واللطم؟ !

ثم . . . أفلا يحق له وقد ابتلى بمثل هذا البلاء أن يفرق من الليل إذا وافى ، فيهتف جازعا ؟ :

ويا ويلى من الليل الموافى فإنى حين يطرق فى جهاد !

وفى هذه القصيدة أيضا وصف دقيق بارع لما يدور بين الإنسان وبين هذه الحشرات من كفاح مر ، فهى إذ تهاجمه بمناقيرها وخراطيمها الشبيهة بالمباضع ، فتوسعه قرصا ولسعا وإيلاما ، تثيره وتهيجه فينهال عليها ضربا ولطما ، ولكنه قليلا ما يدرك ثأره ، وكثيرا ما يخيب ، حتى إذا أدركه الملل وأخذ منه الجهد مأخذه ، فنبا به الفراش وفارق عينيه النوم ، انتصب جالسا أو انثنى معتمداً على إحدى يديه ، يساهر الليل ويذود بمروحته شر العدو ، وقليلا ما كان يفلح فى هذا الذياد .

على أن الزعفرانى لم يكن الشاعر الوحيد الذى تأثر بهذه الحشرات فظهرت آثارها فى شعره ، بل شاركه فى هذا التأثر كثير من أدباء بيئته كالصابى والثعالبى والسروى والعسكرى والسلامى إذ وصفوا فى شعرهم البق والبعوض والبرغوث ، والقمل والذباب والزنبور كما وصفوا آثارها السيئة فى نفوسهم وأجسامهم فمن ذلك قول الثعالبى : (١)

وليل بتـه رهن اكتئاب أقاسى فيه أنواع العذاب
إذا شرب البعوض دمى وغنى فللبرغوث رقص فى ثيابى

وقول العسكرى فى البعوض : (٢)

---

(١) خاص الخاص ص ١٨٤ (٢) ديوان المعانى ٢ : ١٤٨

غناء يسخن العين ويبنفى فرح القلب
ولا يأتى على الزمر ولا يجرى مع الضرب
غناء البق بالليل ينافى طرب الشرب
إذا ما طرق المرء جرى فى طلق الكرب
نحيف راح كالشن ولكن بات كالوطب (١)
إذا ما نقب الجلد ة أخفى موضع النقب
سوى حمر خفيات تحاكى نقط الكتب

وقوله فى النمل :

لهم نظرة يمنى ويسرى إذا مشوا كما مر مرعوب يخاف كمينا
ويمشون صفاً فى الديار كأنما يجرون خيطا فى التراب مبينا
ففى كل بيت من بيوتى قرية تضم صنوفا منهم وفنونا

أما السلامى فقد أبدع ـ كعادته ـ فى وصف الزنبور إذ قال : (٢)

ولابس لون واحد وهو طائر ملونة أبراده وهو واقع

* * *

يخاف إذا ولى ويؤمن مقبلا ويخفى على الأقران ما هو صانع
بدا فارسى الزى يعقد خصره عليه قباء زينته الوشائع
فمعجره الوردى أحمر ناصع ومئزره التبرى أصفر فاقع (٣)
يرجع ألحان الغريض ومعبد ويسقى كؤوسا ملؤها السم ناقع (٤)

وليس من شك فى أن هذا اللون من الأدب كان صدى من أصداء

---

(١) الشن القربة الخلق والوطب سقاء اللبن. (٢) اليتيمة ٢ : ١٧٩
(٣) المعجر بكسر الميم ثوب تشده المرأة على رأسها وهو العمامة فى الرأس أيضا.
(٤) الغريض ومعبد مغنيان مشهوران .

الطبيعة الحية فى هذه البلاد ، وقد رددته نفوس الأدباء فانعكست آثاره فى أدبهم؛ فنحن إذا رجعنا إلى الأدب الجاهلى لا نكاد نجد فيه ما يماثل هذا الأدب، ذلك أن البيئة الصحراوية وما فيها من نقـلة وارتحال لا يساعدان على نمو هذه الحشرات وتكاثرها كما هو الحال فى فارس والعراق.

☆ ☆ ☆

وبعد ، فهذا هو أثر البيئة الطبيعية فى أدباء العصر البويهى قـد لمسناه واضحا كل الوضوح فى أدبهم ،وذلك حين أعجبوا برياضها ومياهها وثلجها وطيرها فتغنوا بهذا الإعجاب ، وحين سخطوا على حرها وبردها ورياحها ومطرها وحشراتها المؤذية ، فعبروا عن هذا السخط أيضا ، فكان أدبهم من أجل هذا سجلا دقيقا لمظاهر بيئتهم الطبيعية السارة والمؤلمة ، ولا يضيرهم بعد ذلك إذا تأثروا فى بعض النواحى بغيرهم ، فالتأثر ناموس طبيعى يحدث بين أدباء أمة واحدة كما يحدث بين أدباء أمم مختلفة .

وكما كان الأدب البويهى وثيق الصلة بالبيئة الطبيعية، كذلك كان وثيق الصلة بالبيئة السياسية والاجتماعية ، وذلك ما سنتناوله بالبحث فى الفصول القادمة.

الباب الثانى

أثر الحالة السياسية

فى الأدب البويهى

« المرء أشبه شىء بزمانه ، وصفة كل زمان
منتسخة من سجايا سلطانه » « ابن العميد »

نظرة عامة

ليس فى الإمكان أن يعيش الأديب بمعزل عن الجماعة التى ينتمى إليها ، أو يقف من الأحداث التى تلم بها موقف المتفرج . فلابد له إذن من أن يشارك فى حياتها العامة من قريب أو بعيد ، لأنه فرد من الهيئة الاجتماعية يرتبط وإياها بروابط المصلحة المشتركة ، ووشائج القربى ، والعيش فى وطن واحد ، فهو مضطر إلى أن يألم لألمهـــا ويفرح لفرحها وينعم بنعيمها ، ويشقى بشقائها .

والأديب بعد ، إنسان حساس ، دقيق الحس ، رقيق الشعور ، يتأثر بما حوله من أحداث الحياة الاجتماعية وينفعل بها . . . يتأثر وينفعل ككل إنسان ، ولكنه يختلف بعد ذلك عن غيره بأنه يستطيع الإبانة عن الأحاسيس التى تجيش بها نفسه ، ويختلج لها قلبه ، فيتخذ من اللغة أداة للتعبير ، فينظم

الشعر ويكتب النثر ، يتغنى بهما مكتئباً ومبتهجاً ، ساخطاً وساخراً ، متحمساً ومتغزلا ... الخ

فمادة الأديب على هذا يتناولها من بيئته الاجتماعية كما يتناولها من بيئته الطبيعية ، ثم يضفى عليها شيئاً من ذاته ، حتى إذا تبلورت المعانى فى ذهنه ألبسها حلة قشيبة من الألفاظ فيكون الأدب ، ذلك الفن الذى يسجل أهواء الأمم ونزعاتها كما يسجل مظاهر حياتها السياسية والاجتماعية والطبيعية .

لهذا يجب أن يكون الأدب مرآة صادقة لحياة الأمة التى تنشئه ، ولكن مع ذلك لا نرى الأدباء فى أكثر العصور أحراراً فيما يقولون وما يكتبون بصورة مطلقة ، إذ كثيراً ما يتأثرون بعوامل سياسية وأخرى اجتماعية تشغلهم وتسيطر عليهم فتدفعهم فى هذه السبيل أو تلك دون أن يكون لهم رأى فى ذلك ، فيكون نتاجهم الأدبى مقصوراً على تصوير حياة طبقة معينة من الناس .

أما السواد الأعظم من الأمة فإنه لم يكد يظفر بعناية الأدباء إلا نادراً وفى مجال ضيق ، فلأمر ما انقسم المجتمع إلى طبقات : طبقة عليا تعتز بسلطانها ونفوذها وجاهها وثروتها ، وطبقة سفلى ليس لها من وسائل الرفعة وعلو الشأن ما للطبقة الأخرى ، بل هى طبقة — كما قال القدماء — « زبد جفاء ، وسيل غثاء ، لكع ولكاع ، وربيطة اتضاع ، هم أحدهم طعامه ونومه ... »

ومن هنا نشأ الأدب فى أكثر العصور أرستقراطياً مترفعاً عن الخوض فى شؤون حياة الدهماء والرعاع والزعانف من الناس . ومن هنا أيضاً جد الأدباء وتنافسوا فى إخراج أدبهم على صورة تتفق هى وأذواق الطبقة الممتازة وتتلاءم وأسلوب حياتها ، فابتعدوا من اجل ذلك عن حياة الشعب وضربت بينهم وبينها الأسداد .

ذلك ما يوحى به تاريخ الأدب عند كل أمة من الأمم كانت تعيش — وما تزال — على أساس النظام الطبقى ، ولكن قد تتهيأ ظروف ملائمة للطبقات الدنيا ، فتحس وتفيق فتجد نفسها فى بؤس وشقاء وعند ذلك تستطيع أن تشعر بكيانها وشخصيتها فتعبر عن آلامها وآمالها على ألسنة شعرائها وكتابها وقصاصها وسمارها الشعبيين .

وقد حدث هذا كله بالقياس إلى الأمة الإسلامية ، فالأدب العربى بعد أن كان سجلا للأحداث التى تلم بالقبيلة ، ومعرضا لمشاعر أفرادها أخذ يتعالى ويترفع كلما امتد به الزمن عن حياة الدهماء ، ويعنى بحياة الطبقة العليا لاسيما فى عهد بنى العباس ، فكأنه كان يساير فى ذلك ماجرى فى الحياة السياسية والاجتماعية من تغير وتطور من نظام قبلى بسيط ، قوامه النزعة الديموقراطية عند العرب إلى نظام معقد قوامه الحكم المطلق والتفاوت بين الطبقات عند الشعوب الأعجمية .

بيد أن العوامل التى أشرنا إليها فيما تقدم قد فعلت فعلها على مر الأيام ، إذ لم يكد يبدأ القرن الرابع حتى رأينا المملكة الإسلامية تتجزأ ، والمجتمع الإسلامى يتفكك ويتداعى ، فقد بلغ التفاوت بين الطبقات نهايته ، كما تحلل الناس من كثير من القيود الاجتماعية والدينية ، بحيث يخيل إلينا أنهم كانوا يعيشون على غير نظام ويسيرون على غير اتجاه ، فأتاحت لهم هذه الفوضى فى جوانب الحياة المختلفة حرية واسعة ، فى القول والفعل والرأى . وطبيعى أن يتأثر الأدباء بهذه الظاهرة فيتسع مجال الأدب عندهم ، وتتفتح أمامه آفاق جديدة لم يطرقها من قبل ، ولم يتعد حدودها من بعد ، وتتهيأ له فرص للتغلغل فى طبقات المجتمع على اختلافها ، فيتخطى الحواجز التى كانت تفصل بين الأدباء وبين الطبقة العامة ويخرج بذلك على ما تواضع عليه الناس من اعتبارات اجتماعية .

ولسنا فى ذلك نرسل القول جزافاً ، فنظرة عابرة على الحياة الأدبية فى العصر البويهى ترينا النشاط الأدبى واضحا كل الوضوح فى كل ناحية وفى كل مجهل، فقد اتصل الأدباء بحياة القصور، فصوروا مافيها من ضروب الجد والهزل وما فيها من ألوان الترف والزينة .

وشاركوا فى الشؤون العامة كالحرب والسياسة والإدارة فصوروا النصر والهزيمة، والظلم والعدل ، والتولية والعزل، والأمر والنهى، والتهديد والوعيد، والترغيب والترهيب .

وعرضوا لعلاقة الفرد بالفرد وعلاقة الفرد بالجماعة فهنأوا ، وعزوا ، وعتبوا ، وشكوا ، واستعطفوا ، ومدحوا ، وهجوا . . . الخ

كل ذلك نقرأه فى رسائل الصابى والصاحب والخوارزمى والبديع وغيرهم وفى هذه الكثرة الهائلة من شعر الشعراء الذين احتشدوا فى تلك البيئات الأدبية المتعددة .

ولم يقفوا عند هذا الحد بل تعدوه إلى الأشياء التى تصلح أو لا تصلح لأن تكون موضوعا للأدب كالمدخنة والميزاب والشمعة ، أو كالأحاجى والألغاز وما إليها .

على أن الأدب فى هذا العصر لم يشأ ، أو لم تشأ له الظروف ، أن يحتفظ بتلك المكانة الرفيعة حيث وضعه أهله، يختال بين نعيم القصور ومجالس الشراب والغناء ، وخواطر الأدباء . أقول إن الأدب فى هذا العصر لم يشأ أن يعيش مترفعا ، بل حطم ذلك الإطار الذهبي المضروب حوله ونزل إلى مستوى الحياة الشعبية فى شىء كثير من الاندفاع والحماس ، فعاش بين التجار وأصحاب الحرف وأهل الرساتيق والخوانق والزوايا ، وصاحب الصعاليك والمكدين واللصوص، فسجل أساليب المعيشة عند هؤلاء جميعا ، كما صور

ما كان فى بيئاتهم من أخلاق وميول وآراء وآلام أيضا.

وقد ترك هذا الاتجاه الشعبي فى الأدب ثروة أدبية قيمة، متمثلة فى شعر ابن الحجاج وابن سكرة والسوسى والعكبرى والخزرجى وأمثالهم، وفى هذه القصص والأسمار والنوادر التى كتبها التنوخى ومسكويه المؤرخ المعروف وغيرهما من الكتاب المجهولين. فلهذا الأدب الشعبي أهمية كبيرة من حيث إنه خير مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ولو أنه لا يرضى أولئك الذين يتطلبون اللذة الفنية فى الأدب.

وهكذا كان تأثر الأدباء فى العصر البويهى بالواقع القاسى الذى جرت إليه الحياة السياسية والاجتماعية وخضوعهم له من الأسباب التى دفعتهم إلى أن ينتجوا ألواناً مختلفة من الأدب، ففى أدبهم نجد المثالى الذى يحلق فى السماء، والواقعى الذى يحيا على الأرض، ونجد فيه الباسم والشاكى، ونجد فيه المحافظ المحتشم، والمكشوف الخليع العذار.

وكما اختلفت أغراض هذا الأدب واتجاهاته كذلك اختلفت أساليبه وألفاظه، فالأدب الذى يكتب للطبقة المثقفة يمتاز بالتأنق والتجويد، والحلية اللفظية، والأدب الذى يكتب للشعب يتسم بالبساطة وعدم التكلف، ومجاراة الحياة الاعتيادية فى ألفاظه ومعانيه.

* * *

يظهر لنا مما تقدم أن الأدب البويهى كان مرنا، يلبس لكل حالة لبوسها ويجرى مع الحياة كيفما كان اتجاهها، فكان من أجل ذلك تسلية لطيفة للمنعمين والمجدودين، كما كان عزاء جميلا للبائسين والمحرومين.

الفصل الأول

صلة الأدب بالسياسة

فى القرن الرابع

لا ريب فى ان اثر الحالة السياسية فى الأدب أثر قوى فعال ، فالحرية التى تتمتع بها الأمة ، والاستبداد الذى تمنى به ، يؤثران فى الأدب تأثيراً مباشراً ، والفنون الأدبية التى تنشأ فى ظل الحرية وتزدهر تختلف عن تلك التى تنشأ فى كنف الاستبداد وتزدهر .

ففى زمن بنى أمية حيث كانت الأمة الإسلامية تتمتع بنصيب من حرية الرأى والقول نمت الخطابة والمناقضات والشعر السياسى ، واكتمل نموها وازدهارها على ألسنة الخطباء والشعراء الذين كانوا يناصرون هذا الحزب أو ذاك من الأحزاب السياسية .

أما فى عهد بنى العباس ، حيث تأثر الخلفاء بأنظمة الحكم المطلق وحق الملوك الآلهى عند الفرس فخنقوا الحريات السياسية ، وكموا أفواه الشعراء والخطباء ، فإننا نجد تلك الفنون الأدبية تذوى وتذبل ، فتخلفها أنواع جديدة من الأدب تلائم الطابع السياسى وتتمشى مع الحياة الاجتماعية الجديدة ، كفن المديح الذى يتملق السلطان ويسرف فى التملق . ومنذ يومئذ أصبحت بغداد — عاصمة الخلافة — قبلة الأنظار عند الطامعين فى هبات الخلفاء وذوى الثروة واليسار ، وكعبة الطامحين إلى المجد ، يحجون إليها من أقاصى المملكة الإسلامية لأنها كانت تحتل المكانة الأولى بين المدن

الإسلامية من حيث إنها مركز للحياة الفكرية والأدبية ، ومن حيث إنها تمتاز بالحياة المدنية الراقية التي تكونت فيها بعد اختلاط العناصر وامتزاج الثقافات وتجمع المال .

وعلى هذا أصبح لزاماً على أولئك الأدباء الذين يبتغون الشهرة ويطمعون بالمال أن يشدوا الرحال إلى بغداد حيث قصور الخلفاء والوزراء ، وحيث مجالس العلم والأدب يمدحون حيناً ، ويغشون المجالس الأدبية حيناً آخر حتى إذا تهيأت لهم الفرص مدحوا الخلفاء ورجال البلاط وتقربوا إليهم واختصوا بهم ، وعاشوا في أكنافهم .

على أنه لم يكن من اليسير أن يظفر كل الأدباء بالحظوة لدى الممدوحين العظام ، فالذين تؤهلهم مواهبهم الفنية ، أو تخدمهم الظروف ، فيكونون من ندماء الخليفة أو الوزير قليلون . ولذلك كان تشجيع الساسة للأدب والأدباء محصوراً في نطاق ضيق .

أما في القرن الرابع فقد اختلف حال الأدب وأهله عن قبل ، ذلك أن بغداد لم تعد الموئل الأكبر للنشاط الأدبي ، كما لم يعد بلاط الخلفاء العباسيين وقصور وزرائهم مورداً عذباً يزدحم عليه الشعراء . فقد نشأت هناك حواضر جديدة في أنحاء المملكة الإسلامية ، زاحمت بغداد ونافستها مركزها القديم وأخذت نفسها بتشجيع العلم والأدب بحماس شديد .

لقد كان الحمدانيون في حلب ، والبويهيون في فارس والعراق ، والسامانيون في خراسان ، وملوك مصر والمغرب والأندلس يتنافسون ويستبقون في العطف على أهل العلم والأدب ، كما كانوا يتنافسون أيضاً في جمع الكتب وخدمة العلم وتشجيع المؤلفين .

وهكذا ينفق سوق العلم والأدب في ظل السياسة نفاقاً عجيباً ، كان من

نتائجه أن أصبح الأدباء والعلماء يتنقلون من بلاط إلى بلاط ، ومن قصر إلى قصر ، يعرضون نتاجهم على الملوك والوزراء وعلى من ينفق عنده الأدب من ذوى المال ، كالتاجر الذى يحمل بضاعته إلى حيث تنفق ليجنى منها الربح الوفير.

نلاحظ ذلك ونحن نقرأ تاريخ حياة الأدباء فى هذا العصر بصورة خاصة، نقرأ مثلا :

أن القاضى الجرجانى فى صباه كان خلف الخضر فى قطع عرض الأرض وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرها حتى يعرج على حضرة الصاحب ويلقى بها عصا المسافر . (١)

وأن أبا الحسن السلامى قد هجر بغداد إلى الموصل ثم ورد أصبهان ثم آثر قصد حضرة عضد الدولة بشيراز . (٢)

وأن بديع الزمان الهمذانى كان أخا أسفار وكان جوابة لم يترك من خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها وجبى وجنى ثمرتها ، ولا أميراً ولا ملكا ولا وزيراً ولا رئيساً إلا استمطر منه بنوء وسرى معه فى ضوء . (٣)

وهكذا كانت بخارى ونيسابور والرى وجرجان وأصبهان وشيراز وحلب وبغداد وغيرها قبلة الآمال ، ومحط الرحال للعلماء والأدباء والفلاسفة فى ذلك العصر .

لقد كانت حركة علمية وأدبية واسعة النطاق ، ازدهرت فى بيئات متعددة من المملكة الإسلامية المتجزئة برعاية الملوك ووزرائهم الذين احتفلوا بالأدب

---

(١) اليتيمة ٣ : ٢٢٩ (٢) نفس المصدر ٢ : ١٦٢

(٣) نفس المصدر ٤ : ١٦٩

والعلم والفلسفة احتفالا منقطع النظير يدعو إلى التساؤل ويبعث الدهش والاستغراب فى نفس الباحث.

ترى ما الذى حدا بهؤلاء الساسة إلى رعاية العلم والأدب فى مثل هذا الحماس الغريب ؟

أهو الميل إلى العلم والأدب والفلسفة ؟ أهو الرغبة فى الاستكثار من هؤلاء المثقفين ليزينوا بهم المجالس كما زينوها بأدوات الترف والزينة ؟ أهو التنافس — لمجرد التنافس — الذى يحدث عادة بين الخصوم والأقران ؟ أهو تكلف العظمة والأبهة ، كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد ؟ أم هو هذه الأمور جميعاً ؟

ربما يكون الأمر كذلك ، فقد ذكر القدامى والمحدثون أن من هؤلاء الملوك والوزراء من كان أديباً أو عالماً قد دفعه حبه للعلم والأدب إلى تشجيع العلماء والأدباء ، وأن منهم من كان يميل إلى الفلسفة ، فقرب أهلها إليه ورعاهم ، وأن منهم من كان يحب الكتب فيجمعها ويعنى بها . (١)

ولكنى — مع ذلك كله — لا أكاد أطمئن إلى أن مصدر هذا التشجيع كان حب العلم للعلم وإكرام الأدب للأدب نفسه دائماً ، بل يتراءى لى أن السبب الرئيسى الذى دفع هؤلاء الساسة إلى أن يقفوا هذا الموقف الودى من الأدب وأهله هو الضرورة ، هو الحاجة إلى الشعر والشعراء والكتاب ، هو الرغبة الملحة فى الشرد السائرات من قصائد الشعراء التى تكسب الممدوح ذكراً حسنا وصيتا بعيداً ، بل هو الحاجة الماسة إلى الرسائل المحبرة التى يرد بها الكاتب رأس الجموح فينثنى ويجعلها سوط الحرون فيعنق ، أو إلى تلك

---

(١) راجع كتاب ظهر الإسلام للأستاذ الدكتور أحمد أمين وكتاب الفن ومذاهبه فى النثر العربى للأستاذ الدكتور شوقى ضيف .

الرسائل التى تنوب عن الكتائب فى عرك أديم العاصى واستصلاحه ورده إلى الطاعة .

ذلك أن هذه الأمارات الصغيرة كانت مختصمة فيما بينها ، وكانت مهددة بتمرد القادة والزعماء الطامحين فى كل لحظة ، وكانت مهددة أيضا بالأخطار الخارجية والثورات الداخلية. كل ذلك قد حمل القائمين على شؤونها والمدبرين لأمورها على أن يتخذوا من الأدب وسيلة يستعينون بها على تهدئة الخواطر المضطربة ، والنفوس القلقة ، ويستخدمونها فى إقامة الهيبة وبث الدعوة وتثبيت السلطان .

ولسنا بحاجة إلى التدليل على هذا الرأى ، فقد كفانا الثعالبى مؤونة ذلك إذ قال (١) : « إن الكتاب وهم ألسنة الملوك ، إنما يتراسلون فى جباية خراج أو سد ثغر، أو عمارة بلاد ، أو إصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو دعاء إلى ألفة ، ، أو نهى عن فرقة، أو تهنئة بعطية، أو تعزية برزية، أو ماشا كلها من جلائل الخطوب ومعاظم الشؤون وقد وسمتهم خدمة الملوك بشرفها وبوأتهم منازل رياستها» .

وكذلك يقدم لنا ابن خلكان دليلا آخر على حاجة السياسة إلى الأدب إذ يقول : (٢)

« وكان سيف الدولة كثير الغزوات فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحض عليه الناس ويحضهم على نصرة سيف الدولة »

وإذن فقد كان يقوم هؤلاء الكتاب والشعراء للدول التى ترعاهم بخدمات خطيرة تتصل بحياتها وحياة القائمين عليها ، فهى من النوع الذى تقدمه مؤسسات الدعاية لحكوماتها فى العصر الحاضر ، فإذا عرفنا هذا استطعنا

---

(١) نثر النظم وحل العقد ص ٢ (٢) ابن خلكان ١ : ٣٥٦

أن نفهم الدافع الذى كان يحرك الملوك ووزراءهم ويدعوهم إلى أن يملأوا قصورهم بالكتاب والشعراء ويغمروهم بالعطايا والهبات.

على أن حملة الأقلام من الكتاب والشعراء لم يكونوا جاهلين بقيمة مراكزهم وخطورتها بالنسبة لولاة الأمور ، فقد ذهب بهم الغرور والتيه إلى أن يقول أحدهم: (١)

كذب الزاعمون أن المعالى   فى صدور المثقفات الدوامى
إنما المجد والندى والمساعى   والردى فى أسنة الأقلام

وإلى أن يقول أبو إسحق الصابى مفتخراً: (٢)

وقد علم السلطان أنى لسانه   وكاتبه الكافى السديد الموفق
أوازره فيما عرا وأمده   برأى يريه الشمس والليل أغسق
يجدد بى نهج الهدى وهو دارس   ويفتح بى باب النهى وهو مغلق
فيمناى يمناه، ولفظى لفظه   وعينى له عين بها الدهر يرمق
ولى فقر تضحى الملوك فقيرة   إليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجموح فينثنى   وأجعلها سوط الحرون فيعنق
فإن حاولت لطفاً فماء مروق   وإن حاولت عنفاً فنار تألق

❁ ❁ ❁

وإذا كان ما قدمناه صحيحاً من أن الكتاب كانوا ألسنة الملوك ، وأن الردى فى أسنة الأقلام ، وأن « الكتابة قطب الأدب وملاك الحكمة ولسان ناطق بالفضل وميزان يدل على رجاحة العقل... »(٣) ، فإننا نستطيع أن نعلل تلك الظاهرة السياسية التى جدت فى هذا العصر وهى ظاهرة إسناد المناصب

---

(١) اليتيمة ٢: ١٩٢ (٢) نفس المصدر ٢: ٥٠

(٣) صبح الأعشى، الجزء الأول ص ٣٧، ٤١

الإدارية الكبرى فى الدول إلى الكتاب كالوزارة أو مايشبه الوزارة من حيث الأهمية (١) فليس من قبيل المصادفة أن يصبح جميع الوزراء ورؤساء الدواوين من الكتاب البارزين إذ لو لم يكن لقدرة هؤلاء البلاغية جدوى للملوك وأثر حسن فى حياتهم وحياة ممالكهم لما رأيناهم يتسابقون إلى احتضان الأدباء الأكفاء فيسلمونهم زمام الامور ، ولكان لهم فى غيرهم من رجال الإدارة الآخرين خير عوض .

وبعبارة أخرى إن افتقار الملوك إلى الكتابة — للأسباب التى بيناها فيما تقدم — هو السبب الذى حمل آل سامان على استيزار العميد والإسكافى وبنى ميكال ، وهذا السبب نفسه هو الذى حمل آل بويه على استخدام أبى الفضل بن العميد ، والصاحب بن عباد ، والمهلبى ، والصابى وعبد العزيز بن يوسف وغيرهم فى تدبير شئون مملكتهم .

وهكذا أصبح الأدب فى هذا العصر سبيلا للوصول إلى الوزارة والمناصب المهمة فى الدولة ، فرفع قدر صاحبه ، وبدله من حال إلى حال ، من عسر إلى يسر ، ومن فقر إلى غنى ، ومن ضعة وخمول إلى شرف وجاه.

قال القلقشندى (٢) : « ولو اعتبرنا من شرف بالكتابة وارتفع قدره بها لفاتوا الحصر ، وخرجوا عن الحد وهذا الوزير المهلبى كان أول أمره فى شدة عظيمة من الفقر والضائقة حتى قال :

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتى يخلصنى من العيش الكريه
إذا أبصرت قبراً من بعيد وددت لو أننى مما يليه

---

(١) راجع كتاب الحضارة الإسلامية للأستاذ متز ترجمة الدكتور أبى ريدة. وكتاب ظهر الإسلام للأستاذ الدكتور أحمد أمين .

(٢) صبح الأعشى ج ١ ص ٣٧ ، ٤١

ألا رحم المهيمن نفس حر   تصدق بالوفاة على أخيه

ثم ترقى بالكتابة حتى وزر لمعز الدولة بن بويه الديلمى فى جلالة قدره»
ثم قال: « . . . . وأبلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابى صاحب الرسائل المشهورة كان على دين الصابئة مشددا فى دينه ، وبلغت به الكتابة إلى أن تولى ديوان الرسائل عن الطائع والمطيع ومعز الدولة البويهى ، وعندما مات رثاه الشريف بقصيدة فلامه الناس لكونه شريفا يرثى صابئيا ، فقال إنما رثيت فضله » .

على أن هؤلاء الكتاب لم يكونوا ليبلغوا هذه المنزلة الرفيعة فى الدولة إلا إذا كانوا أكفاء ، ذوى عقل وافر ورأى سديد واطلاع واسع على ثقافة العصر ليتمكنوا من القيام بواجباتهم على الوجه الأكمل ، فيضعوا الأشياء فى مكاتباتهم ومخاطباتهم فى مواضعها ، ويأتوا بالكلام من وجهه ، ويخاطبوا كل واحد عن سلاطينهم بما يقتضيه الحال التى يكون عليها .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير : (١) « إن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس وإلى ما يقـــوله المنادى فى السوق على السلعة فما ظنك بما فوق هذا وذلك لأنه مؤهل أن يهيم فى كل واد فيحتاج إلى أن يتعلق بكل فن » .

وإذا كان ذلك موقف السياسة وأهلها تجاه الأدب والأدباء بصورة عامة فما هو موقف بنى بويه ووزرائهم منهما بصورة خاصة إذن ؟

ذلك ما ستراه فى الفصول التالية .

---

(١) نقلا عن صبح الأعشى ١ : ٤٥

الفصل الثانى

أثر بني بويه في الأدب

كان بنو بويه أعاجم ، بعيدين عن الثقافة العربية أول عهدهم ، حتى إنهم احتاجوا إلى من يترجم لهم من العربية إلى الفارسية حينما احتلوا بغداد ولكنهم تأثروا بثقافة عصرهم وأثروا فيها منذ الجيل الثانى منهم ، فقد كان من ملوكهم وأمرائهم من استطاع أن يقرض الشعر ويتفرغ للأدب ويتشاغل بالكتب . فعز الدولة وأبو العباس بن ركن الدولة كانا شاعرين ، وتاج الدولة بن عضد الدولة كان آدب آل بويه وأشعرهم ، وكان يلي الأهواز فأدركته حرفة الأدب . وعضد الدولة كان شاعراً ، نابغا فى عدة فنون ، وكان يستحث العلماء على التأليف ، ويغمرهم بالأموال ، ويقصده فحول الشعراء من أطراف البلاد ، كالمتنبيء وغيره ، ولا يكاد مجلسه يخلو من المباحثات والمباسطات فى العلم والأدب ، حتى قال فيه الثعالبي : «كان على ما مكن له فى الأرض ، وجعل إليه من أزمة البسط والقبض ، وخص به من رفعة الشأن وأوتى من سعة السلطان ، يتفرغ للأدب ، ويتشاغل بالكتب ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ويقول شعراً كثيراً .»(١)

وقد كان من المتوقع أن يشجع آل بويه الثقافة الفارسية واللغة الفارسية كما فعل آل سامان فى خراسان ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك بالرغم من أنهم كانوا يحكمون بلاداً أكثر أهلها من الفرس ، ويخيل إلى أن سبب

---

(١) اليتيمة ٢ : ٢

ذلك يعود إلى أن هذه البلاد قد ابتعدت عن لغتها الأصلية وتراثها القومى حقبة طويلة من الزمن ، الأمر الذى جعل بنى بويه يخضعون للأمر الواقع ، فيشجعون الثقافة القائمــــة ولغتها ، ويرعون أهلها مجاراة للرأى العام وحبا بمصالحهم الخاصة ، فقربوا العلماء والأدباء وحثوهم على التصنيف والتأليف ، وفتحوا أبوابهم للشعراء وغمروهم بالعطايا والصلات .

ومهما يكن فقد امتاز عهد آل بويه بالخصب العلمى والأدبى بتأثيرهم الخاص أو بتأثير وزرائهم ، ذلك أنهم استوزروا أبرع الكتاب وأبرزهم وأعتمدوا عليهم فى تدبير شؤون الحرب وأمور السياسة والإدارة والمال جميعا ، فلمعت أسماؤهم ، وعظمت هيبتهم وطار صيتهم فى الآفاق فقصدهم أهل العلم والأدب فأفادوا منهم كثيراً وأنتجوا كثيراً ، فى ميدان الأدب والعلم والفلسفة ، فكان أثرهم فى الحياة الفكرية قويا جداً ربما فاق أثر أسيادهم فيها .

ومن الظواهر البارزة فى عهد بنى بويه تعدد البيئات الأدبية والعلميـة بتعدد العواصم فى الأقاليم ، فقد كان العلماء والأدباء يقصدون الوزراء فى الرى وأصبهان وشيراز وبغداد فيعيشون فى أكنافهم ، ويتصلون بألوان النشاط العقلى والأدبى الذى اذدهر فى تلك البيئات ، إذ كان بيت الوزير يمثل مدرسة ، بل جامعة تحوى ألوانا مختلفة من الثقافة ، وضروبا من العلم والأدب ، لا سيما وأن هؤلاء الوزراء كانوا يختلفون فى الميول والنزعات ، فمنهم من كان يميل إلى الفلسفة كابن سعــــدان ، ومنهم من كان يميل إلى العلم والأدب كابن العميد ، أو إلى الأدب فقط كالصاحب بن عباد والوزير المهلبى ، ومنهم من كان يحب الكتب ويعنى بها فيجمعها كسابور بن أردشير .

كل ذلك زاد الحركة الأدبية والعلمية تنوعا ونشاطاً ، وأكسبها خصباً ونماء .

لقد كان ابن العميد (١) ـ بالإضافة إلى منصبه كوزير يدبر أمور الدولة وقائد يخوض المعارك ـ عالما ، وأديبا ، وأستاذاً ماهراً ، تخرج عليه كثير من الأدباء كالصاحب وعضد الدولة وابنه أبي الفتح .

وكان في قصره يمثل المدرس الذي يعنى بتدريب طلابه وتمرينهم على قول الشعر ، فتراه ينتهز المناسبات ويطلب إليهم أن ينظموا فيها شعراً فإذا حياه بعض الزائرين بأترجة قال لهم : تعالوا نتجاذب أهداب وصفها، وإذا سئل أحد الحاضرين عن قصة له فقال :

أى جهـــد لقيته وشقـاء شقيتـــه

قال لهم : قولوا على هذا الوزن .

وهكذا كان ابن العميد يقارض الأدباء ، ويعقد المناظرات الفقهية والـكلامية بين الفقهاء والمتكلمين ، كما كان يكاتب الأصدقاء شعراً ونثراً .

ونستطيع أن نقول إن ابن العميد كان أستاذ الجيل ، وكاتب العصر ، وصاحب طريقة في الـكتابة تفرد بها وعرفت باسمه ، وتأثره فيها كتاب زمانه وما بعد زمانه . . . ثم إنه كان ذا شخصية قوية ، قد غلبت حتى على شخصية سيده ومولاه ركن الدولة .

كل ذلك جعل منه عاملا من عوامل النهضة الأدبية والعلمية أيام بنى بويه، ممدوحاً وكاتباً ومعلماً ومقارضاً ومكاتباً . ولعل المتنبيء لم يكن مخطئاً حين قال فيه :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رسطاليس والإسكندرا

---

(١) هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، كان أبوه أبو عبدالله الحسين يتقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر السامانى حتى مات ، أما أبو الفضل فقد كان بالرى وكور الجبل وفارس يتدرج فى المناصب حتى وزر لركن الدولة البويهى.

أما الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وفخر الدولة فقد قال فيه الثعالبي:(١) « ولما كان نادرة عطارد فى البلاغة . . . جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل ، وقوال فصل ، وصارت حضرته مشرعاً لروائع الكلام وبدائع الأفهام وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . . . واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربى عـــددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى . . . ثم جمعت حضرة الصاحب بأصبهان والرى وجرجان مثـل أبى الحسن السلامى وأبى بكر الخوارزمى وأبى طالب المأمونى وأبى الحسن البديهى وأبى سعيد الرستمى وأبى القاسم الزعفرانى وأبى العباس الضبي وأبى الحسن بن عبد العزيز الجرجانى وأبى القاسم بن أبى العلاء وأبى محمد الخازن وأبى هاشم العـــلوى وأبى الحسن الجوهرى وبنى المنجم وابن بابك وابن القاشانى وأبى الفضل الهمذانى ، وإسماعيل الشاشى وأبى العـــلاء الأسدى وأبى الحسن الغويرى وأبى دلف الخزرجى وأبى حفص الشهرزورى وأبى معمر الإسماعيلى وأبى الفياض الطبرى وغيرهم ممن لم يبلغنى ذكرهم أو ذهب عنى اسمه . »

عدد ضخم من الأدباء والمثقفين ، أحاطوا بهذا الوزير وملأوا قصره أينما حل ، فغمروا بعطفه ورعايته ، وعاشوا فى كنفه ، وجلسوا منه مجلس الطلاب من الأستاذ ، فأعجبوا به وجاروه وقلدوه ، واتسموا بطابعه ، وجروا فى نهجه ، وقبسوا من ناره ، واغترفوا من بحره ، وساروا فى طريقه ترسما وترسلا.(٢)

---

(١) اليتيمة ٣ : ٣٢ (٢) اليتيمة ٣ : ١٢٩ .

كان يقترح عليهم الموضوعات ويطلب إليهم أن ينظموا فيها الشعر كما كان يفعل أستاذه أبو الفضل بن العميد ، ولكن فى نطاق أوسع . . . بنى داراً فطلب إليهم وصفها فاستبقوا فى ذلك ، ووقع فى يده فيل وهو فى جرجان فأمرهم أن يقولوا فيه شعراً ، ومات برذون أبى عيسى فأحب أن يرثوه ويعزوا صاحبه فاستجابوا لرغبته ، فكان من أثر ذلك مجموعات شعرية سميت الداريات والفيليات والبرذونيات .

وكان إلى جانب هذا ناقداً ، ينقد شعرهم ويقومه فيحكم مثلا على قصيدة ابن أبى الربيع بأنها : « أحسن من الربيع ، وثيقة الجزالة ، أنيقة الأصالة تنطق عن أدب مهيد الأسر ، شديد الأزر . » [1] ويبدى رأيه كذلك فى أبى سعيد الرستمى فيقول : مرة هو أشعر أهل مصره وتارة هو أشعر أهل عصره . [2]

ولهذا كان تأثير الصاحب فى الحياة الفكرية شديداً ، إذ كان يمثل المدرس النشيط ، الواثق من نفسه إلى حد الغلو والإسراف بدليل هذا الميل الشديد إلى الظهور بمظهر الأستاذ القدير ، فقد كان يتزيا بزى أهل العلم متطلسا ، متحنكاً ، مستخفاً بتقاليد الوزارة . وربما كان مصدر ذلك أنه كان معلماً فى قرية من قرى الطالقان فى أول أمره ، فلما ألقيت إليه مقاليد الأمور فأصبح وزيراً ، نزع إلى إشباع هذا الميل والإفصاح عن تلك الرغبة فحول قصره إلى مدرسة أدبية كبرى .

وقد بلغ من حب الصاحب للعلم والأدب — كما يقول القدامى — أنه كان يرسل إلى بغداد خمسة آلاف دينار كل عام تفرق فى الفقهاء وأهل الأدب. [3]

---

(١) اليتيمة ٣ : ٢١٠ (٢) نفس المصدر ٣ : ١٢٩

(٣) المنتظم ٧ : ١٨٠

وذكر ياقوت مايدل على رغبته فى العلم والأدب وتعلقه بهما إذ قال : « لما عزم الصاحب بن عباد على الإملاء وهو وزير خرج يوماً متطلساً متحنكا بزى أهل العلم فقال: قد علمتم قدمى فى العلم ، فأقروا له بذلك، فقال: وأنا متلبس بهذا الأمر وجميع ما أنفقته من صغرى إلى وقتى هذا من مال أبى وجدى ، ومع هذا فلا أخلو من تبعات أشهد الله وأشهدكم أنى تائب ... ثم خرج فقعد للإملاء وحضر الخلق الكثير ، وكان المستملى الواحد ينضاف إليه ستة كل يبلغ صاحبه ، فكتب الناس حتى القاضى عبد الجبار » (١)

ويروى عنه أيضا أنه قال : « مابقى من أوطارى وأغراضى إلا أن أملك العراق ، وأتصدر ببغـــداد ، وأستكتب أبا إسحق الصابى ويكتب عنى وأغير عليه » . (٢)

وهكذا كان الصاحب طموحا ، عريض الآمال ، شديد الثقة بنفسه ، ولكنه كان وزيراً فى إمارة صغيرة ، فلم يتهيأ له أن يشبع نزعاته وميوله كلها ، فأفرغ جهده فى الحقل الأدبى والعلمى وملأه حركة ونشاطاً ، فلفت إليه الأنظار وظفر بالإعجاب والإكبار حتى من ألد الخصوم كأبى حيان التوحيدى .

ويدلنا على ذلك ما قيل فى رثائه ، كقول أحد الشعراء :

نوم العيون على الجفون حرام ودموعهن مع الدماء سجام
تبكى الوزير سليل عباد العلا والدين والقرآن والإسلام
تبكيه مكة والمشاعر كلها وحجيجها والنسك والإحرام
كافى الكفاة قضى حميداً نحبه ذاك الإمام السيد الضرغام
مات المعالى والعلوم بموته فعلى المعالى والعلوم سلام

(١) معجم الأدباء ٦ : ٢٥٢ (٢) معجم الأدباء ٦ : ٣٠٦

هذا ما كان من أثر بعض وزراء البويهيين فى الحياة العلمية والأدبية فى فارس .

أما ما كان من أثر وزرائهم فى العراق فإننا نستطيع أن نقول إن هؤلاء لم يألوا جهداً فى تشجيع الحركة الفكرية بما أوجـدوا من بيئات علمية وأدبية وفلسفية ، كان يغشاها الأدباء والعلماء والفلاسفة ، فكأنهم كانوا ينافسون — فى ذلك — زملاءهم فى فارس ، إذ اجتذبوا إلى قصورهم قادة الفكر والبيان ممن اعتزت بهم بغداد ، وحافظت على بهائها القديم بوجودهم فيها .

نذكر من هؤلاء الوزراء ثلاثة ، على سبيل التمثيل ، وهم الوزير المهلبى وابن سعدان وسابور بن أردشير .

أما الوزير المهلبى فقد كان أديباً ، كاتباً وشاعراً « يترسل ترسلا مليحاً ، ويقول الشعر قولا لطيفاً ، يضرب بحسنه المثل ، ولا يستحلى معه العسل ، يغذى الروح ويجلب الروح »(١) .

وكان يعقد المجالس الأدبية فى قصره الجميل أو فى بساتينه الأنيقة أو فى أى مكان آخر فيقصدها كثير من أهل العلم والفضـل كالوزراء والقضاة والشعراء ، من أمثال الصاحب والقاضى التنوخى وابن قريعة وابن معروف وغيرهم ، وهناك يأخـذون فى فنون مختلفة من المناشدات والمجاوبات والمذاكرات والمداعبات .

وقد أعجب الصاحب بن عباد بهذه المجالس حينما زار بغداد فأكثر من وصفها والتحدث عنها فى كتابه « الروزنامجة » فقال فى أحد فصوله :(٢) « وردت أدام الله عز مولانا — يقصد ابن العميد — العراق فكان أول ما اتفق لى

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٨ (٢) نفس المصدر ٢ : ١١

استدعاء مولاى الأستاذ أبى محمد — أيده الله — وجمعه بين ندمائه من أهل الفضل وبينى ، وكان الذى كلمنى منهم شيخ ظريف ، خفيف الروح ، أديب متقعر فى كلامه ، لطيف ، يعرف بالقاضى ابن قريعة ، فإنه جارانى فى مسائل خفتها تمنع من ذكرها واقتضاضها . . . «ثم قال :

« وشاهدت من حسن مجلسه - يعنى المهلبى - وخفة روح أدبه وإنشاده للصنوبرى وطبقته ما طاب به الوقت وهشت له النفس وشاكل رقة ذلك الهوى ، وعذوبة ذلك اللمى » .

وكان المهلبى يحب الأدب ويكثر من التحدث حوله حتى على مائدة طعامه ، قال ياقوت :

« كان أبو محمد المهلبى يكثر الحديث على طعامه ، وكان طيب الحديث وأكثره مذاكراة بالأدب وضروب الحديث على المائدة لكثرة من يجمعهم عليها من العلماء والكتاب والندماء » . (١)

وقد بلغ من حبه لأهل الفضل والأدب أنه كان يحتمل من أبى الفرج الأصفهانى حين يؤاكله ما لا يحتمله إنسان ، فهو على ما كان من نظافته وأناقته فى مأكله ، كان يتكلف الصبر على مؤاكلة أبى الفرج ، فلا يظهر فى وجهه إنكار ولا استكراه . (٢)

ولعل ما رثاه به ابن الحجاج يدل على حسن أثره فى حياة العلماء والأدباء إذ قال : (٣)

يامعشر الشعراء دعوة موجع لا يرتجى فرج السلو لديه
عزوا القوافى بالوزير فإنها تبكى دماً بعد الدموع عليه

---

(١) معجم الأدباء ٩ : ١٤٣ (٢) معجم الأدباء ١٣ : ١٠٢
(٣) نفس المصدر ٩ : ١٣٨

مات الذى أمسى الثناء وراءه   وجميل عفو الله بين يديه
هدم الزمان بموته الحصن الذى   كنا نفر من الزمان إليـه

وأما ابن سعدان وزير صمصام الدولة فإنه كان يأنس بالفلسفة ويميل إليها ويقرب المشتغلين بها إليه فيشجع طائفةالفـلاسفة ويشملهم برعايته كأبى حيان التوحيدى وأستاذه أبى سليمان المنطقى . وأبو حيان هذالم ينفق عند أحد من الوزراء كما نفق عند هذا الوزير ، فكان ينادمه ويحدثه فى لياليه ضروبا من الأحاديث الأدبية والعلمية والفلسفية جمعها بعد ذلك فى كتاب الإمتاع والمؤانسة ، كما ألف له أيضا كتاب الصداقة والصديق .

وكان يجتمع فى مجلس هذا الوزير طائفة كبيرة من المثقفين منهم : «أبو على عيسى بن زرعة النصرانى المتفلسف وابن عبيد الكاتب وابن الحجاج الشاعر وأبو الوفاء المهندس وابن بكر ومسكويه وأبو القاسم الأهوازى وأبو سعد بهرام بن أردشير وابن شاهويه سوى الطارئين من أهل الدولة.[١]

وكان يعتز بهم كثيراً فيقول فيهم : « مالهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير وإنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوى العقل ، وإذا خلا العراق منهم فرقن على الحـكمة المروية والأدب المتهادى » .

ثم يوازن بينهم وبين ندماء الوزراء الآخرين فيقول : « أتظن أن جميع ندماء المهلبى يفون بواحد من هؤلاء ، أو تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقل من فيهم ... وهل عند ابن عبـــاد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح ويقول : قال شيخنا أبو على وأبو هاشم » .

يظهر لنا من ذلك أن التنافس بين هؤلاء الوزراء حول اجتذاب العلماء

---

(١) الصداقة والصديق ص ٣٠

والأدباء قد بلغ الذروة ، ولا يخفى ما فى ذلك من خير على الحياة الفكرية والأدبية .

وأما سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة فقد كان كاتباً سديداً ، قد جمع حوله — كغيره من الوزراء — طائفة كبيرة من الشعراء كالسلامى والحمدونى وأبى الفرج الببغاء وابن بابك وابن لؤلؤ والنامى والحاتمى والخالع وغيرهم فكانوا يكثرون مدحه فيجزل لهم العطاء كقول أبى الفرج الببغاء(١) :

لمت الزمان على تأخير مطلبى ... فقال ما وجه لومى وهو محظور
فقلت لو شئت ما فات الغنى أملى ... فقال أخطأت بل لو شاء سابور
عذ بالوزير أبى نصر وسل شططاً ... واسرف فإنك فى الإسراف معذور

ومن مآثر سابور هذا ، المكتبة التى أنشأها ببغداد عام ٣٨١ ، وكانت تحتوى على أكثر من عشرة آلاف مجلد ، وقد بقيت إلى أن احترقت فى عهد طغرل بك حين جاء إلى بغداد عام ٤٥٠ (٢)

وهكذا كان ملوك آل بويه ووزراؤهم يرعون العلم ويعنون بالأدب ويشجعون التصنيف والتأليف فى بلادهم على نحو لم يكن له نظير فى البلدان الإسلامية الأخرى .

* * *

تلك صفحة ناصعة فى تاريخ بنى بويه ليس إلى نكرانها من سبيل ، ولكننا إذا أنعمنا النظر فى أسفار التاريخ بدت لنا فى تاريخهم صحائف سود قاتمة هى أثر من آثار الحكم الغاشم ونتيجة من نتائج السياسة الجائرة ومظهر من مظاهر الأهواء الجامحة التى لا تتقيد بعرف ولا تخضع لنظام .

فقد مر بنا أن آل بويه كانوا مستبدين ظالمين ، لا يأبهون لحقوق

---

(١) اليتيمة ٢ : ٢٩١ (٢) ابن الأثير ٧ : ٣٢٤

رعيتهم ، وأنهم كانوا فرسا قد أفصحوا عن ميولهم الفارسية فشجعوا العادات والنزعات الآرية القديمة ، وأنهم كانوا شيعة غلاة فنصروا المذهب الشيعي وما داخله من آراء وأفكار لا تتصل بالإسلام من قريب أو بعيد ، فكان لذلك كله أثر واضح فى الحياة الأدبية سلبا وإيجابا حيث ازدهر الأدب الذى يناصر سياستهم ويؤيدها ، كما ازدهر الأدب الذى يقاومها ويخذلها ، نلاحظ ذلك فى هذه التيارات الأدبية المتناقضة التى قويت واشتدت فى عهدهم كالأدب « الرسمى » والأدب الشيعى والأدب الذى يصور النزعات الفارسية ، ثم الأدب الذى كان رد فعل لهذه الآداب جميعاً ، حيث وقف كثير من الأدباء من السياسة البويهية موقفا عدائيا ، فأنشأوا أدبا مناقضا لكل نوع من الأنواع الأدبية سالفة الذكر .

هذا ولما كان غرضنا بيان مدى أثر السياسة البويهية فى الأدب ، آثرنا أن نلم بكل من هذه التيارات الأدبية وما يناقضه على انفراد ، متوخين فى ذلك الإيجاز وعدم الإخلال على قدر الإمكان .

الفصل الثالث

الأدب الرسمى

قلنا فيما تقدم إن آل بويه قد استخدموا — كغيرهم من الساسة — أبرع الكتاب فى مناصب الدولة المهمة ، وقربوا إليهم أعظم الشعراء للأسباب التى ألممنا بها قبل قليل ، فكان من اليسير عليهم أن يوجهوا الأدب إلى حيث يشاءون وأن يستخدموه فى أغراضهم الخاصة كما يحبون ، فيتسم بطابعهم ويصور حياتهم مسبغاً عليها من الظلال ما هى براء منه ، ومضيفاً إليها ما ليس لها .

ذلك أنهم أوحوا إلى الكتاب والشعراء والعلماء أن يقولوا أو يكتبوا كل ما من شأنه أن يؤيد سياستهم الجائرة ويضفى على حكمهم الغاشم من المزايا والصفات ما يجعل الظلم عدلا والباطل حقاً والفقر غنى والظلام نوراً ، وتلك سنة جرت عليها السياسة وما تزال تجرى عليها حتى فى هذا العصر الذى يدعونه عصر الحرية والنور .

أما الشعب الذى ذاق الأمرين فى عهدهم فإنه لم يقف من هذه المهازل مكتوف اليد، معقود اللسان ، بل حاول أن يرد الهجوم بهجوم مثله، فأفصح عن سخطه العنيف على سياسة الدولة وبغضه الشديد لرجالها على ألسنة أدبائه شعراً ونثراً وحديثاً تذيع كلها بين الناس وتشيع .

وإذن فنحن الآن أمام خصمين : حاكم ومحكوم ، ظالم ومظلوم ، حكومة قادرة وشعب أعزل ، كلاهما كان يدفع عن نفسه ، وكلاهما كان

يتخذ من الأدب وسيلة فى هذا الدفاع . ذلك أن الأدب كان خير وسيلة يلجأ إليها القوى الظالم فى إزالة ما علق فى نفوس الناس من آثار ظلمه وطغيانه، كما أنه كان خير وسيلة يمكن أن يتخذها المظلوم، المغلوب على أمره للتعبير عن آلامه وأحزانه ...

ومهما يكن فإن هذين الموقفين المتناقضين : موقف الحكومة، وموقف الشعب ، قد أنتجا نوعين من الأدب : أولهما أدب رسمى ، يصدر عن بلاط الملك أو قصر الوزير فيمتدح الملوك والوزراء ورجال الدولة ، وثانيهما أدب يصدر عن أبناء الشعب فيصور سخطهم ونقمتهم على الأوضاع القائمة.

أما الأدب الرسمى فإنه يتمثل فى نوعين قديمين من الأدب هما : «الرسائل الديوانية» و«شعر المديح» ، فرسائل الصابى ، ورسائل الصاحب ، ورسائل عبدالعزيز بن يوسف وغيرهم ، وهذه الكثرة الهائلة من شعر المديح ، كل أولئك قد تأثر بالحياة السياسية وخضع لها ، فصورها بصورة مشرقة لامعة تخطف الأبصار ، ولولا ما كتبه الكتاب وأنشأه الشعراء الآخرون من أبناء الأمة فى نقد الحكم وتصوير المظالم لأخطأنا الصواب وحكمنا على الدولة البويهية بما لا يتفق والحق .

فالصاحب بن عباد حين يكتب إلى أميره فى « البشائر والفتوح » يسبغ عليه من السجايا والصفات ما يجعله مثلا أعلى بين الأمراء. وهو حين يكتب إلى العمال والقضاة والمحتسبين فى « وصاياه وعهوده » يشحنها بالأوامر والنواهى، يعيد إلى أذهاننا فكرة المدينة الفاضلة التى تحدث عنها الفلاسفة. وما هكذا قال المؤرخون ، ولا تحدثوا بشىء من ذلك .

ولكن لماذا لا نقتطف من رسائل الصاحب ما يغنينا عن الوصف ، فها هو يقول فى إحدى رسائله : (١)

---

(١) رسائل الصاحب المخطوطة بدار الكتب المصرية .

« ... فتلك النعمة عند مولانا الملك السيد إذ عضد الدولة وتوج الملة وحرس الأمة ، وزحزح الغمة ، ورفد الخلافة ، وبسط العدل والرأفة ، وطهر البلاد ، وعمر الحج والجهاد ، وساس الجمهور ، وسد الثغور ، وشهدت فتوحه بأنه مؤيد من عند الله ومحوط بيد الآله . »

ثم يصف المعركة التي دارت بين جيش الأمير وجيش عدوه فيقول :

« ... وشمرت الحرب عن ساقها وتنمرت بجمرة أقداحها ، ودارت كأس الموت دهاقاً ، وعاد لقاء القرن للقرن عناقاً ، فكثرنا المدابير بالديلم زرقاً وبالغلمان رشقاً وملك عليهم الخندق بعد أن جعل قتلاهم معابر وجرحاهم قناطر ، فما انتصف النهار إلا وقد انتصف الله للحق من الباطل ، وكنفنا بالأيد القاهر والنصر الشامل واقتسمت المخاذيل الهزيمة بين قتلى أجروا من دمائهم الجداول وأسرى استنفدوا الكبول والحبائل ... »

ويقول فى عهوده ما ملخصه :

هذا ما عهد مؤيد الدولة مولى أمير المؤمنين إلى عبدالجبار حين ولاه قضاء القضاء :

أمره بتقوى الله ومراقبته. وأمره أن يجعل القرآن قبلة مساعيه ووجهة مطالبه ومباغيه ، وأن يتخذ سنة رسول الله (ص) ويرضى بها مراداً ومنتجعاً ، وأن يواصل النظر بين الخصوم والأخذ من الظالم للمظلوم دون تفريق بين غنى وفقير وقوى وضعيف فالكل عباد الله .

وأمره بإقامة الحدود على مستحقيها وبالاحتياط على الوقوف ورعاية العباد ومطالعة أحوال السكك وتزويج الأيامى ، والاحتياط على أموال اليتامى ، وإقامة الصلاة وإشاعة العدل بين الرعية ، وإجراء الخراج والمعاملات على شروطها المقننة ، وتطهير الطرق من أهل العيث والفساد. الخ .

وأما الصابى حين يكتب مناشيره على لسان الطائع فإنه يردد نفس النغمة التى رددها الصاحب فى رسائله إذ يقول : (١)

« . . . وأمره - يعنى الأمير - أن يرفع عن الرعية ما شرعه أشرار العمال من سنن الظلم وسير الغشم وأحدثوه من الرسوم الباطلة وطرقوه من المعاملات الجائرة . »

وحين يقول أيضاً فى رسالة أخرى : (٢)

« . . . وأمره بأن يولى الأحداث أهل العقل والدعة والضبط والعفة وأن يوعز إليهم بترك المحاباة والمراقبة والإعراض عن المسألة والشفاعة ، والتشدد على أهل الريب حتى لا يظهر منهم منكر ولا يوقف لهم على فاحشة وأن يبطل الحانات والمواخير ويحظر أبداً الملاهى والخمور ويمنع من سائر المناكير ويوزع عنها بالحدود والتعزير لئلا تباح المحرمات وتضاع الصلوات وتقترف السيئات وترتكب المحظورات . »

وأما عبد العزيز بن يوسف فإنه حين يكتب عن عضد الدولة فى عود الطائع الى بغداد فإنه يعكس الحقيقة ويقلب الأوضاع فيجعل السيد مسوداً ، والآسر أسيراً إذ يقول : (٣)

« ولما ورد أمير المؤمنين النهروان ، أنعم بالإذن فى تلقيه على الماء فامتثلناه وتقبلناه . . . إلى أن وصلنا إلى حضرته البهية شرفها الله تعالى فى الحديدية التى استقلت منه سليل النبوة وقعيد الخـــلافة وسيد الأنام والمستنزل بوجهه درر الغمام . » وهكذا يمضى فى هذا البهتان حتى آخر الرسالة .

---

(١) رسائل الصابى ص ١٢٨ (٢) المصدر السابق ص ١٢٦

(٣) اليتيمة ٢ : ٨٨

تلك نماذج قصيرة قد اخترناها من الرسائل الديوانية الكثيرة التي أوحت بها الأحوال السياسية ورغبات الملوك يومئذ ، وهي - دون شك - تلقي في روع القارىء أول وهلة أن حكومة ذلك العهد قد حققت للناس سعادة الدنيا والآخرة ، ولكن الحقيقة التي لا شك فيها هي أن ما حوته هذه الرسائل الرسمية من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، ودعوة إلى إقامة العدل بين الرعية ومكافحة العيث والفساد في البلاد وما أشبه ذلك من أسس الحكم الصالح ، لم يكن إلا حبراً على ورق وإلا وسيلة من وسائل التضليل والتدجيل التي يلجأ إليها الطغاة في تثبيت سلطانهم وإقامة هيبتهم في نفوس العامة السذج .

لا نريد الآن أن نأتي بالأدلة التاريخية لاثبات صحة هذه الدعوى، فالذي قدمناه منها فيه الكفاية ، وإنما نريد أن نذكر هنا فقرتين اخترناهما من رسائل الصابي التي كتبها عن المطيع والطائع في عز الدولة لنرى كيف تتأثر مثل هذه الرسائل الرسمية بالأحوال السياسية وكيف يتأثر منشئوها برغبات الملوك وقوتهم وضعفهم . فعز الدولة في رسائل الصابي ملك صالح كأصلح ما يكون الملوك سيرة بدليل ما ورد في كتاب عن المطيع لله من إطراء لعز الدولة وإشادة بمحامده وحسن بلائه في خدمة أمير المؤمنين وخدمة الدولة وذلك حين يقول الصابي : (١)

« وخدم أمير المؤمنين في مهمه أوفى خدمة وأشفاها لا يدخره نصحاً ولا يألوه جهداً في ضبط الثغور وسدها ورم الأمور وشدها وترتيب الأحراس بمراكزها وتسريب البعوث في مقاصدها ومجاهدة الكفار ومقارعتها ومناضلة الأعداء ومدافعتها وإصلاح البلاد وعمارتها ورعاية

---

(١) رسائل الصابي ص ٤٧

الرعية وسياستها ، يسافر رأيه وهو دان لم يبرح وبسير تدبيره وهو ثاو لم ينزح . . . »

وهو - أى بختيار - حينما دالت دولته وتغلب عليه خصمه قد أصبح ملكاً سيء السيرة فاسد الطريقة كأسوأ وأفسد ما يكون الملوك سيرة وطريقة . بدليل ما جاء فى كتاب كتبه الصابى عن الطائع لله عند غلبة عضد الدولة وذهاب عز الدولة إلى كل واحد من ولاة الأطراف سنة ٣٦٧ وذلك حين يقول : (١)

« . . . فما زال بختيار يسيء الاختيار ويتنكب الصواب ويتجنب الإصلاح ويمزق الأموال ويعرض الدولة للزوال ويهرج الأولياء أشد الإهراج ويحملهم على أعوج المنهاج ويخرب الأوطان ويشتت الأقران ويقتل الكفاة ويستكفى الغواة إلى أن بلغ من فاسد سيرته وضال طريقته إلى أن استكتب محمد بن بقية المحيط بكل خلة دنية ... الخ. »

وواضح مما تقدم أن الصابى فى رسائله الرسمية كان خاضعاً للظروف السياسية يميل معها حيث تميل ، وكان واقفاً قلمه ومواهبه الفنية لخدمة الأقوياء من الملوك ، يؤيد سياستهم وينفذ رغباتهم عن طريق الأدب . أريد أن أقول إنه كان أجيراً مخلصاً لأسياده ، مطيعاً لهم كهؤلاء الأجراء الذين تستخدمهم الحكومات المعاصرة فى مؤسسات الدعاية ، ودور الصحافة ، ومحطات الإذاعة ليضللوا الناس عن الواقع القاسى ويخدعوهم عن أنفسهم ويلقوا فى روعهم أنهم فى رعاية حكام صالحين وسياسة رشيدة ، وأنهم يعيشون فى عهد زاهر سعيد .

على أن الصابى لم يكن الكاتب الرسمى الوحيد الذى استوحى الأحوال

---

(١) رسائل الصابى ص ١٨٥ ، ١٨٦

السياسية وتأثر بها فى كتاباته ، بل شاركه فى ذلك كتاب الرسائل الديوانية جميعاً ، ذلك أن وصول الكاتب إلى أسمى الدرجات فى الدولة كان منوطاً بملكته البلاغية وبقدرته على استغلال هذه الملكة فى خدمة الدولة وأغراضها إلى أبعد حدود الاستغلال ، ولهذا كان الأدباء يتنافسون ويستبقون فى هذا المضمار ، فلا يصل أحد منهم إلى مبتغاه إلا إذا كان فارساً سباقاً .

وإذا تذكرنا ما كان من حاجة رجال السياسة الملحة إلى الأدب ، وما كان من رغبة الأدباء الشديدة فى الوصول إلى المناصب الكبرى والحصول على المال استطعنا أن ندرك مدى أثر الحالة السياسية فى ازدهار هذا الأدب الرسمى فى قصور الملوك والوزراء ، وفى ظهور أعظم كتاب الرسائل الديوانية فى اللغة العربية على الإطلاق فى هذا العصر .

* * *

أما الشعراء فقد أكثروا من شعر المديح على نحو لم يسبق له نظير ، إذ كانوا يتنقلون بين العواصم ويحتشدون حول الملوك والوزراء يمدحونهم بالعدل والحزم وبالشجاعة والكرم وضبط الأمور ، وهم يعلمون أن هؤلاء الممدوحين لم يكونوا من العدل والحزم وضبط الامور فى شىء ، وإنما فعلوا ذلك تقربا إليهم وأملا فى الحظوة لديهم ، وطمعا بالمال الذى تجمع فى خزائنهم .

لقد كان هؤلاء الشعراء باعة متجولين يبيعون الشعر فى أسواق المديح فاذا راج وارتفع سعره تفتحت قرائحهم وكثر إنتاجهم ، وإذا كسد وانخفض ثمنه تراجع طبعهم وقل إنتاجهم . فالسلامى حينما اختص بخدمة عضد الدولة فى مقامه وظعنه إلى العراق . وتوفر حظه من صلاته وخلعه

سير فيه عيون شعره حتى إن عضد الدولة كان يقول : إذا رأيت السلامي في مجلس ظننت أن عطارد نزل من الفلك إلى ووقف بين يدى » ، ولكنه حينما توفى عضد الدولة تراجع طبعه ورقت حاله ، ثم ما زالت تتماسك مرة وتتداعى أخرى حتى انتقل إلى جوار ربه .(١)

وإذ كان الشاعر فى مثل هذه المواقف لا يشعر لنفسه ولا لعواطفه جارى الشعراء فى هذا العصر ممدوحيهم فى رغباتهم ونزعاتهم الغالية ، فغلوا فى معانيهم وأسرفوا فى الغلو وزيفوا فى عواطفهم ما شاء لهم التزييف إرضاء لهؤلاء الممدوحين الذين كانوا يحبون أن يظهروا بمظهر العظمة والجلال دون أن يكون لهم من أدواتهما شيء ، ولهذا لجأ الشعراء إلى استعمال الاستعارات والمجازات البعيدة ، وإلى اللعب بالألفاظ ، والدعوات العريضة ، كقول البديع فى صاحب الجيش: (٢)

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكبا لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا
يا من يراه ملوك الأرض فوقهم كما يرون على أبراجها الشهبا

وقول الرستمى فى مؤيد الدولة: (٣)

أيا ملكا فاق الملوك وبذهم فراح سنانا والملوك عوامل
ينير الدجى من وجهه وهو حالك ويندى الثرى من كفه وهو ماحل
وذو لحظات كلهن فواضل وذو حركات كلهن فضائل
دهاء لديه رأى أكثم فائل وجود لديه حاتم الجود باخل
وحلم لديه ركن يذبل ذابل وعزم لديه فارس الخطب راجل

---

(١) اليتيمة ٢ : ١٦٣ (٢) ديوان البديع ص ٥
(٣) اليتيمة ٣ : ١٣٢

وقول ابن بابك فى الصاحب بن عباد : (١)

مرقت منها وثغر الصبح مبتسم إلى أغر يرى المذخور ما وهبا
ذو غرة كجبين الشمس لو برقت فى صفحة الليل للحرباء لانتصبا
يا أغزر النـاس أنواء ومحتلبـا وأشرف الناس أعراقا ومنتسبا
أصبحت ذا ثقة بالوفر منك وإن قال العواذل ظن ربما كذبا
إن المنى ضمنت عنك الغنى فأجب فالبحر يمنح فضل الرى من شربا
فحسن ظنى بك استوفى مدى أملى وحسن رأيك لى لم يبق لى أدبا

وهكذا كان الشعراء جنوداً مرتزقة كهؤلاء الجند يأتمرون بأمر سادتهم من ولاة الأمور فيمدحونهم ويغلون فى مدحهم، ويلبون رغباتهم حتى ولو كانت تافهة ، وأى شىء أتفه من رغبة الصاحب فى رثاء برذون أبى عيسى ، إذ أمر شعراءه أن يرثوه ويعزوا صاحبه ، فاستجابوا لرغبته ، وحبروا فى رثاء هذا البرذون قصائد طويلة زاخرة بالمعانى والعواطف التى تضحك الثكلى ؟ ! . من ذلك قول أبى القاسم بن أبى العلاء: (٢)

عزاء وإن كان المصاب جليلا وصبراً وإن لم يغن عنك فتيلا
وخفض أبا عيسى عليك ولا تفض دموعا وإن كان البكاء جميلا
وراجع حجاك الثبت لا يغلب الأسى أساك وإن حملت منه ثقيلا

إلى أن يقول :

بكته جلال الخز وانتحبت له مخالى حرير رحن منه عطولا
أقام عليــه آل عوج مأتماً وأعلى له آل الوجيه عويلا
ففى كل اصطبل أنين وزفرة تردد فيــه بكرة وأصــيلا

---

(١) اليتيمة ٣ : ١٩٦ (٢) نفس المصدر ٣ : ٥٧

وأخيراً نستطيع أن نقول إن هذه الظاهرة الأدبية التى تجلت فى ازدهار الأدب الرسمى من رسائل ديوانية ومديح ما هى إلا أثر من آثار السياسة البويهية التى سخرت الأدب فى خدمة أغراضها ، وترويج دعايتها وتثبيت سلطانها .

* * *

أما إذا جاوزنا هذا الأدب الرسمى الذى كان يستمد مادته من الأباطيل المنمقة والأكاذيب الملفقة غالباً فيصور الحالة السياسية والإدارية فى عهد بنى بويه تصويراً يجافى الحق والواقع ، أقول إذا جاوزنا هذا الأدب إلى غيره ظهرت لنا الحقائق العارية من كل طلاء وتمويه ، مجسمة فى هـــذا الأسى الشديد لما أصاب الخلفاء على يد بنى بويه من قبض ومصادرة ، وفى هذه الشكوى المرة من جور حكامهم وقضاتهم ، وفى هذا النقد اللاذع لسيرة عمالهم وجباتهم .

كل ذلك كان صدى لفساد أداة الحكم فى دولتهم ، وكل ذلك أيضاً كان رد فعل ومناقضة لأدبائهم الرسميين .

فقد كان آل بويه جشعين ، يحبون المال حباً جماً ، لهذا سلكوا فى جمعه والوصول إليه أوعر السبل وأشدها عسفاً وظلماً ، فلم يسلم من أيديهم تاجر ولا وزير ولا خليفة ، فقد صادروا وزراءهم أحياءاً وأمواتا ، وامتدت أيديهم إلى الخلفاء فصادروهم ، صادروا المطيع والطائع ونهبوا دار الخلافة .

قال ابن الأثير : « فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير فلما أدخل قبل الأرض وجلس على كرسى ، فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول: إنا لله وإنا اليه راجعون، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه، وأخذ ما فى دار الخليفة من الذخائر فمشوا به فى الحال، ونهب

الناس بعضهم بعضا » .

وكان الشريف الرضى حاضراً فى هذه الحادثة فسجلها فى شعره ، إذ قال :

من بعد ما كان رب الملك مبتسماً إلى أدنيه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطة لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى ياقرب ما كان بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانية قد ضل ولاج أبواب السلاطين

وقد بلغ من جشع آل بويه أنهم ضمنوا القضاء والحسبة والشرطة لقاء مال يتقاضونه من هؤلاء المضمنين كل عام ·

قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٥٠ : « تولى قضاء القضاء أبو العباس ابن عبد الله بن أبى الشوارب وضمن أن يؤدى كل سنة مئتى ألف درهم ، وهو أول من ضمن القضاء ، وكان ذلك أيام معز الدولة ولم يسمع بذلك قبله ، فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول عليه وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء ، ثم ضمنت بعده الحسبة والشرطة ببغداد » (١)

ومن الطبيعى أن ينال الناس من أمثال هؤلاء القضاة والحكام حيف شديد فيتذمروا ويستغيثوا ، ومن الطبيعى ايضاً أن تظهر آثار هذا التذمر وهذه الاستغاثة فى الأدب .

فهذا أبو بكر الخوارزمى يصف لنا فى إحدى رسائله سوء سيرة حاكم فيقول : (١)

« فما زال يفتح علينا أبواب المظالم ويحتلب فينا ضرع الدنانير والدراهم ويسير فى بلادنا سيرة لا يسيرها السنور فى الفار ، ولا يستخيرها المسلمون

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٦٠ (٢) رسائل الخوارزمى ص٦٦

فى الكفار ، حتى افتقر الأغنياء وانكشف الفقراء ، وحتى ترك الدهقان ضيعته وجحد صاحب الغلة غلته وحتى نشف الزرع والضرع ، وأهلك الحرث والنسل ، وحتى أخرب البلاد بل أخرب العباد ، وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا وحبب الفقر إلى أهل الغنى . . . وصار الأمن فى أعماله أعز من السداد فى أفعاله . . . والله ما الذئب فى الغنم بالقياس إليه إلا من المصلحين ولا السوس فى الخز فى الصيف عنده إلا من المحسنين . . . فإن كنا به معاقبين فقد تنقضى مدة العقاب وتختم صيحة العذاب » .

أما البديع فقد أرسلها صرخة استغاثة مدوية من الأعماق حين كتب فى وصف أحد القضاة ، فقال : (١)

« . . . يالثارات القضاء ، ما أرخص ما بيع ، وأسرع ما أضيع ! . . . ياللرجال ! وأين الرجال ؟ ولى القضاء من لا يملك من آلاته غير السبال ولا يعرف من أدواته غير الاختزال . . . وما رأيك فى سوس لا يقع إلا فى صوف الأيتام وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب إلا على خزانة الأوقاف وكردى لا يغير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ؟ وما زلت أبغض حال القضاة طبعاً وجبلة حتى أبغضتهم دينا وملة . . . » .

وكذلك أكثر الشعراء من نقد الحكام والقضاة والملوك وهجائهم ، فمن ذلك قول ابن سكرة الهاشمى فى هجاء أبى السائب القاضى : (٢)

إن شئت أن تبصر أعجوبة ... من جور أحكام أبى السائب
فاعمد من الليل إلى صرة ... وقرر الأمر مع الحاجب
حتى ترى مروان يقضى له ... على علىّ بن أبى طالب

(١) رسائل البديع ص ١٦١ والمقامات ص ٢٠٧ (٢) المنتظم ٧ : ١٨٦

وقوله أيضا فى هجاء القاضى الحسين بن محمد المطلبى : [١]

ولقد جنى قاضى القضا ة حسين نجل أبى الشوارب
هذا الذى هتك الشرا ئع بالبدائع والمثالب
هذا المضمر للفرو ج وللدماء بغير راكب

ومن ذلك قول أبى الفرج على بن هندو فى هجاء ملك : [٢]

لنا ملك ما فيه للملك آلة سوى أنه يوم السلام متوج
أقيم لإصلاح الورى وهو فاسد وكيف أستواء الظل والعود أعوج ؟ !

وقول ابن لنكك البصرى :

أوما رأيت ملوك عصرك أصبحوا
يتجملون بكل قاض أحمق ؟

وكانت طريقة استخراج الأموال من الناس تعتمد على استعمال الوسائل القاسية كالقيود الحديدية الثقيلة فى الأرجل ، والضرب المتلف والتعليق من اليد الواحدة ، وغرز أطراف القصب فى الأظافر ، وقد يمعن المطالبون فى التعذيب فيلبسون المعذبين جبة من صوف مدهون بالنفط أو بماء الأكارع ، أو يضعون على بطونهم أطسات الجمر ...

وقد ظهرت آثار هذه المظالم الوحشية فى الأدب فصورها الأدباء فى شعرهم . ولعل قصيدة أبى سعيد الرستمى هى خير ما يصور هذا الجانب من جوانب السياسة البويهية ، ولذلك آثرنا أن ننقل منها هذه الأبيات: [٣]

لولا زمان أزمنت حالى له نوب ترواح تارة وتغادى
وأذى فراخ ضاق بى أوكارها وكذا البغاث كثيرة الأولاد

---

(١) الولاة للكندى ص ٥٤٦ (٢) خاص الخاص ص ١٦٧
(٣) اليتيمة ٣ : ١٣٧ - ١٣٨

وأذى خراج لو سرى لأدائه ... غرر الليالى عدن وهى دآدى (١)
أبدت نجوم الليل سود نجومه ... فى مفرقى فأنار بعد سواد
لى حصة حصت جوانب هامتى ... صفعا أوافقه من المستادى (٢)
ووفود سوء يألفون زيارتى ... من صادر أو رائح أو غادى
رجالة متـرادفون كأنما ... غصت مدارجهم برجل جراد (٣)
من كل منتفش الشوارب مسمع ... عبد لآل ربيعة أو عاد
صهب اللحى سود الوجوه كأنما ... خضبوا الرؤوس بيانع الفرصاد (٤)
ما غاب عنى واحد إلا ويقـ ... ـفو إثره ثان وآخر بادى
هذا يواجه شاربى متهددا ... ويقوم هذا من وراء العادى
ففرائصى من خوفهم مملوءة ... أبداً من الإخفاق والإرعاد
وإذا أصادر غدوة لم يرتفع ... عند المساء سواى فى الأوراد
ما فى يد النقاد من ضربى سوى ... ضربى ودق الجيد دون جياد

ثم يقول فى آخرها مخاطبا الصاحب:

فامنن على بفضل جودك واكفنى ... دار الخراج وجهمة الحداد

أما اضطراب الأمن وانتشار أهل العيث والفساد فى البلاد فنترك تصويره للهمذانى وحده إذ قال فى إحدى رسائله: « ولولا اختلاف السيوف والتقاء الجموع ، واضطراب الجيوش ، واختلال الأمور ، وفساد الطريق ، وتصاول الملوك وما يتبع هذه الأحوال من الأهوال لاستقبلته بنفسى مئة فرسخ وبأصحابى مثله ، لكن العوائق ظاهرة ... إن الأمر على ما وصفت ولا

---

(١) الدآدى جمع الدأداة وهى الشديدة المظلمة من الليالى .
(٢) الحصة النصيب وحصت الشعر حلقته
(٣) الرجل وجمعها أرجال القطعة العظيمة من الجراد خاصة
(٤) الفرصاد صبغ أحمر.

آمن — إن خرجت — عينا تطرق بسوء ويداً تمتد بشر .»[١]

ومما زاد الإدارة فى عهد بنى بويه سوءاً على سوء كثرة التولية والعزل. من ذلك ما ذكره الثعالبى: أن أحد الوزراء قلد ابن الحجاج ناحية، فخرج إليها يوم الخميس وتبعه كتاب الصرف يوم الأحد فقال :[٢]

يامن إذا نظر الهلا ... ل إلى محاسنه سجد
وإذا رأته الشمس كا ... دت أن تموت من الحسد
يوم الخميس بعثتنى ... وصرفتنى يوم الأحد
والناس غنوا على كما ... رجعت إلى البلد
ما قام عمر فى الولا ... ية ساعة حتى قعد

* * *

يتضح لنا مما تقدم مدى أثر السياسة البويهية فى الأدب سلبا وإيجابا، كما يتضح لنا أيضا نجاح هذا الأدب فى تصويره هذا الأثر تصويراً قويا.

(١) رسائل الهمذانى ص ٤٦٣ (٢) يتيمة الدهر ٢ : ٢٥٥

الفصل الرابع

أثر الروح الفارسى

فى الأدب العربى

إن الأمة الفارسية - ككل أمة - كان لها تراث روحى يتمثل فى هذه العادات والتقاليد والأخلاق التى مارستها، وفى هذه الديانة ونظم الحكم التى خضعت لها، ولما كان مثل هذا التراث الروحى وثيق الصلة بحياة الأمم النفسية، أصبح من العسير عليها أن تتخلى عنه بين عشية وضحاها، لهذا نراها بعد أن غلبت على أمرها فى صدر الإسلام تحاول جهد استطاعتها أن تفصح عن تراثها الروحى فى ظل الإسلام، بحيث تسنى لها أن تلون الحياة السياسية والاجتماعية - لاسيما فى عهد بنى العباس - بألوان واضحة كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

بيد أن خضوع المجتمع للنفوذ العربى كان يحد من نشاط الفرس ويحول بينهم وبين ممارسة ذلك التراث القومى القديم كما يحبون، فلما استردوا سلطانهم السياسى والاجتماعى فى القرن الرابع تهيأ لهم أن يعبروا عن ميولهم ورغباتهم بحرية كاملة.

ولقد ظهر ذلك فى ميلهم إلى إحياء الرسوم الفارسية القديمة فى الحكم كتقديس الملوك وتأليههم لاعتقادهم بأن «الملك ملهم يستمد أحكامه من الآله (١)»، وفى حبهم الفخفخة والأبهة، وإحاطة أنفسهم بمظاهر العظمة والإجلال، لهذا تلقب ملوكهم بأضخم الألقاب التى تشعر بالتجرؤ على مقام الألوهية (٢). ثم تبعهم فى ذلك رجال الدولة فتهافتوا على الألقاب

(١) قصة الحضارة الفارسية ص ٢٩ (٢) الحضارة الإسلامية ١ : ٤٢

تهافتاً شديداً ، مما حمل الخوارزمى على أن يقول فى ذلك أبياته المعروفة :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا ... من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم ... ما كان يرضى به للحش بوابا (١)
قل الدراهم فى كفى خليفتنا ... هذا فأنفق فى الأقوام ألقابا

وظهر ذلك أيضاً فى إحيائهم ليلة الوقود التى تعرف بالسذق ، وفى تشجيعهم الأعياد الفارسية التى تسربت إلى المجتمع الإسلامى قبل هذا العصر .

فقد أصبح من رسوم ملوكهم فى ليلة الوقود أن يوقدوا النيران ويؤججوها ويرسلوا الوحوش فيها ، ويطيروا الطيور فى لهيبها ، ويشربوا ويتلهوا حولها ، وكانت أشهر ليلة وقود فى القرن الرابع عام ٣٢٣ ، ففى هذا العام أمر مرداويج الفارسى ، فجمعت له الأحطاب من الجبال والنواحى البعيدة وأعدت الشموع العظام وعمل بمجلسه الخاص تماثيل وأساطين كبيرة من الشمع ، وحشد على رؤس الجبال واليفاعات ما لم تجر العادة بمثله ، فلما خرج وطاف بذلك استحقره كله واستصغره (٢) . . . ثم أصبح الاحتفال بهذه الليلة عادة لمن جاء بعده من الملوك والأمراء .

كل ذلك قد تأثر به الأدباء فانعكس أثره فى إنتاجهم الأدبى . فنحن إذ نقرأ الآثار الأدبية التى أنتجها أدباء هذا العصر نلمس فيها آثار الروح الفارسى واضحة كل الوضوح ، نلمسها واضحة فى هذا الغلو الذى ساد شعر المديح وشعر الرثاء مثلا ، وفى هذا الإكثار من شعر التهانى بالأعياد الفارسية ووصفها ، وأخيراً فى هذه النزعة الفارسية التى ظهرت فى شعر شاعر

(١) الحش : البستان

(٢) الحضارة الإسلامية ٢: ٣٣

كمهيار الديلمى الفارسى .

لقد كان الشعراء فى هذا العصر يغلون ويسرفون فى الغلو حينما يمدحون ويرثون ، وهم فى غلوهم هذا إنما كانوا يستوحون النزعات المتطرفة عند الملوك والأمراء والوزراء ، ولهذا نراهم يحاولون جهد المستطاع أن يرضوا ممدوحيهم بضروب من المعانى والصفات الغالية ، وبخاصة تلك التى تجعل منهم أشخاصاً فوق مستوى البشر .

فالصابى حين يمدح عضد الدولة ، تضيق به اللغة ، ألفاظها ومعانيها ، فلا يجد أمامه متسعاً من القول إلا القرآن الكريم يغير على ألفاظه ومعانيه فينظمها مديحا لمولاه : (١)

صل ياذا العلا لربك وانحر ... كل ضد وشانىء لك أبتر

أنت أعلى من أن تكون أضاحيـ ... ـك قروما من الجمال تعفر

بل قروما من الملوك ذوى السؤ ... دد تيجانها أمامك تنثر

كلما خر ساجداً لك رأس ... منهم قال سيفك : الله أكبر !

إنه لكلام اقتبس من كلام الله مبنى ومعنى ، وإنه لكلام يرضى نزعة عضد الدولة إلى الطغيان والجبروت ، إذ يرفعه فوق البشر فيجعل منه شبيها للنبى الكريم ، بل شبيها الله عز وجل حين تخر له هذه الرؤس سجداً وحين ينطق هذا السيف الله أكبر !

وليس هذا بالأمر الغريب فعضد الدولة نفسه يقول : إنه ملك الأملاك وإنه فاق البشر ، وإنه غلاب القدر أيضا .

قال الثعالبى : « واخترت من قصيدته التى فيها البيت الذى لم يفلح بعده أبداً قوله . » (٢)

---

(١) اليتيمة ٢ : ٥٦ (٢) نفس المصدر ٢ : ٤

ليس شرب الكأس إلا فى المطر وغناء من جوار فى السحر
غانيات سالبات للنهى ناغمات فى تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر

وإذا كان الصابى قد شبه ممدوحه بالنبي مرة ، وبالآله أخرى تشبيها فإن أبا القاسم الزعفرانى قد ادعى لممدوحه الربوبية ، فدان له بالسجود وأحله من قلبه مكانا لا يشاركه فيه أحد وذلك حين يقول : (١)

يا سامع الزور فىّ لى ذمم منها الضنى فى هواك والسقم
أنت الذى دنت بالسجود له حتى لقد قيل ربه صنم
ولى فؤاد غدوت مالكه بلا شريك فليس ينقسم

وقد يطول بنا الكلام إذا نحن استرسلنا فى ضرب الأمثال فهى أكثر من أن تحصى ، ولكننا نكتفى بمثلين اثنين مما أنتجته مدرسة الصاحب التى كانت أشد المدارس الأدبية ميلا إلى الغلو والمبالغات .

الأول فى مدح الصاحب حين بنى داره وهو من قصيدة أبى سعيد الرستمى: (٢)

ولو أصبحت داراً لك الأرض كلها لضاقت بمن ينتاب دراك آملا
عقدت على الدنيا جداراً فحزتها جميعا ولم تترك لغيرك طائلا
وأغنى الورى عن منزل من بنت له معاليه فوق الشعريين منازلا
ولا غرو أن يستحدث الليث بالشرى عرينا وأن يستطرف البحر ساحلا
ولم يعتمد داراً سوى حومة الوغى ولا خدما إلا القنا والقنابلا (٣)

---

(١) يتيمة الدهر ٣ : ١٧٢ (٢) يتيمة الدهر ٣ : ٤٨
(٣) القنابل الطوائف من الخيل

ولا حاجبا إلا حساما مهنـــداً ولا عاملا إلا سنانا وعاملا
ووالله ما أرضى لك الدهر خادماً ولا البدر منتابا ولا البحر نائلا
ولا الفلك الدوار داراً ولا الورى عبيداً ولا زهر النجوم قبائلا

والثانى فى رثاء الصاحب ، وهو من قصيدة أبى القاسم بن أبى العلاء الأصبهانى ، إذ يقول فيها :

يا كافى الملك ما وفيت حظك من وصف وإن طال تأمين وتمجيد
فت الصفات فما يرثيك من أحــــد إلا وتزيينه إياك تهجـــين
ما مت وحدك لكن مات من ولدت حواء طراً بل الدنيا بل الدين
هذى نواعى العلا مذ مت نادبة من بعد ما ندبتك الخرد العين
تبكى عليك العطايا والصلات كما تبكى عليك الرعايا والسلاطين
قام السعاة وكان الخوف أقعدهم فاستيقظوا بعد ما مت الملاعين
لا يعجب الناس منهم إن هم انتشروا
مضى سليمان وانحل الشياطين

قال الثعالبى : « ما أحسن هذا المثل وأمكن موقعه ! »

وكما تأثر الأدباء بالميول الفارسية المتطرفة كذلك تأثروا بالأعياد الفارسية فأكثروا من تهنئة الملوك والوزراء والوجهاء بها ، فمن ذلك قول عبد العزيز ابن يوسف من عضدية :

أسعد بوافد نيروز تقابله باليمن والعز والتأييد والجذل
واستأنف العيش مسروراً تجدته فى ظل عز ـ مدى الأيام ـ متصل

على أن ليلة الوقود كانت أحب هذه الأعياد إلى قلوبهم وآثرها عندهم ، فقد فتنتهم مناظر نيرانها المتأججة وسط الظلام ، يتعالى دخانها ، ويتطاير شررها فى الفضاء وتصطخب حولها الملاهى ويكثر الضجيج ، فأكثرو

من وصفها ومن وصف الطبيعة فى جوها ، فالسلامى قد أعجب بهذه النار واستولى عليه هذا الإعجاب حتى حبب إليه عذاب النار ، وحتى أقسم أن يجعل أنفس أعضائه وقوداً لها إذا ما خبت :[١]

ما زلت أشتاق ناراً أوقدت لهما حتى ظننت عذاب النار قد عذبا
يعلو الدخان بسود من ذوائبها قد عط فيها قناع التبر واستلبا[٢]
قد كللت عنبراً بالمسك ممتزجا وطوقت جلناراً واكتست ذهبا
فالنور يلعب فى أطرافها مرحا والجمر يرعد فى أكنافها رهبا
وطار عنها شرار لو جرى معه برق دنا أو تلقى كوكبا لكبا
لو كان وقت نثار خلته درراً أو كان وقت انتصار خلته شهبا
والليل عريان فيه من ملابسه نشوان قد شق أثواب الدجى طربا
أقسمت بالطرف لو أشرفت حين خبت
جعلت أنفس أعضائى لها حطبا

وربما كان مهيار الديلمى الذى أسلم بعد مجوسية عام ٣٩٤ أشد شعراء هذا العصر عصبية للقومية الفارسية ، فديوانه الكبير يكاد يكون كله فى التهانى بهذه الأعياد والافتخار بآثار الفرس والتعصب لهم .

فهو حين يمدح شاهنشاه جلال الدولة ويهنئه بعيد المهرجان ، يتخذ من ذلك وسيلة لتذكيره بمجد الأكاسرة المندثر ، إذ يقول :[٣]

وعاد المهرجان بخفض عيش يرف على ظلائله الصفاق
هو اليوم ابتناه أبوك كسرى وشيد من قواعده الوثاق
وشق له من اسم الشمس وصفا يطول به صحيح الاشتقاق

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ١٧٣ (٢) غط شق
(٣) ديوان مهيار ٢ : ٣٤٩

وأسلاه عن الإيوان بقيا مقام العز فى هذا الرواق

وهو حين يخلو إلى نفسه فيفكر فى هذا الملك الفارسى العريض ، يغمره شعور عنيف بالعزة القومية ، يدفعه إلى الفخر والغناء دفعا فيقول: (١)

أعجبت بى بين نادى قومها « أم سعد » فمضت تسأل بى
سرها ما علمت من خلقى فأرادت علمها ما حسبى
لا تخالى نسبا يخفضنى أنا من يرضيك عند النسب
قومى استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبى كسرى علا إيوانه أين فى الناس أب مثل أبى ؟!
قد قبست المجد من خير أب وقبست الدين من خير نبى
وضممت الفخر من أطرافه سؤدد الفرس ودين العرب

إنها أغنية من أغانى الفخر ، ونفثة من نفثات الروح القومى المتوثب ، يرسلها شاعر فارسى مغمور بنشوة الانتصار على الخصم ، مسرور بهذا السلطان الذى عاد بعد طول اندثار غضا جديداً وهو لهذا ينكر ما للعرب من عز ومجد ، فلا يعترف لهم إلا بهذا الدين ، زاعما أن أباه خير الآباء ، وأن مجده خير الأمجاد .

ذلك هو أثر الروح الفارسى فى الأدب ، ترى هل كان له صدى سيء فى نفوس الأدباء ، كما كان للأدب الرسمى صدى سيء فى نفوسهم ؟ وهل صوروا ذلك فى أدبهم ؟

والجواب على ذلك لا بد أن يكون بالإيجاب ، ذلك أن هذه البلاد بالرغم من خضوعها للسلطان الفارسى لم تخل من عناصر إسلامية وعربية

---

(١) ديوان مهيار ١ : ٦٤

ما تزال مخلصة لإسلاميتها وعروبتها وتقاليدها ، فمن الطبيعي أن يثير هذا الروح القومي الفارسي الوثني الذي أخذ يلون الحياة الأدبية والاجتماعية سخط هذه العناصر على الفرس وتقاليدهم ، فينبري بعض أدبائها للدفاع عن الإسلام والعرب والإشادة بتقاليدهما ، فيجرهم ذلك إلى هجاء الفرس والنيل من دياناتهم وأعيادهم وتقاليدهم ، نلاحظ صدى ذلك فى أدب بديع الزمان الهمذانى الذى كتب رسالة طويلة فى « معنى السذق » تعصب فيها للعرب والإسلام على الفرس والمجوسية تعصبا مقرونا بحماس شديد ، نقتطف منها هذه العبارات على سبيل التمثيل :(١)

« نحن — أطال الله بقاء الشيخ — إذا تكلمنا فى فضل العرب على العجم وعلى سائر الأمم أردنا بالفضل ما أحاطت به الجلود ولم ننكر أن تكون أمة أحسن من العرب ملابس وأنعم منها مطاعم... ولكننا نقول : العرب أوفى وأوفر وأوقى وأوقر وأنكى وأنكر وأعلى وأعلم وأحلى وأحلم وأقوى وأقوم . . . . . . وإنما قدم الله ملك العجم ليحتج عليها وإنما أخر ملك العرب ليحتج بها ، وما ملكت العجم حتى تواصلت وما ملكت العرب الا حين تصاولت » إلى أن يقول :

« إن عيد الوقود لعيد إفك ، وإن شعار النار لشعار شرك ، وما أنزل الله بالسدق سلطانا ، ولا شرف نيروزاً ولا مهرجاناً ، وإنما صب الله سيوف العرب على فروق العجم لما كره من أديانها وسخط من نيرانها » ثم يقول :

« فلا وقدت نار المجوس ، والله ما أقول ذلك إلا غيرة على نعمته وشفقة على خطته ، إنى أجد الله تعالى يمقت من بحر البحيرة وسيب السائبة . . »

---

(١) رسائل الهمذانى ص ٢٧٩ (شرح الأحدب الطرابلسى)

فالنار أولى بأن يمقت شارعها وهى معبودة ، وإنما جعل الله تعالى النار تذكرة ومتاعاً ولم يجعلها وداً وسواعاً ، ولم يضرب الله تعالى لها عيداً ولم يجعلنا لها عبيداً . . . الله والنبي ، والعيد العربي والتكبير الجهير وتلك الجماهير والملائكة بعد ذلك ظهير . . . ذلك لا ما شرع الشيطان لأوليائه ، نار لديهم تشب ولعنة عليهم تصب وخمرة متاعها قليل وفى الآخرة خمارها طويل ، هذا هو العيد ، وذلك هو الضلال البعيد » .

وإذا كان هذا أثر الروح الفارسى فى نفس البديع ، فإن آثاره فى نفس شاعر عربي كالشريف الرضى كانت أبعد وأعمق من ذلك بكثير ، فهذا الروح الفارسى الذى ساد المجتمع البويهى آنذاك قد حمل الشاعر على أن يتعلق بقوميته العربية تعلقاً شديداً ، يدلنا على ذلك كثرة أصدقائه من أعراب البادية وأمرائها ، ورثاؤه لهم ، وحنينه الشديد إلى الوطن العربي الأول فى الجزيرة ، ووقوفه على أطلاله ، وافتخاره بالإسلام وقوته على الفرس وإكثاره من تهنئة والده بالأعياد الإسلامية كعيد الفطر وعيد الأضحى .

لقد كان الشريف ضيق الصدر بالحياة البغدادية ، يتمنى لو استطاع هجرها ولهذا تراه يهتف بقومه ويحن إليهم كلما ضاقت به الحياة على ضفاف دجلة ، حنين الغريب إلى أوطانه : (١)

أحن إلى قومى كما حن نازع ... إلى الماء قد دانى له القيد قاصر
تذكر جونا بالبطاح تلفه ... بمنتضد الدوح الغمام المواطر
وجنت عليه ليلة عقربية ... لها سائل فى كل واد وقاطر

إلى أن يقول :

---

(١) ديوان الشريف ١ : ٤١١

وما غير دار المرء إلا مذلة ولا غير قوم المرء إلا فواقر
وأخليت من قلبي مكاناً لذكرهم وقد يذكر البادي وتنسى الحواضر

وتراه إذا مر بالحيرة ذات يوم، عاودته الذكرى المؤلمة، ذكرى آل المنذر، فيخاطب أطلالهم ويقول : (١)

أين عقبانك الخواطف حلقـ ـن وأبقين عنـــدك الأوكارا
ورجال مثل الأسود مشوا فيـ ـك تداعوا قوائمـــاً وشفارا
حبذا أهلك المحـــلون أهلا يوم بانوا وحبذا الدار دارا
لم يكونوا إلا كركب تأنى برهة في مناخـــه ثم سارا

وتراه أيضاً إذا اجتاز بالمدائن ووقعت عينه على إيوان كسرى، أخذته نشوة الاعتزاز بالماضي المجيد، فاندفع مفتخراً بالإسلام وقوته على الفرس وقال : (٢)

سل بقوم نزل الدهر بهم فأساء اللبث فيهم والجوارا
لم تكن علياؤهم منحولة أبد الدهر ولا المجد معارا
ضرب المجد عليهم بيته وغدوا دون حمى المجد إطارا
قد نزلنا دار كسرى بعده أربعا ما كن للذل ظؤارا
تصف الدار لنا قطانها المعالي والمساعي والنجارا
وإذا لم تدر ما قوم مضوا فسل الآثار واستنب الديارا
آل ساسان حدا الخطب بهم واسترد الدهر منهم ما أعار

* * *

(١) ديوان الشريف ١ : ٢٩٣ (٢) نفس المصدر ١ : ٣٧٢

ولكن أهذا هو كل أثر الروح الفارسى السىء فى نفس الشريف؟ ألم نصف هذا الأثر السىء بالبعد والعمق قبل قليل؟ فإذا كان هذا الأثر فى نفس الشريف بعيداً وعميقاً حقاً فأين إذن صداه فى شعره؟

ليس من العسير إذا ما كلفنا أنفسنا قراءة الأدب البويهى، أن نظفر بالجواب على هذه الأسئلة، فنحن إذ نقرأ هذا الأدب لانجد شاعراً واحداً من شعراء العصر البويهى الحقيقيين من عالج شعر الحماسة والحرب والفخر على نطاق واسع غير الشريف الرضى، ذلك أن حياة هؤلاء الشعراء الحضرية المستقرة لم تعد تستسيغ حماسة فى خصام، أو فخراً بانتصار، أو اعتزازاً بنسب.

أما الشريف الرضى فقد كان على العكس من هؤلاء جميعاً، إذ ملأ ديوانه بشعر ثائر صاخب بحيث يخيل إلى قارئه أن صاحبه كان بدوياً، يخوض المعارك ويحدو العيس فى فيافى نجد ومرتفعات الحجاز، وليس حضرياً يقيم فى بغداد فى القرن الرابع الهجرى.

ترى ماذا نقول فى تعليل هذا الشعر؟

من السهل جداً أن نقول: إنه متكلف، مصنوع، وإنه تقليد واحتذاء لأساليب القدماء فى الشعر، فليس فى حياة الشريف الخاصة مايدل على أنه كان محاربا يخوض غمرات القتال، ويقوم بالأعمال الجسام التى تحمله على هذا الحماس العنيف والفخر المتطرف.

ولكننا نظلم الشاعر، ونجور على الحق، إن تعجلنا فى الحكم عليه وعلى شعره قبل أن نتروى ونتدبر ما كان يحيط به من ظروف، فقد يكون هذا الشاعر ثائراً حقاً، وقد يكون متحمسا حقاً، وقد يكون له من ظروف حياته الخاصة وحياة طبقته «المنحلة» ما يجعله صادقاً فى هذه الثورة وهذا الحماس

ولو كان ذلك فى عالم الحلم والخيال . فليس من الضرورى ان يكون الشعر تصويراً لأحداث واقعية ترى رأى العين وتلمس لمس اليد ، بل هو إحساس وانفعال بالأحداث وتصوير لهذا الإحساس والانفعال سواء كان ذلك فى الماضى أم فى الحاضر أم فى المستقبل .

أريد أن أقول إن شعر الشريف الرضى فى أكثر أغراضه كان يمثل ظاهرة أدبية قائمة بذاتها تهدف إلى تصوير ما كان يختلج فى نفوس طبقة معينة من آلام وآمال ، وأعنى بهذه الطبقة ، أولئك العرب المغلوبين على أمرهم فى ميدان الحياة السياسية والاجتماعية ، فقد كانوا ينظرون إلى الحاضر وما أصابهم فيه على يد الأعاجم من فشل وإخفاق ، فيجزعون ويألمون ، وكانو يتطلعون إلى المستقبل فتداعبهم الأحلام بالظفر والنجاح فيطمعون ويأملون.

فشعر الشريف ـ أو أكثره ـ على هذا الأساس كان يفصح عن أهواء حقيقية هى أهواء طبقة قد تأخرت وتدهورت واضمحلت فى مضمار الحياة ، حتى سبقها من كان أقل منها شأناً ومرتبة ، وليس عجيباً بعد ذلك إذا ثارت وإذا تحمست ، وإذا حنت إلى وطنها الأول ، فعبرت عن هذه الثورة وهذا الحماس والحنين بشعر يذكر بالماضى المجيد ويقوى الثقة بالمستقبل المجهول على لسان شاعر عربى كالشريف الرضى .

وإنك لتستطيع أن تلمس ذلك واضحاً كل الوضوح إذا قرأت ديوان الشريف ، فهذا القدر الضخم من شعره فى الحماسة والفخر والحرب يدلك على أن الشاعر كان يحدث نفسه بالمعالى ويلح عليها فى هذا الحديث ، لاسيما إذا عرفت أنه كان يعيش فى عصر وصل فيه إلى أعلى المناصب فى الدولة من هو أقل منه نسباً وحسبا وكفاية ، بل لقد وصل فيه إلى الوزارة من كان

طباخاً وإلى الملك من كان يحتطب ويحمل الحطب على رأسه ، فلا تعجب إذن ، إذا ما رأيت الشريف الرضى يحدث نفسه بالخلافة أو الملك أو الوزارة فيردد هذه الأمنية كثيراً فى شعره متحمساً ومفتخراً كقوله :

سأمضى للتى لاعيب فيها ... وإن لم أستفد إلا عناء
وأطلب غاية إن طوحت بى ... أصابت بى الحمام أو العلاء
أنا ابن السابقين إلى المعالى ... إذا الأمد البعيد ثنى البطاء
إذا ركبوا تضايقت الفيافى ... وعطل بعض جمعهم الفضاء
نمانى من أباة الضيم نام ... أفاض علىّ تلك الكبرياء

ولهذا تراه يقف حياته على هذه الأمنية فيعد لها العدة ويرسم لها الخطة ويوطد لها العزم ويعزف من أجل ذلك كله عن حياة اللهو والعبث ، وينصرف إلى حياة الجد والكفاح ، إلى حياة الضرب والحرب وركوب الأخطار فينشد هادراً كما يهدر الفحول :

ومالى عند البيض ياقلب حاجة ... وعند القنا والخيل والليل مطلب
أحب خليلى الصفيين صارم ... وأطيب دارىّ الخباء المطنب
ولى من ظهور الشدقميات مقعد ... وفوق متون اللاحقيات مركب
لثامى غبار الخيل فى كل غارة ... وثوبى العوالى والحديد المذرب

ولكن الأيام تمر وهو ما يزال فى دور التمنى والحماس ، فلا الفرصة تواتيه ولا النفس تطاوعه على الإقدام فيشعر بالخيبة والخذلان فيستجمع قواه وينفجر متحمساً :

إلى كم ذا التردد فى الأمانى ... وكم يلوى بناظرى السراب
ولا نقع يثار ولا قتام ... ولا طعن يشب ولا ضراب
ولا خيل معقدة النواصى ... يموج على شكائمها اللعاب

حتى إذا يئس من النجاح فى الحياة الواقعية جنح إلى الوهم والخيال فخلق لنفسه جيشاً جراراً أغار به على الأعداء فى غلس الفجر فغنم الأموال وسبي النساء ، وذلك حين يقول :

نبهتهم مثل عوالى الرماح إلى الوغى قبل نموم الصباح

* * *

فوارس نالوا المنى بالقنا وصافحوا أغراضهم بالصفاح
لغارة سامع أنبائها يغص منها بالزلال القراح
دونكم فابتدروا غنمها دمى مباحات ومال مباح
فإننا فى أرض أعدائنا لأنطا العذراء إلا سفاح

ولكن من أين أتى الشريف بهذه الجيوش ؟! إنه أتى بها أو سيأتى بها من موطن الآباء ، من الحجاز فاستمع إليه حين يقول :

ورب ركائب من نحو أرضى تخب إليك بالعجب العجاب
وتظهر أسرة من سر قومى تمد إلى انتظارى بالرقاب
فكيف إذا رأيت الخيل شعثاً طلعن من المخارم والعقاب
عليها كل أبلج من قريش لبيق بالطعان وبالضراب
يسير وأرضه جرد المذاكى وجو سمائه ظل العقاب
وعندى للعدى لابد يوم يذيقهم المسمم من عقابى
فأنصب فوق هامهم قدورى وأمزج من دمائهم شرابى
وأركز فى قلوبهم رماحى وأضرب فى ديارهم قبابى
فإن أهلك فعن قدر جرى وإن أملك فقد أغنى طلابى

أهى جيوش حقا ، تلك التى يتحدث عنها الشريف فى شعره ؟ أهى خطط حربية واقعية حقا ؟ لا ، إنها أمان وأحلام ، إنها أفكار ملحة ورغبات

عنيفة كانت تجول فى مخيلة الشاعر ـ كما جالت فى مخيلة المتنبى من قبل ـ فأقضت مضجعه وأرقت عينه ولهذا تراه يدفع نفسه إلى اقتحام الأخطار وركوب الأهوال تارة بالإغراء ، وأخرى باللوم والتعنيف :

يانفس من هم إلى همة   فليس من عبء الأذى مستراح
قد آن للقلب الذى كده   طول مناجاة المنى أن يراح
يطمح من لامجد يسمو به   إنى إذن أعذر عند الطاح
وخطة يضحك منها الردى   عسراء تبرى القوم برى القداح
صبرت نفسى عند أهوالها   وقلت من هبوتها لابراح
إما فتى نال العلا فاشتفى   أو بطل ذاق الردى فاستراح

أرأيت كيف كان الواقع المؤلم يحز فى نفس الشريف فيثيره ويهيجه ؟ حقا إنه لمن سخرية القدر أن يتقدم الشريف فى موكب الحياة من لامجد له ولا حسب كمجد الشريف وحسبه ! وإذن فهو معذور إذا ما فكر فى خطة تعيد إلى هذا العنصر العربى ما فقد من سيادة وسلطان ، وهو معذور أيضا إذا ما حدث نفسه بالمغامرة فى سبيل المجد .

إلى هنا والأمور تسير وفق ما يشتهى الشريف لأنها تجرى فى ميدان فسيح من الخيال ، بعيد عن عالم الحقيقة ، إذ ليس هناك من يقف فى طريق صاحبها طالما هو يفكر ويتخيل فيما بينه وبين نفسه ، ولكنه إذا حاول أن يبرز هذه الأفكار إلى حيز الوجود تراءت له العوائق والموانع السياسية والاجتماعية ، إذ لم يكن هناك ، فى تلك البيئة العراقية ، من يعطف على العرب أو حتى على هذا البيت الهاشمى المقدس ، فالخليفة العباسى محجور عليه ، والعنصر العربى ضعيف ، متفسخ ، والملوك والوزراء والقادة والجند كانوا جميعاً من عناصر أعجمية . ومن هنا ينطوى الشريف على نفسه إذ عز النصير وقل المعين ،

فإذا هو نهب للهواجس والآلام « فيذوب كمداً ويفنى وجداً » كما يقول ابن أبي الحديد ، وتهن أعصابه ويشتعل منه الرأس شيباً وهو ما يزال في ربيع العمر .

وطبيعي جداً ، بعد هذا ، أن تنبو بالشريف أرض العراق فيجتويها بعد أن يئس من أهلها عرباً وعجماً ، وطبيعي جداً أيضاً أن يتعلق بقوميته العربية فيحن إلى وطنها العربي الأول ، إلى نجد والحجاز ، فيجعلهما مصدر وحيه وإلهامه بدلا من بغداد ، فتراه يكلف بالبادية وبمظاهرها كلفاً شديداً . فالبرق يهيجه ، والطلل يصبيه ، وحنين العيس يبكيه .

اقرأ هذه الأبيات — وإن شئت فاقرأ غيرها في الديوان — فإنك واجد فيها ما يدل دلالة قوية على وجود صلة روحية بين الشاعر وبين مظاهر تلك البيئة البدوية :

أيا لله أي هـوى أضـاء ... بريق بالطويلـع إذ تراء
ألم بنا كنبض العرق وهنا ... فلمـا جازنا مـلأ السماء
طـربت إليـه حتى قال صحبي ... لأمـر هاج منـك البرق داء
أبت لى صبوتى إلا التفاتاً ... إلى الدمن البـوائد وانثناء
خليـليّ اطلقـا رسـنى فإنى ... أشـدكما على عـزم مضـاء
فإن تريا إذا ما سرت شخصى ... أمامكما فـلى قلب وراء
وربت ساعة حبست فيها ... مطايا القوم أمنعها النجاء
على طلل كتوشيع اليمانى ... أمح فخالـط البيـد القواء
فيـالى منـه يصبينى أنيقاً ... بساكنه ويبكينى خـلاء
أنادى الركب دونكم ثراه ... لعـل به لذى داء دواء
تساقينا التـذكر فانثنينا ... كأنا قد تساقينا الطلاء

وعجنا العيس توسعنا حنيناً   تغنينـا ونوسعهـا بـكاء

وتراه أيضاً ـ وقد نبت به أرض العراق ـ يعشـق الحجازيات والنجديات ويهيم بهن فيلهمنه هذا الغزل الرقيق العذب النزيه الذى نفس فيه عن نفس أضنتها الأيام وأزعجتها الأحلام ، فلم تعد ترى فى هذا الوجود إلا ما يؤلم ويؤذى . ومن هنا كان هذا الغزل حسرات وآهات وزفرات ملتهبة ، يجد فيه المنكوبون والمحطمون على صخرة الواقع ظلال نفوسهم وأشباح رؤاهم فيهتزون ويتأثرون من الأعماق. اقرأ معى هذه القطعة ثم تمعن فيها :

أيهـا الرائح المغـذ تحمـل   حاجـة للمعـذب المشتـاق
اقر عنى السلام أهـل المصلى   فبلاغ السلام بعض التـلاقى
وإذا ما مررت بالخيـف فاشهد   أن قلبى إليـه بالأشـواق
وإذا ما سئلت عنى فقل نضـو   هوى ما أظنه اليوم باق
ضاع قلبى فانشده لى بين جمع   ومنى عند بعض تلك الحداق
وابك عنى فطالما كنت من قبـل   أعـير الدمـوع للعشاق

ألا تصلح هذه القطعة عزاء لهؤلاء المعذبين فى الأرض ؟ ألا ترى فيها بلسماً لهذه القلوب الجريحة التى برح بهـا الشوق والوجد ؟ ألا ترى فيها نشيداً لهؤلاء الذين ذهبت نفوسهم حسرات إثر من يحبون ؟ وأخيراً ألم تهج الدموع فى عينيك إن كنت من العشاق ؟ كذلك كان غزل الشريف الرضى يصلح لـكل زمان ومكان لأنه يحوى قدراً مشتركاً من العواطف والأفكار .

بعد هذا كله أستطيع أن أقول ، إن فشل الشريف السياسى هو الذى حمل الشريف على أن يقول شعراً فى الحماسة وفى الفخر وفى الحرب ، وعلى

يحكى أن الوزير المهلبي ظفر بقوم يزعمون أن روح علي بن أبي طالب وروح فاطمة قد انتقلت إليهم فحبسهم ، ولكنهم التجأوا إلى أهل البيت فأمر معز الدولة بإطلاقهم ، فلم يكن من الوزير إلا أن يذعن لمشيئته خوفاً من أن يتهم بالميل عن التشيع . (١)

ويروى ابن الأثير أيضاً أن القرامطة حينما قصدوا الشام لمحاربة جعفر ابن فلاح ، أرسلوا إلى عز الدولة بختيار ، يطلبون إليه المساعدة بالمال والسلاح فأجابهم إلى ذلك . (٢)

على أن البويهيين قد ذهبوا في نصرتهم لهذه المبادىء إلى أبعد من ذلك حينما سمحوا للقرامطة بأن يعينوا لهم نائباً في بغداد « يتحكم تحكم الوزراء » . (٣)

ومهما يكن فقد شجع البويهيون التشيع بأوسع معانيه ، ذلك أن نشاطهم في هذا الميدان لم يقف عند ما ذكرناه بل تعداه إلى ابتداع طقوس مذهبية فرضوها على الناس فرضاً ، فكان لها أبعد الأثر في قيام الفتن والمشاغبات وسفك الدماء بين طائفتي السنة والشيعة واستمرارها أجيالا طويلة .

قالوا : إن أهل بغداد كانوا قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون الصحابة ويفضلون الشيخين أبا بكر وعمر على سائرهم ولا يقدحون معاوية ولا غيره من سلف المسلمين ، فلما جاءت هذه الدولة وهي متشيعة غالية نما مذهب الشيعة ببغداد ووجد له من قوة الحكومة أنصاراً .

ففي سنة ٣٥١ كتب عامة الشيعة ببغداد بأمر معز الدولة على المساجد : « لعن الله معاوية ولعن من غصب فاطمة فدكاً ، ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ، ومن نفى أبا ذر الغفاري ، ومن أخرج العباس من الشورى ... فلما كان الليل حكه بعض الناس فأراد معز الدولة إعادته فأشار عليه الوزير المهلبي بأن يكتب مكان ما محي : لعن الله الظالمين

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٣٩ (٢) حاشية ابن الأثير ٧ : ٤٢ (٣) ابن الأثير ٧ : ١٢٦

الفصل الخامس

أثر التشيع فى الأدب البويهى

ومن الظواهر الاجتماعية التى شجعتها السياسة البويهية وأيدتها ظاهرة التشيع ، فقد قويت هذه الظاهرة وازدهرت فى هذا العصر فكان لها أثر واضح فى الحياة الأدبية . وذلك أن بنى بويه كانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع ، فنصروا المذهب الشيعى وأيدوه — كما مر بنا — حتى إنهم هموا أن ينقلوا الخلافة من بنى العباس إلى أولاد على لولا أن الصيمرى قال لمعز الدولة حينما أراد أن يبايع محمد بن يحيى الزيدى العلوى : « إذا بايعته استنفر عليك أهل خراسان وعوام البلدان ، وأطاعه الديلم ورفضوك ، وقبلوا أمره فيك ، وبنو العباس قوم منصورون تعتل دولتهم مرة وتصح مراراً وتمرض تارة وتستقل أطواراً لأن أصلها ثابت وبنيانها راسخ ، فعدل معز الدولة عن تعويله »(١)

والظاهر أن التشيع لم يصبح فى هذا العصر مذهباً سياسياً يهدف إلى استرداد الخلافة من غاصبيها كما كان فى أول عهده فحسب ، بل اتسع معناه كثيراً ، وبخاصة بعد ما تأثر بعقائد الفرس الموروثة فأصبح ستاراً لبعض البدع الدينية فالإسماعيلية ، والقرامطة ، والقائلون بالتناسخ ، والذين يؤلهون علياً ، كل هؤلاء كانوا يتخذون من التشيع ستاراً ، فيظفرون برعاية البويهيين ومساعدتهم .

---

(١) حاشية ابن الأثير ٦ : ٣١٥

يحكى أن الوزير المهلبي ظفر بقوم يزعمون أن روح على بن أبى طالب وروح فاطمة قد انتقلت إليهم فحبسهم ، ولكنهم التجأوا إلى أهل البيت فأمر معز الدولة بإطلاقهم ، فلم يكن من الوزير إلا أن يذعن لمشيئته خوفاً من أن يتهم بالميل عن التشيع . (١)

ويروى ابن الأثير أيضاً أن القرامطة حينما قصدوا الشام لمحاربة جعفر ابن فلاح ، أرسلوا إلى عز الدولة بختيار ، يطلبون إليه المساعدة بالمال والسلاح فأجابهم إلى ذلك . (٢)

على أن البويهيين قد ذهبوا فى نصرتهم لهذه المبادىء إلى أبعد من ذلك حينما سمحوا للقرامطة بأن يعينوا لهم نائبا فى بغداد «يتحكم تحكم الوزراء» . (٣)

ومهما يكن فقد شجع البويهيون التشيع بأوسع معانيه ، ذلك أن نشاطهم فى هذا الميدان لم يقف عند ما ذكرناه بل تعداه إلى ابتداع طقوس مذهبية فرضوها على الناس فرضاً ، فكان لها أبعد الأثر فى قيام الفتن والمشاغبات وسفك الدماء بين طائفتى السنة والشيعة واستمرارها أجيالا طويلة.

قالوا : إن أهل بغداد كانوا قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون الصحابة ويفضلون الشيخين أبا بكر وعمر على سائرهم ، ولا يقدحون معاوية ولا غيره من سلف المسلمين، فلما جاءت هذه الدولة وهى متشيعة غالية نما مذهب الشيعة ببغداد ووجد له من قوة الحكومة أنصاراً .

ففى سنة ٣٥١ كتب عامة الشيعة ببغداد بأمر معز الدولة على المساجد : « لعن الله معاوية ولعن من غصب فاطمة فدكاً ، ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ، ومن نفى أبا ذر الغفارى ، ومن أخرج العباس من الشورى ... فلما كان الليل حكه بعض الناس فأراد معز الدولة إعادته فأشار عليه الوزير المهلبي بأن يكتب مكان ما محى : لعن الله الظالمين

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٣٩ (٢) حاشية ابن الأثير ٧ : ٤٢ (٣) ابن الأثير ٧ : ١٢٦

لآل رسول الله (ص) ولا يذكر فى اللعن أحداً إلا معاوية ففعل ذلك »[١]

وفى سنة ٣٥٢ عاشر المحرم ، أمر معز الدولة الناس أن يقفلوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء ، ويظهروا النياحة ، وينصبوا القباب، ويخرج النساء منشرات الشعور مسودات الوجوه ، قد شققن ثيابهن، يدرن بالبلد بالنوائح ، ويلطمن وجوههن على الحسين بن على ، ففعل الناس ذلك ، وكان هذا أول يوم نيح فيه على الحسين ببغداد .[٢]

وفى الثامن عشر من ذى الحجة من هذا العام ، أمر معز الدولة أيضاً بإظهار الزينة فى البلد ، فأشعلت النيران وأظهر الفرح ، وفتحت الأسواق ليلا كما يفعل ليالى الأعياد احتفالا بعيد الغدير - يعنى غدير خم وهو الموضع الذى يروى أن رسول الله (ص) قال فيه عن على : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه - وضربت الدبادب والبوقات وكان يوما مشهوداً .[٣]

وهكذا عملت السياسة البويهية جهدها فى نشر هذه الطقوس المذهبية الغالية حتى أصبح أثرها فى نفوس الشيعة قويا، بل عنيفا كلما مر الزمن بحيث صار يوم عاشوراء يوما مقدسا عندهم .

قال القمى: « من ترك السعى فى حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة ، ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه ، يجعل الله عز وجل يوم القيامة فرحه وسروره. »[٤]

ويذهب القمى فى إثارة العواطف وتجديد الآلام فى يوم عاشوراء مذهبا بعيداً فيقول :

---

(١) ابن الأثير ٧ : ٤ (٢) ابن الأثير ٧ : ٧والمنتظم ٧ : ١٥

(٣) ابن الأثير ٧ : ٧ (٤) الحضارة الإسلامية ١ : ١١٥

« إذا نظرت السماء حمراء ، كأنها دم عبيط ، ورأيت الشمس على الحيطان كأنها الملاحف المعصفرة فاعلمي أن سيد الشهداء الحسين قد قتل.»(١)

وعلى هذا النحو استمر الشيعة يحتفلون بيوم بؤسهم ويوم نعيمهم هذين ، من كل عام، ثم أضافوا إليهما أياما أخرى فكانت أيامهم طوال العام بين حزن وسرور يتجددان ويتضاعفان على مر السنين حتى أصبح حاضرهم وثيق الصلة بماضيهم، الأمر الذى جعلهم يتعلقون بتراثهم،فيرجعون القهقرى، يقلبون صحائف التاريخ ويستلهمون الأحداث ويتدارسون المآسى ، ويجسمون المصائب والكوارث التى حلت بآل البيت ، فتهيأ لهم من ذلك كله آفاق فسيحة فى عالم الأحلام تهيم فيها نفوسهم الكئيبة ، وتطمئن إليها قلوبهم الكسيرة .

وذلك أثر من آثار السياسة البويهية فى حياة الشعب ، باق على الأيام ، فكأن آل بويه لم يكفهم ما قد أصاب هذه الأمة من أرزاء ومحن وفساد ، وتفكك فى جوانب حياتها المختلفة حتى زادوها بلاء على بلاء فأشاعوا بين صفوفها التفرقة والأحقاد والضغائن ...

وكذلك كان الساسة وما يزالون مصدراً للرذائل والشرور والآثام .

* * *

وبعد ، فماذا كان من أثر هذه الظاهرة الاجتماعية فى الأدب ؟

يقول النقاد : « إن الأدب يصور الحياة النفسية للأفراد والجماعات فى كل زمان ومكان ويحمل طابعها ويرسم ظلالها وألوانها . وإذا كان الأمر كذلك فماذا يمنع أدباء الشيعة من أن يستلهموا هذه الحياة النفسية الكئيبة عند جماعتهم ويصوروها شعراً ونثراً يفيضان حزنا وأسى ؟

(١) الحضارة الإسلامية ١ : ١٠٣

حقا لقد صور هؤلاء الأدباء الحياة النفسية عند الشيعة أقوى ما يكون التصوير ، فنحن إذ نقرأ أدبهم رفيعا كان أو شعبيا ، نحس فيه آثار اللوعة، ونلمس فيه آيات الحزن العميق ، ذلك أن هذه الجماهير التي تملكها الأسى ، فترقرقت فى مآقيها الدموع واحتبست فى صدورها العبرات كانت فى حاجة ملحة إلى الأناشيد والأغانى الشجية ، لتنوح بها على سيد الشهداء الحسين بن على ترتلها إذا ضمتها المجامع ، وتترنم بها فى عرض الطريق لزيارة كربلاء ، ثم لتستعين بها بعد ذلك على إطفاء العواطف المشبوبة ، والمشاعر الملتهبة ، كلما تجددت الذكرى المؤلمة ، واستثيرت الأشجان .

فقد استحوذ على هذه الجماهير شعور قوى بعظم الكارثة التى حلت بآل البيت حتى عاودتها الأطياف فى المنام ، فكان من أثر ذلك أن كثر الذين يحلمون بفاطمة وهى تندب على ابنها، وكثر النائحون والنائحات على الشهيد، وكثر الشعر الذى ينظم ليناح به عليه .

فهذا أحمد بن المزوق النائح ينوح على الحسين بشعر الناشىء الذى يقول فيه : (١)

بنى أحمـــد قلبى لكم يتقطع ... بمثل مصابى فيكم ليس يسمع
عجبت لكم تفنون قتلا بسيفكم ... ويسطو عليكم من لكم كان يسمع
كأن رسول الله أوصى بقتلكم ... وأجسامكم فى كل أرض توزع

وكان الناشىء حاضراً فلطم لطماً عظيما على وجهه وتبعه المزوق والناس كلهم . وحدث الخالع فقال إنه رأى أبا القاسم الشطرنجى النائح فى المنام فقال له : أحب أن تقوم فتكتب قصيدة الناشىء البائية فإنا قد نحنا بها البارحة فى المشهد وأولها :

---

(١) معجم الأدباء ١٣ : ٢٩٢

رجائى بعيد والممات قريب ويخطىء ظنى والمنون تصيب

وكان الناشىء هذا « يعتقد الإمامة ويناظر عليها بأجود عبارة ، فاستنفد عمره فى مديح أهل البيت حتى عرف بهم، وأشعاره فيهم لا تحصى كثرة»[١]

وكذلك كان ابن أصدق النائح وخلب النائحة المجيدة الحاذقة ينوحان فى بغداد أو فى الحائر على الحسين بقصيدة لبعض الشعراء الكوفيين على لسان فاطمة عليها السلام منها :[٢]

لم أمرضه فأسلو لا ولا كان مريضا
أيها العينان فيضا واستهلا لا تغيضا

وهكذا تتسع دائرة الأدب الشيعى ويعظم خطره فى الحياة الأدبية فى القرن الرابع بما كان قد تهيأ له من ظروف سياسية واجتماعية ، أتاحت له فرصة النمو والازدهار ، لاسيما بعد أن كان الصاحب بن عباد من أنصاره والخوارزمى والشريف ومهيار الديلمى من حاملى لوائه .

أما الصاحب بن عباد فقد كان يتشيع لآل البيت ويعطف عليهم حتى إنه ألف كتاب الإمامة فى فضائل على بن أبى طالب ، وعنى بنشر التشيع فى أصبهان فى أيام حكومته فيها، وروى له هذا الكلام المسجوع فى مدح سيد الأولياء صلوات الله عليه : « صهره الذى آخاه وأجابه حين دعاه ، قبل الناس ولباه، وساعده وواساه ، وشيد الدين وبناه ، وهضم الشرك وأخزاه، وبنفسه على الفراش فداه، ومانع عنه وحماه . . . الخ »

والشيعة تروى له شعراً كثيراً فى مدح آل البيت وهجاء أعدائهم، وقد بالغ صاحب كتاب (الإرشاد فى أحــوال الصاحب بن عباد) كثيراً فى مقدار هذا الشعر إذ قال ما ترجمته :

---

(١) معجم الأدباء ١٣ : ٢٨٢ وابن الأثير ٧ : ٨٧
(٢) نشوار المحاضرة للتنوخى ٢١٨ و ٢١٩

« وللصاحب عشرة آلاف بيت فى مناقب أهل البيت وَالتبرى من أعدائهم » .

ومن شعره الذى رواه هذا المؤلف أبيات فى مدح أمير المؤمنين وهى :

يا أمير المؤمنين المرتضى إن قلبي عندكم قد وقفا
كلما جددت مدحى فيكم قال ذو النصب نسيت السلفا
من كمولائى على زاهد طلق الدنيا ثلاثا وكفى الخ

وروى له أيضا أبياتا فى هجاء بنى أمية وهى :

قالت تحب معاويه ؟ قلت اسكتى يازانيه
قالت أسأت جوابنا فأعدت قولى ثانيه
يازانيه يا ابنة ألفى زانيه أأحب من شتم الوصى علانيه ؟!
فعلى يزيد لعنة وعلى أبيه ثمانيه

وتروى له قصيدتان فى مدح الإمام الرضا مطلع الأولى :

يا سائراً زائراً إلى طوس مشهد طهر وأرض تقديس

ومطلع الثانية :

يا زائراً قد نهضا ، مبتدراً قد ركضا وقد مضى كأنه البرق إذا ما أومضا

ولعل ذلك يفسر لنا صلته بالشريف الرضى ، فقد كانت بينهما مودة وتعاطف ، وكان من أثر هذه المودة أن مدحه الشريف بقصيدتين ورثاه بواحدة .

وأما مهيار الديلمى فإنه كان مجوسيا فأسلم على يد الشريف الرضى ودرس عليه التشيع فأحب أهل البيت حبا شديداً دفعه إلى مدحهم بشعر كثير ، كما دفعه أيضا إلى هجاء الصحابة هجاء مقذعا ، حتى قيل فيه إنه بإسلامه قد انتقل

من زاوية فى النار إلى أخرى .

ومن شعره فى ذلك قوله : (١)

وقائل لى « على » كان وارثه ... بالنص منه فهل أعطوه أم منعوا ؟

فقلت كانت هنات لست أذكرها ... يجزى بها الله أقواما بما صنعوا

أبلغ رجالا إذا سميتهم عرفوا ... لهم وجوه من الشحناء تمتقع

أطاع أولهم فى الغدر ثانيهم ... وجاء ثالثهم يقفو ويتبع

آباى فى فارس والدين دينكم ... حقاً لقد طاب لى أس ومرتبع

ما زلت مذ يفعت سنى ألوذ بكم ... - حتى محا حقكم شكى - وأنتجع

وقوله فى رثاء الحسين : (٢)

مصابى - على بعد دارى - بهم ... مصاب الأليف بفقد الأليف

وليس صديقى غير الحزين ... ليوم الحسين وغير الأسوف

قتيل به ثار غل النفوس ... كما نغر الجرح حك القروف

نسوا جده عند عهد قريب ... وتالده مع حق طريف

* * *

وكذلك كان ابو بكر الخوارزمى شيعيا متعصبا لأهل البيت ، صريحا فى موالاته وإخلاصه لهم ، ولهذا سلط قلمه على خصومهم فأصلاهم ناراً حامية .

فمن شعره قوله فى هجاء فقيه :

مجبر صير ابنه ناصبيا ... مجبراً مثله وتلك عجيبه

ليس يرضى أن يدخل النار فرداً ... ساعة الحشر أو يقود حبيبه

(١) ديوان مهيار ٢ : ١٨٣ (٢) نفس المصدر ٢ : ٢٦٢

وقوله فى هجاء علوى ناصبي :

شريف فعله فعل وضيع   دنيء النفس عند ذوى الجدود
كأن الله لم يخلقه إلا   لتنعطف القلوب على يزيد

وكان لتشيعه هذا أثر قوى فى رسائله ، فهو حين يكتب لا يترك فرصة مناسبة أو غير مناسبة دون أن يستغلها فى هجاء خصومه أو مدح طائفته أو إظهار التوجع والتفجع لما أصاب أهل البيت من ظلم وغصب وقتل.

فإذا كتب إلى أبى محمد العلوى وأراد مدحه قال :

فإن كن مثله فى آل بيت أبى طالب رغم لأنوف النواصب، وهيهات، لقد أعظمت غلطا وسألت الله شططا، فنجمنا معاشر الشيعة أنحس، وحظنا من الإقبال أبخس من أن يفلح فى الدنيا طالبى أو يشقى فيها ناصبي...الخ »[(١)]

وإذا كتب رسالة إلى جماعة الشيعة فى نيسابور أسهب وأطال فى عرض ما أصاب هذه الطائفة وأنصارها من قتل وتشريد ومحنة وبلاء ، أيام الأمويين والعباسيين بأسلوب تسوده نغمة الحزن والكآبة .

فهو حين يكتب هذه الرسالة الطويلة يفتتحها بمواساة شيعته وحضهم على الثبات والصبر فى ميدان الكفاح كما ثبت أسلافهم من قبل فيقول :

« وأنتم ونحن - أصلحنا الله وإياكم - عصابة لم يرض الله لنا الدنيا ، فذخرنا للدار الأخرى، ورغب بنا عن ثواب العاجل، فأعد لنا ثواب الآجل، وقسمنا قسمين : قسما مات شهيداً ، وقسما عاش شريداً ، فالحى يحسد الميت على ما صار إليه ولا يرغب بنفسه عما جرى إليه. قال أمير المؤمنين : المحن إلى شيعتنا أسرع من الماء إلى الحدور ... فإذا كنا شيعة أئمتنا فى

---

(١) رسائل الخوارزمى (المطبعة العثمانية) ص٢٢
(٢) نفس المصدر ص٧٥ وما بعدها

الفرائض والسنن ومتبعى آثارهم فى كل قبيح وحسن فينبغى أن نتبع آثارهم فى المحن . غصبت سيدتنا فاطمة (ص) ميراث أبيها (ص) يوم السقيفة وأخر أمير المؤمنين عن الخلافة ، وسم الحسن (رض) سراً ... الخ . » وعلى هذا النحو يمضى فى رسالته معدداً محن الشيعة واحدة واحدة بأسلوب مؤثر أخاذ .

ولا يفوت الخوارزمى فى هذا المقام أن يهجوا آل مروان وآل الزبير وبنى العباس هجاء لاذعا عنيفا ، لأنهم قتلوا شيعة على ، ومحو آثار بيت النبي ولأنهم يجبون فيأهم ويفرقونه على الديلمى والتركى ويحملونه إلى المغربى والفرغانى ، ويمنعون آل أبى طالب ميراث أمهم وفىء جدهم ، بينما يشتهى العلوى الأكلة فيحرمها ويقترح على الأيام الشهوة فلا يطعمها ، وصفوة مال الخراج مقصور على الصفاعنة والكلابين والقوادين والمغنين والمساخر ، وهكذا .

ويتأسى الخوارزمى فى هذه الرسالة أيضا عن كساد التشيع فى خراسان بنفاقه فى الحجاز والعراقين والشام والجزيرة والجبل، وعن تحامل الوزراء والأمراء عليه فى بعض الأقاليم بالتوكل على الأمير الذى لا يعزل ، وعلى القاضى الذى لم يزل يعدل ... على الله .

وهكذا نجد الخوارزمى فى رسائله ما ينفك منددا بخصومه ، مادحا الشيعته ، مكثراً من التعرض لذكر المذاهب .

* * *

وربما كان الشريف الرضى أبرع أدباء الشيعة فى تصوير آلامهم ومآسيهم فى شعره، فقد ترك لنا شعراً فى رثاء الحسين بن على يمتاز بصدق العاطفة وقوتها وروعتها، ويظفر بإعجاب القارئ وتقديره .

ولعل سبب ذلك يعود إلى ظروف خاصة ، وأخرى عامة قد تأثر بها الشريف حين قال هذا الرثاء ، فقد أرهقت أعصابه الكوارث التى حلت بأهله وذويه وأنصاره ، وفزعته مناظر الدماء ، واندلاع النيران ، وارتكاب الجرائم ، وانتهاك المحارم فى حى الكرخ من بغداد . وامتحنته السياسة بفراق أبيه وعمه ، وحرمانه من الثروة والجـــاه ، وهو ما يزال فى غض الإهاب لا يقوى على تحصيل قوت أو دفع أذى ، كما حاربه الزمان وعاكسه القدر فى أمانيه وأحلامه .

كل ذلك أثر فى نفس الشريف ، وكل ذلك أيضا قد خلق منه شاعراً حساسا يجيد الرثاء ويحسن البكاء والعويل حتى على من لا تربطه وإياهم صلة رحم أو عاطفة ود . قال الثعالبي : « ولست أدرى فى شعراء العصر أحسن تصرفا فى المراثى منه » (١)

وليس غريبا بعد ذلك أن يتأثر الشريف بتلك المآتم الرائعة والمواكب الصاخبة التى كانت تقام فى يوم عاشوراء ، اليوم الذى صرع فيه جده الحسين فلقد شهدها منذ الحداثة ، وسمع ما قيل فيها من قصص ، وما أنشد فيها من شعر حزين يرتله النائحون والنائحات ، فكان لذلك أبلغ الأثر فى نفسه والأسى يبعث الأسى ، والذكرى تثير الشجون ، كما يقول القدماء . وإذن فلا عجب إذا صور الشريف مأساة جده وما أصاب أهله فأجاد التصوير بخمس قصائد طويلة من الرثاء الرائع .

ونحن إذ نقرأ هذا الشعر تتجسم أمامنا صورة الشاعر فنراه وهو يصور أحزانه ، كيف تهيجه الذكرى المؤلمة ، فتثور نفسه ، ويختلج قلبه وتضطرب أوصاله ، فإذا عواطفه تتدفق كالسيل الآتى ينحدر من سفوح الجبال ، أو

---

(١) اليتيمة ٢ : ٣٠٨

كالجلمود حطه السـيل من عل ، وإذا هو يرسـل الشعر قويا عنيفا زاخراً بالعواطف الجامحة والمعانى القوية .

ونراه أيضا ، وقد وهنت أعصابه وتخاذلت أوصاله ، وأخذ منه الجهد كل مأخذ ، يئن أنين الثكلى أضناها الندب والنواح ، فيرسل الشعر وانيا ، رفيقا ، ممزوجا بلحن كئيب ، كألحان المفجوعين ينشدونها فى ظلمات الليـل .

هذا ، ولما كان من العسير علينا أن نتناول هذا الرثاء بالشرح والتحليل هنا ، إذ ليس هذا موضعهما فضلا عن أنهما يؤديان بنا إلى الإسهاب والتطويل، فإننا مضطرون إلى الاستشهاد بقصيدتين اثنتين فقط هما المقصورة والرائيـة .

أما الأولى فإنها تمثل الثورة النفسية العنيفة والمشاعر الحادة عند الشاعر، وتلائم ما كان يخالج نفوس الناس من شعور عنيف بالحزن ، ثم إنها بعد ذلك تتناسب مع ما كان يجرى فى المآتم من لطم على الصدور وضرب على الظهور وأصوات تنطلق من آخر الحلق بقوة وعنف ، فى وزنها وفى قافيتها .

وفى هذه القصيدة يصف الشاعر موقعة « الطف » وصفاً مثيراً ، يبعث العطف والإشفاق فى نفس القارئ على أولئك الصرعى وهم تحت حرارة الشمس المحرقة ، تعفرهم الرمال ، وتجللهم الدماء ، وتنوشهم الوحوش ، يفتتحها بنداء كربلاء أو مخاطبتها ، موجها إليها العتاب واللوم والتقريع كأنها هى المسؤولة عما جرى فوق أديمها من دماء ودموع فيقول :(١)

كربلاء لازلت كـربا وبلا   مالقى عندك آل المصطفى ؟ !
كم على تربك لمـا صرعوا   من دم سال ومن دمع جرى !

---

(١) ديوان الشريف طبعة بيروت ١ : ٢٣

كم حصان الذيل يروى دمعها خدها عند قتيـــل بالظما ؟
تمسح الترب على إعجالها عن طلى نحر رميـــل بالدما
وضيوف لفلاة قفرة نزلوا فيها على غـــير قرى
تـكسف الشمس شموسا منهم لاتدانيهـا ضـــياء وعـلا
وتنوش الوحش من أجسادهم أرجل السبق وأيمـان الندى
ووجوها كالمصـابيح فمـن قمر غاب ومن نجم قد هوى

ثم يخاطب جده رسول الله (ص) واصفا له المنظر الرهيب وكأنه من شهود المعركة ، فيقول :

يارسول الله لو عاينتهم وهم ما بين قتلى وسبا
من رميض يمنع الظل ومن عاطش يسقى أنابيب القنا
لرأت عيناك منهم منظراً للحشا شجواً وللعين قذى

ثم ينفد منه الصبر ، ويستحوذ عليه الغضب ، فيوسع هذه الأمة الغادرة بنبيها لوما وتقريعا ، فيقول :

ليس هذا لرسول الله يا أمة الطغيان والبغى ، جزا!
غارس لم يأل فى الغرس لهم فأذاقوا أهـله مر الجنى
جزروا جزر الأضاحى نسله ثم ساقوا أهله سوق الإما

ثم يعود إلى وصف الصريع ، وقد بلغ منه الهياج النفسى ذروته ، فيقول :

وصريعا عالج الموت بلا شد لحيين ولا مد ردا
غسلوه بـدم الطعـن وما كفنوه غير بوغاء الثرى
مرهقايدعو ـ ولاغوث لهـ بأب بر وجد مصطفى
وبأم رفع الله لها علما ما بين نسوان الورى

أى جد واب يدعوهما جد، ياجد ، أغثنى ، يا أبا؟
يا رسول الله ، يا فاطمة يا أمير المؤمنين المرتضى!
كيف لم يستعجل الله لهم بانقلاب الأرض أو رجم السما؟!

وبعد أن يشفى غليله ، وبعد أن تهدأ عاطفته الثائرة ، يعزى نفسه بأن رسول الله سوف يقف من أولئك الغادرين موقف الخصم يوم القيامة فيشكوهم عند قاضى السماء ، فينالون جزاء ما ارتكبوه من آثام ، فيقول فى ذلك :

يوم يغدو وجهه عن معشر معرضا ممتنعا عند اللقا!
شاكيا منهم إلى الله وهل يفلح الجيل الذى منه شكا
رب ! ماحاموا ولا آووا ولا نصروا أهلى ولا أغنوا غنا
بدلوا دينى ونالوا أسرتى بالعظيمات ولم يرعوا إلى
لو ولى ـ ما قد ولوا من عترتى ـ قائم الشرك لأبقى ورعى
نقضوا عهدى وقد أبرمته وعرى الدين فما أبقو عرى
حرمى مستردفات وبنـو بنى الأدنون ذبح للعدا!
أترى لست لديهم كامرئ خلفوه بجميل إذ مضى
ربى إنى اليوم خصم لهم جئت مظلوماً وذا يوم القضا

أما القصيدة الثانية فإنها تصور الشاعر هادئا ، كليلا ، قد غمره الحزن العميق ، فانهمرت من عينيه الدموع ، وفارقه السلو : (١)

ورب قائلة والهم يتحفنى بناظر من نطاف الدمع ممطور
خفض عليك فللأحزان آونة وما المقيم على حزن بمعذور
فقلت هيهات ، فات السمع لائمه لا يفهم الحزن إلا يوم عاشور

(١) ديوان الشريف الرضى ١ : ٢٧٦

يا جد لازال هم يحرضـــنى على الدموع ووجد غير مقهور
والدمع تخفـره عين مؤرقة خفر الحنية عن نزع وتوتير
إن السلو لمحظور على كبدى وما السلو على قلب بمحظور

وبعد ، فقد مضى على يوم عاشوراء مئات من السنين كانت خليقة بأن تخمد تلك العواطف المشبوبة الحزينة ، فلا تبقى منها إلا صدى تردده الأيام وإلا آيات من الحزن تغشى النفوس فلا تستطيع أن نستنزف دمعا أو تثير عبرة ، ولـكنها السياسية الجائرة هى التى شاءت أن تبعث الفتن النائمة جذعة ، فجعلت من يوم عاشوراء رمزاً للحزن المقـــيم عند هذه الطائفة ومصدراً خصبا لأدب شاك عند الشريف وعند غيره من أدباء الشيعة .

* * *

ولعل من تمام البحث أن نشير هنا إلى ما أحدثه سيل التشيع الجارف فى نفوس أهل السنة من رد فعـل ، وصدى عميق ، ذلك أنهم لم يقفوا وما كان ينبغى لهم أن يقفوا من هذه الطقوس الشيعية الغالية ، ومن ذلك الأدب الشيعى الغالى موقف المتفرج ، فقد كانا جديرين بأن يثيرا فى قلوبهم الغيرة على عقائدهم ، ويبعثا فى نفوسهم السخـــط الشديد على من أهانوا الصحابة وأساؤا إليهم . ولهـذا نراهم يبتكرون طقوسا سـنية مقابل تلك الطقوس الشيعية ، وينشئون أدبا سنيا مناقضا للأدب الشيعى .

قال ابن الأثير ، وابن الجوزى أيضا (١) : « ادعت جماعة السنة أن اليوم الثامن من يوم الغدير كان اليوم الذى حصل فيه النبى (ص) فى الغار ، وأبو بكر معه ، فعملت فيـه مثل ما عملت الشيعة يوم الغدير ، وجعلت إزاء يوم عاشوراء يوما بعده بثمانية أيـام نسبته إلى مقتل مصعب بن الزبير ،

---

(١) ابن الأثير ٧ : ٢٠٠ والمنتظم ٧ : ٢٠٦

وزارت قبره بمسكن (١) كما يزار قبر الحسين فى كربلاء » .

وقد ظهر أثر هـــذا الصراع المذهبي فى الأدب أيضا وكان من أبطاله أديبان هما بديع الزمان الهمذانى ، وأبو الحسن على بن سعيد السكرى .

ويدلنا على مدى أثر هذا الصراع وقوته فى الأدب إكثار السكرى من مدح الصحابة ومناقضة شعراء الشيعة حتى سمى من أجـــل ذلك بشاعر السنة . (٢)

ويدلنا على ذلك أيضا ما كتبه بديع الزمان إلى الشيخ الرئيس أبى عامر مستنجداً به على هؤلاء القادحين والنائحين الذين يسبون الصحابة ، وهاجيا هـذا المذهب الذى آذن بالخراب والدمار وذلك حين يقول : (٣)

« . . . والله ما دخلت هذه الكلمة بلدة إلا صبت عليها الذلة ، ونسخت عنها الملة ، ولا رضى بها أهل بلدة إلا جعل الله الذل لباسهم ، وألقى بينهم بأسهم ، هذه نيسابور منذ فشت فيها هذه المقالة فى خراب واضطراب وأموالها فى ذهاب وانتهاب وأسواقها فى كساد وفساد . . . الخ إلى أن يقـول :

« فلينظر الناظر أية زند قدح القادح ، وأى خطب باغ النائح ، لا جرم إن الله تعالى سلط عليهم السيف القاطع والذل الشامل والسلطان الظالم والخراب الموحش ، ولما أعد الله لهم فى الآخرة شر مقاما ، وأنا أعيذ بالله هراة أن يجد الشيطان إليها هذا المجاز وأعيذ الشيخ الرئيس أن لا يهتز لهذا

---

(١) مسكن موضع فى العراق قتل فيه مصعب بن الزبير قتله عبد الملك بن مروان سنة ٧١ هـ (٢) ابن الأثير ٧ : ٣١٢ (٣) رسائل الهمذانى ص ٤٢٤ وما بعدها

الأمر اهتزازاً يرد الشيطان على عقبه . »

وليس هذا الهجوم العنيف على مذهب التشيع وأهله بغريب عن بديع الزمان الذى كان سنيا ، متعصبا لسنيته ، فقد ذكر ياقوت:[1] أنه كان متعصبا لأهل الحديث والسنة وأنه مدح الصحابة وهجا الخوارزمى وأجابه عن قصيدة رويت له فى الطعن عليهم ، بقصيدة طويلة تعد خمسة وأربعين بيتا ، ننقل منها هذه الأبيات :

وكأنى بالهم والكآبه — طعانة ، لعانة ، سبابه
للسلف الصالح والصحابه — أساء سمعا فأساء جابه
تأملوا يا كبراء الشيعه — لعشرة الإسلام والشريعه !
أتستحل هذه الوقيعه — فى تبع الكفر وأهل البيعه ؟
فكيف من صدق بالرساله — وقام للدين بكل آله ؟
ناهيك من آثاره الشريفه — فى رده كيد بنى حنيفه
واستعلم الآفاق والأقطارا — من أظهر الدين بها شعارا
ثم سل الفرس وبيت النار — من الذى فل شبا الكفار

وعلى هذا النحو يمضى فى مدح الصحابة وهجاء الخوارزمى بأقذع الألفاظ .

ولعل هذا التناحر المذهبي وهذه المناقضات الأدبية بين الشيعة وأهل السنة ، يفسران لنا بعض الظروف التى لابست حياة البديع والخوارزمى .

ذلك أن أبا بكر الخوارزمى مثلا كان يتعصب لآل بويه تعصبا شديداً فيمدحهم ويغلو فى هذا المديح ، بينما كان يغض من سلطان خراسان ويطلق

---

(١) معجم الأدباء ٢ : ١٩٦

لسانه بما لا يقدر عليه [١] . فتراه يتصل بالحكام هناك ويمدحهم ، ثم تسوء علاقته بهم فيهجوهم [٢] . ترى لم كان ذلك ؟ وما سببه ؟

لا شك عندى فى أن مصدر ذلك أن آل سامان ورجال دولتهم كانوا سنيين ، وأن آل بويه كانوا شيعة ، وطبيعى جداً أن يجد فى ظل هؤلاء ما لا يجده فى ظل أولئك.

وكذلك نفسر تلك المناظرة الأدبية التى جرت بين البديع والخوارزمى بأنها مظهر من مظاهر ذلك النزاع المذهبي المتصل بين الطائفتين فقد مر بنا قبل قليل أن هذين الأديبين الكبيرين كانا يتعصبان لمذهبيهما تعصبا شديداً ، وكانا يختصمان من أجل ذلك خصاما عنيفا . فإذا كان ذلك كذلك كما يقول القدماء فماذا يمنع من أن تقوم فى نفس البديع وفى نفوس طائفته فكرة الانتقام من هذا الخصم الجبار الذى أوسع الصحابة والخلفاء وأهل السنة ثلبا وتقريعا بأسلوبه اللاذع الساخر ؟ لا شيء طبعا . وإذن فليتخذ البديع من قوة بيانه وسلاطة لسانه وسيلة لإضحاك الناس من هذا الشيعى العنيد والسخرية منه . وهكذا كان .

ومن مظاهر هذه الخصومة المذهبية أيضا أن الخوارزمى تصدى لمقامات البديع فقدح فيها وعابها ، واتهمه بأنه لا يحسن سواها ، فرد عليه البديع وتحداه ، وطلب إليه أن يروض طبعه على خمس مقامات ، بل على مقامة واحدة ، ثم تناول قصيدة له فنقضها . [٣]

ذلك أثر التشيع فى الأدب عند الشيعة وأهل السنة وهو يمثل لنا جانبا آخر من جوانب تأثير الحالة السياسية فى حياة الأدب والأدباء فى العصر البويهى .

---

(١) اليتيمة ٤ : ١٢٦ (٢) نفس المصدر ٢ : ١٢٣ (٣) رسائل الهمذانى ص ٣٨٩

الباب الثالث

أثر البيئة الاجتماعيـــة

فى الأدب البويهى

تمهيـــد

لقد ألممنا فى فصل سابق بالحياة الاجتماعية على عهد بنى بويه ، فرأينا أن اضطراب الحالة السياسية والإدارية ، وفساد الحالة الاقتصادية ، وظهور العادات الشرقية فى المجتمع من جديد قد سببت جميعا اختلالا هائلا فى التوازن الاجتماعى بين الطبقات وتفسخا عاما فى الأخلاق كان من آثارهما إفراط فى الترف والنعيم عند الخاصة وإفراط فى البؤس والحرمان عند العامة، وكان من آثارهما أيضا انتشار اللهو والمجون بين الناس على اختلاف طبقاتهم .

هذا ، ولما كان الأدب رجعا وصدى للبيئة العامة ، أو تصويراً لمظاهرها المختلفة ، وإفصاحا عما تثيره هذه المظاهر فى النفس الإنسانية من أهواء ونزعات ، فإنه من الطبيعى أن يتأثر الأدب البويهى بهذه البيئة الاجتماعية فيصور مظاهرها المختلفة من غنى وترف وفقر وبؤس ومجون وخلاعة ، كما صور مظاهر البيئة السياسية والبيئة الطبيعية ، وهكذا كان .

ذلك أن من يقرأ النتاج الأدبى لهذا العصر ويمعن فى قراءته ويحاول

أن يتلمس آثار البيئة الاجتماعية فيه يجد صوراً أدبية مختلفة تصور ظواهرها تصويراً دقيقا ، منها ما يمثل حياة الترف والنعيم ، ومنها ما يمثل حياة الفقر والحرمان ، ومنها ما يمثل حياة اللهو والمجون .

وواضح من هذا أننا نريد أن نقول إن تلك الصور الأدبية — بالرغم من اختلافها — كانت صدى للنعيم والحرمان والمجون ، تلك الظواهر العامة التى سيطرت على المجتمع حينذاك ، ولذلك آثرنا أن ندرسها تحت ثلاثة موضوعات رئيسية هى : أدب النعيم ، وأدب الحرمان وأدب المجون وسنفرد لكل منها بحثا خاصا به ليتسنى لنا توضيح مدى أثر التيارات الاجتماعية العامة فى حياة الأدب والأدباء فى هذا العصر .

الفصل الأول

أدب النعيم

كان أدب النعيم صدى لحياة الترف واللهو فى البيئات الأرستقراطية ، فى قصور الملوك والوزراء وأهل الثروة واليسار ممن أقبلت عليهم الدنيا فتجمع المال فى خزائنهم ، وتركز الغنى الفاحش فى قصورهم . أقول فى مثل هذه البيئات الناعمة نشأ أدب النعيم حيث كان يعيش كبار الأدباء كابن العميد والصاحب ابن عباد والوزير المهلبي وابن يوسف والصابى وغيرهم من الأدباء الذين عاشوا فى أكنافهم وتتلمذوا عليهم وأخذوا عنهم وتأثروا خطاهم باعتبارهم أساتذة الجيل ورعاة النهضة الأدبية فى ذلك العصر . ولهذا كان من الضرورى أن يتأثر أدبهم بظواهر الحياة الاجتماعية التى كانت تحياها طبقتهم الأرستقراطية فيصور التأنق فى أساليب العيش والإسراف فى اللذة والمتعة والتسلية والميل الشديد إلى المجاملات والتعاظم والملق والنفاق ونحوها فينتج عن ذلك صور أدبية تصف أطعمتهم وأخرى تصور مجالس لهوهم ، وثالثة تمثل ميولهم ونزعاتهم وهى الإخوانيات .

أما وصف الأطعمة فقد كان أثرا من آثار عناية القوم بطعامهم وتأنقهم فيه ، ذلك أن هؤلاء المترفين قد هجروا العادة الإسلامية القديمة التى كانت تقضى بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة ليأخذ كل واحد منه ما يشتهى ، واستعاضوا عنها بالعادة الروسية التى تقضى بأن توضع ألوان الطعام بعضها

بعد بعض. (١) ففي أوائل القرن الرابع كان الوزير أبو الحسن بن الفرات يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعة من الكتاب الذين اختص بهم « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه، ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء، ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف، وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى، ومعه طست زجاج يرمى فيه الثفل، فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقدمت الطسوت والأباريق فغسلوا أيديهم وأحضرت المائدة مغشاة بدبيقى فوق مكبة خيازر ومن تحتها سفرة أدم فاضلة عليها وحواليها مناديل الغمر . . . فإذا وضعت رفعت المكبة والأغشية وأخذ القوم في الأكل وأبو الحسن ابن الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم فلا يزال على ذلك والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين، ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه ويغسلون أيديهم والفراشون قيام يصبون الماء عليهم والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدبيقية ورطليات ماء الورد لمسح أيديهم وصبه على وجوههم ».

وكان من أثر هذا التأنق في الطعام أن عنى المؤلفون عناية كبيرة بفن الطبيخ، فمن ذلك أن ابن مسكويه المؤرخ المشهور قد ألف كتابا « في تركيب الباجات من الأطعمة »، « أحكمه غاية الإحكام وأتى فيه من أصول علم الطبيخ بكل غريب حسن ».

ومن ذلك أيضا أننا نجد الوشاء يعقد فصلا في آداب الطعام عند الظرفاء فيقول فيه : « اعلم أن أول ما استعملوه تصغير اللقم والتجالل

---

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٩٦

عن الشره والنهم وأكل الأوساط الرقاق والبزماورد الدقاق ، وليس يأكلون العصبة والعضلة ولا العرق والكلوة ولا الكرش والقبة ولا الطحال والرئة ولا يأكلون القديد ولا الثريد . . . ولا يمششون من الطعام كراديس قصب الساق الغليظ وإنما مشاشهم ما لان وصفه لا ما غلظ وكبر ، ويأخذون ما ثقل من المشاش على ظهور الأصابع ويطرحونه ناحية من الخوان ، ولا يزهمون ما بين أيديهم من الرغفان ولا يتعدون مواضعهم ولا يلطعون أصابعهم ولا يملأون باللقم أفواههم ولا يدسمون بكبرها شفاههم . . . ولا يأكلون قدراً بائتة ولا قدراً مسخنة . . . ولا شيئاً من الكواميخ والمالح ، وأكل ذلك عندهم من الفضائح » .

هكذا كان الأغنياء المترفون يتأنقون فى طعامهم ، ويتفننون فى إعداد موائدهم ويتبعون فى أكلهم آدابا خاصة لا يحيدون عنها ، ولهذا فليس عجيبا إذا رأينا الأدباء يتأثرون بهذا الجانب المترف من حياتهم فيصفون الطعام ويحاضرون بأوصافه وتشبيهاته ويقولون فيه الشعر ما وسعهم القول ، فقد ذكر الثعالبي أنه «كان ينادم عضد الدولة بعض الأدباء والظرفاء ويحاضر بالأوصاف والتشبيهات ولا يحضر شيء من الطعام والشراب وآلاتهما وغيرها إلا وأنشد فيه لنفسه أو لغيره شعراً حسنا ، فبينا هو ذات يوم معه على المائدة ينشده كعادته إذ قدمت بهطة فنظر عضد الدولة كالآمر إياه بأن يصفها فأرتج عليه وغلبه سكوت معه خجل فارتجل عضد الدولة وقال :

بهطة تعجز عن وصفها ... يامدعى الأوصاف بالزور ؟ !
كأنها فى الجام مجـــلوة ... لآلىء فى ماء كافـــور

وكما كان عضد الدولة يعنى بهذا اللون من الأدب ، كذلك كان أبو الفضل ابن العميد ، فقد كان أصحابه يهدون إليه الأطعمة والحلوى والكتب المؤلفة

فى فن الطبيخ فيتخذ من ذلك وسيلة للمقارضات الشعرية التى تتناول وصف الطعام ، مثال ذلك أن ابن خلاد القاضى أهدى إلى ابن العميد شيئاً من الأطعمة وكتب إليه فى وصفها ، وابن العميد إذ ذاك فى عقب مرض عرض له ، فكتب إلى ابن خلاد قصيدة طويلة منها :[1]

قل لابن خلاد المفضى إلى أمد ... فى الفضل برز فيه أى تبريز
ماذا أردت إلى منهوض نائبة ... مدفع عن حمى اللذات ملهوز [2]
هززت بالوصف فى أحشائه قرماً ... ما زال يهتز فيها غير مهزوز [3]
لم يترك فيه فحوى ما وصفت له ... من الأطايب عضواً غير محفوز [4]
أهديت نبرمة أهدت لآكلها ... كرب المطامير فى آب وتموز [5]
ما كنت لولا فساد الحسن تأمل فى ... جنس من السمن فى دوشاب شهريز [6]
هل غير شتى حبوب قد تعاورها ... جيش المهاريس أو نخز المناخيز
رمت الحلاوة فيها ثم جئت بها ... تحذى اللسان بطعم جد ممزوز [7]
أوقعت للشعر فى أوصافها شغلا ... بين القصائد تروى والأراجيز

ومنها فى الشواريز :[8]

---

(١) اليتيمة ٣ : ١٣ (٢) الملهوز من لهز فلاناً إذا لكزه وقيل ضربه بجمع كفه فى اللهزمة والرقبة والمدفع الفقير الذليل الذى لا يضيف إن استضاف .

(٣) القرم اشتداد الشهوة للحم (٤) المحفوز المطعون (٥) النبرمة نوع من الحلوى والمطامير جمع مطمورة وهى الحفيرة تحت الأرض تخبأ فيها الحبوب ونحوها .

(٦) الشهريز نوع من التمر (٧) الممزوز إذا كان طعمه بين الحلو والحامض وتحذى تقرص . (٨) الشواريز جمع شيراز وهو اللبن الرائق المستخرج ماؤه .

لا أحمد المرء أقصى مايجود به — إذا عصرناه أصناف الشواريز
ما متعة العين من خـــد توردهُ — يزهى عليك بخـــال فيه مركوز
مستغرق الحسن فى توشيع وجنته — بدائع بـــين تسهـــيم وتطريز
يوفى على القمر الموفى إذا اتصلت — يسراه بالـكأس أو يمناه بالـكوز
أشهى إليك من الشيرازقد وضحت — فى صحن وجنتها خيلان شونيز (١)
وقد جرى الزيت فى مثنى أسرتهـا — فضارعت فضـــة تعـلى بابريز

فأجابه ابن خلاد بقصيدة منها :

يا أيها السيـد السـامى بدوحته — تاج الأكاسر من كسرى وفيروز
أتى قريضك يزهى فى محاسنه — زهو الربى باشرت أنفاس نيروز
ياحسنه لو كفينا حين يبهجنا — خطب النبارم فيـــه والشواريز
أقررت بالعجز والألباب قدحكمت — به علىّ فقدك اليـــوم تعجيزى

وكذلك أهدى ابن خلاد إليه كتاباً فى الأطعمة وابن العميد ناقه من علة كانت به فكتب إلى ابن خلاد قصيدة منها : (٢)

فهمت كتابك فى الأطعمه — وما كان نولى أن أفهمه
فكم هاج من قرم ساكن — وأوضح من شهوة مبهمه
وأرث فى كبدى غلة — من الجوع نيرانها مضرمه

ومنها قوله فى الوسط وهو من جيد الوصف :

ودونك وسطاً أجاد الصنا — ع تلفيق شطـريه بالهندمه
فمن صدر فائقة قد ثوت — ومن عجز ناهضة ملقمه
ودنر بالجوز أجوازه — ودرهم باللوز ما درهمه
وقانى بزيتونها والجبـ — ن صفائح من بيضة مدغمه

(١) الشونيز الحبة السوداء (٢) يتيمة الدهر ٣ : ١٤

فمن أسطر فيه مشكولة ... بملح ومن أسطر معجمه
وفوف بالبقل أعطافه ... فوافى كحاشية معلمه
موشى تخال به مطرفاً ... بديع التفاويف والنمنمه
إذا ضاحكتك تباشيره ... أضاءت له المعدة المظلمه

فأجابه ابن خلاد بقصيدة منها :

هلم الحديقة والمقلمه ... وأدن المحبرة المفعمه
لأكتب ماجاش فى خاطرى ... فقد عظم الخوض فى النبرمه
وعجل علىّ بهذى وذى ... فإنى من الخوض فى ملحمه
ألا حبذا ثم ياحبذا ... كتابى المصنف فى الأطعمه
كفانا به الله ما راعنا ... بعلة سيدنا المؤلمه
أطاب الحديث له فى الطعا ... م ففتق شهوته المبهمه
أيا ذا الندى والحجى والعلا ... ومن أوجب الدين أن نعظمه
لئن كان نبرمتى أفسدت ... ولم تأت صنعتها محكمه
فسوف يزورك شيرازنا ... فنقسم بالله أن تكرمه
يميس بشونيزه كالعرو ... س يخطر فى الحلة المسهمه
ويزهى الخوان بتقديمه ... عليه ويحمد من قدمه
ويرمز إخواننا دونه ... كأن تحاورهم زمزمه

وقد وصفوا إلى جانب هذا ، الهريسة والباقلاء والقطائف والسكباجة وخبز الأرز ورؤوس الحملان ونحوها . من ذلك ما كتبه الصابى إلى صديق له يستدعيه ويصف ما عنده من رؤوس الحملان والشراب والفستق إذ قال :

طباخنا صانع رؤوسا ... يسقط فى طيبها الخلاف
مبيضة كاللجين لوناً ... شهية كلها نظاف

وأخذها فى الرقاق يحكى　صريع حمى له لحاف
من بين عجل إلى خروف　تزهى بتنضيدها الصحاف
مختلفات القدود لكن　لها بأسنانها ائتلاف
وكلها راضع صغير　له على ضرعها اعتكاف
قد أسمنتهن أمهات　من طول إرضاعها عجاف
نسقى على ذاك روح دن　أرق أسمائها السلاف
والنقل من فستق جنىّ　رطب حديث به القطاف
لى فيه تشبيه فيلسوف　ألفاظه عذبة خفاف
زمرد زانه حرير　فى حق عاج له غلاف

* * *

وكما تأنق هؤلاء المترفون بطعامهم ، كذلك تأنقوا فى مجالس شرابهم وطربهم ، ذلك أن هذه المجالس كانت من لوازم العيش الأنيق عندهم ، فعنوا بها عناية كبيرة تتناسب وما كان فى بيئاتهم من نعيم وبذخ وإسراف، لهذا كانوا يزينون أرضها بالأزهار والورود ، ويعنون بآلاتها وروائحها وخمرها وفواكهها ، حتى إنه كان فى بيوت الكبراء منهم ـ الى جانب صاحب المطبخ ـ رجل يسمى الشرابى شأنه العناية بهذه الأشياء .(١)

وكانوا يختارون لهذه المجالس أظرف الندماء وأملحهم وأطيبهم عشرة، فالوزير المهلبى وغيره من وزراء العراق مثلا كانوا يميلون إلى القاضى التنوخى جداً ويتعصبون له ويعدونه ريحانة الندماء وتاريخ الظرفاء حتى قالوا فيه : « هو ريحاننا فى القدح وذريعتنا إلى الفرح » ، وكذلك وصف الصاحب بعض بنى المنجم فقال : « عشرته ألطف من نسيم الشمال على أديم

---

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ٢٠٣

الماء الزلال » . (١)

وكذلك كانوا يختارون لها أجمل السقاة والساقيات ، وأبرع المغنين والمغنيات ، كل ذلك لتكون هذه المجالس أقوى على إثارة اللذة التى رموا أنفسهم فى أحضانها ، فهذا تاج الدولة قد أسلم قياده لساق فاتن الطرف ، مليح الوجه ، قد ملك عليه قلبه وذلك حين يقول :

سقانى سحراً خمره   وقد لاحت لى النثره
غزال فاتن الطـرف   مليح الوجـه والطره
أنا الملك وقد ملـكـت قلبى صاحب الوفره
وقد زرفن صدغيه   على أبهى من الزهره
فمن أسـود فى أبيـض فى أحمر فى صفره
إذا حـاول أن يجهر   أو تبـدو له نفره
أعان الشيـخ إبليس   عليـه فأتى مكـره

وإذن فقد كانت هذه المجالس أنيقة ، تشغل فراغاً كبيراً من حياة المترفين فى هذا العصر ، ولهذا تأثر بها الأدباء كما تأثروا بألوان الطعام فصوروها شعراً ونثراً . ففى أدب الصاحب مثلا نجد وصفا رائعا لمجالس الشراب الأنيقة فى البيئات الأرستقراطية التى كان يتفنن أصحابها فى إرضاء الذوق المترف وفى إمتاع الحس والشعور أيضا . فقد كانت هذه المجالس تشيع البهجة والسرور فى كل جارحة من جوارح الإنسان .

يدلنا على ذلك تلك الفصول والاستزارات الكثيرة التى كتبها الصاحب فى وصف مجالسه الخاصة ومجالس الوزير المهلبى فى بغداد .

من ذلك ما كتبه فى وصف أحد مجالسه فقال : (٢)

---

(١) من غاب عنه المطرب ص ٩٤   (٢) يتيمة الدهر ٣ : ٨١

« نحن ياسيدى فى مجلس غنى إلا عنك ، شاكر إلا منك ، فقد تفتحت فيه عيون النرجس وتوردت فيه خدود البنفسج وفاحت مجامر الأترج ، وفتقت فارات النارنج ونطقت ألسنة العيدان وقام خطباء الأوتار وهبت رياح الأقداح ونفقت سوق الأنس وقام منادى الطرب وطلعت كواكب الندماء وامتدت سماء الند فبحياتى لما حضرت لنحصل بك فى جنة الخلد وتتصل الواسطة بالعقد » .

ومن ذلك أيضا ما كتبه فى وصف أحد مجالس المهلبى فقال :

« قد حضرنا حجرة تعرف بحجرة الريحان ، فيها حوض مستدير ينصب إليه الماء من دجلة بالدواليب وقد مدت الستارة وفيها حسن العكبراوية فغنت :

سلام أيها الملك اليمانى لقد غلب البعادعلى التدانى

فطرب الأستاذ أبو محمد ـ أيده الله تعالى ـ بغنائها واستعادها الصوت مراراً وأتبعته أبياتا هى :

تطوى المنازل عن حبيبك دائما وتظل تبكيه بدمع ساجم
هلا أقمت ولو على جمر الغضا قلبت أوحد الحسام الصارم

وتبعتها جارية ابن مقلة ولا غناء أطيب وأطرب وأحسن من غنائها فغنت بيتين للأستاذ وهما :

يامن له رتب ممكنة القواعد فى الفؤاد
أيحل أخذ الماء من متلهب الأحشاء صادى

ففتنت الجميع ، ثم انبسطنا فى الشرب واشتغل الشدو وارتفع الأمرعن الضبط والأصوات عن الحفظ ، واتفقت فى أثناء ذلك مذاكرات ومناشدات ومجاوبات وافترقنا » .

وكما وصف الصاحب هذه المجالس نثراً كذلك وصفها غيره من الأدباء شعراً كقول عبد العزيز بن يوسف فى وصف مجلس عضد الدولة : (١)

فيا مجلسا عز الخلافة محدق   بأقطاره والند والنور والخمر
وقد أرجت أرجاؤه وتعطرت   بساطع نشر ما يقاس به نشر
وفتح فيه النرجس الغض أعينا   محاجرها بيض وأحداقها صفر
كأن الشموع المشعلات خلاله   ثوا كل عبرى ما ينهنهها الزجر
إذا قطعت منها الرؤس تضاحكت   وكان على قطع الرؤوس لها بشر

وهكذا كانت هذه المجالس أسواقا للأنس واللذة تقام فى بيوت الأغنياء فتتفتح فيها عيون النرجس وتتورد فيها خدود البنفسج ويعطرها شذا الأترج والنارنج والند وتنطلق فى أرجائها ألحان العود وأنغام الوتر وشدو المغنى ، وتدور فيها على الندامى كؤوس الراح .

* * *

وكان لهذه المجالس أيضا أثر آخر فى الأدب مصدره ميل الخواص إلى الحكايات القصيرة من النوادر الهزلية والأحاديث التى تتجلى فيها اللباقة العقلية ، فقد كان ندماؤهم يتبسطون معهم فى أخبار العامة وما يحسن من الهزل ويتنكبون عن الحكايات الطويلة التى يفنى باقتصاصها زمان المجلس وتتعلق بها النفوس وتحبس على أواخرها الكؤوس لأنها بمجالس القصاص أولى منها بمجالس الخواص ، قال ابن المعتز : (٢)

بين أقداحهم حديث قصير   هو سحر وما سواه كلام

ويحكى عن « أبي الورد » أنه كان من عجائب الدنيا فى المطايبة والمحاكاة،

---

(١) اليتيمة ٢ : ٩٦   (٢) أدب النديم لكشاجم ص ٣٤ - ٣٥

وكان يخدم مجالس المهلبي ويحكى شمائل الناس وألسنتهم فيؤديها كما هى ، فيعجب الناظر والسامع ويضحك الثكلان . (١)

فهذا الميل إلى ما يمتع ويضحك ويعجب من الأشياء كثيراً ما كان يحمل الأدباء الذين يغشون مجالس الأصدقاء والأغنياء والأدباء على قول الشعر ارتجالا وبدون تروفكان ذلك سببا فى شيوع المقطوعات الشعرية القصيرة التى أكثر الأدباء من نظمها حتى زاحمت القصائد ، فقدكان الأدباء يتناولون مادة هذه المقطوعات مما يدور على ألسنة الجالسين من النوادر والملح والفكاهات والألغاز والأحاجى والمعميات ومما تحويه هذه المجالس من أشياء كالفواكه والأزهار وآنية الشراب وأدوات الترف والزينة ونحوها .

من ذلك قول الثعالبى فى الزيت على سبيل الإلغاز :

حاجيت شمس العلم فى ذا العصر ... نديم مولانا الأمير نصر
ما حاجة لأهل كل مصر ... فى كل ما دار وكل قصر
ليست ترى إلا بعيد العصر

وقول الصاحب فى الند :

ند لفخر الدولة استعماله ... قد زاد عرفا من نسيم يديه
فكأنما عجنوه من أخلاقه ... وكأنه طيب الثناء عليه

وقول الصابى فى عتيدة الطيب :

وعتيدة للطيب إن تستدعها ... تبعث إليك أمامها ببشيرها
يلقاك قبل عيانها أرج لها ... فكأنه مستأذن لحضورها
نفحاتها لم تدر من كافورها ... تأتيك أم من مسكها وعبيرها؟
لا عيب فيها غير أن نسيمها ... مثل اللسان يشيع سر ضميرها

---

(١) اليتيمة ٢ : ١٤٢

وقد أولع أدباء هذا العصر بهذه الطريقة من النظم ولعا شديداً بحيث لم يتركوا غرضا من الأغراض إلا تناولوه ولا شيئا من الأشياء إلا وصفوه بأبيات قليلة . كل ذلك ليثبتوا قدرتهم على قول الشعر فى مواقف الارتجال وليرضوا رغبة الناس فى المستحدث من المعانى والأشياء . ولعل ما أورده الثعالبى من هذه المقطوعات الشعرية فى مختلف الأغراض خير دليل على ما نقول .

* * *

وأما الأخوانيات فقد ازدهرت فى هذا العصر أيضاً كما ازدهر الأدب الرسمى ، وكان سبب ازدهارها يتصل بأخلاق الطبقة العليا ونزعاتها اتصالا وثيقا ، وتعليل ذلك أن هذه الطبقة ـ كما مر بنا ـ قد فقدت كثير من الصفات الكريمة واستعاضت عنها بالذل والضعة وفقدان الشعور بالكرامة والاستخفاف بكرامة الغير وبالملق والنفاق ونحوها لأسباب ذكرناها فيما تقدم . والأمثلة على ذلك كثيرة ولا حاجة بنا إلى الإطالة فيها ولكننا نود أن نذكر هنا مثلا واحداً يصور لنا بوضوح وجلاء ضعف شعور الإنسان بكرامة نفسه وشرفه فى مثل هذه البيئات المترفة التى ساد فيها حب المال وحب المنصب والجاه وذلك أن الوزير المهلبى على جلالة قدره كان يلحقه من فحش معز الدولة وشتمه عرضه مالا صبر لأحد عليه فيحتمل ذلك احتمال من لا يكترث له وينصرف إلى منزله .(١) وأدهى من ذلك أن معز الدولة قد ضربه ذات يوم بالمقارع مائة وخمسين مقرعة يراوح بينها بأن يرفع عنه الضرب حتى يوبخه ويبكته ثم يعيد عليه الضرب ، ولكن الوزير قبل بعد أن استقل من هذا الضرب أن يرجع إلى الوزارة .(٢)

(١) تجارب الأمم ٦ : ١٤٦ (٢) نفس المصدر ٦ : ١٩٠

ولاشك فى أن هذا المثل إن دل على شىء فإنما يدل على أن هذه الطبقة قد استهانت بكل شىء فى سبيل الاحتفاظ بمناصبها وجاهها حتى أصبحت هياكل فارغة وطبولا جوفاء فلجأت إلى تكلف العظمة والأبهة والكبرياء لتسد هذا الفراغ وتكمل هذا النقص ، فظهر أثر ذلك فى اتخاذها الألقاب الكاذبة المعارضة لروح الإسلام مثل الأوحد وكافى الكفاة وأوحد الكفاة ، كما ظهر فى تكلفها فى أساليب المكاتبات التى عظمت شأن المخاطب إلى حد الإسراف .

على أننا لم نأت بشىء جديد حين نقول بهذا الرأى فقد سبقنا إليه الوزير ابن سعدان حينما سأله أبو حيان التوحيدى أن يأذن له فى كاف المخاطبة وتاء المواجهة إذ قال :[(١)]

« لك ذلك ، وأنت المأذون فيه ، وكذلك غيرك ، وما فى كاف المخاطبة وتاء المواجهة ؟ إن الله تعالى على علو شأنه . . . يواجه بالتاء والكاف ... وكذلك رسوله (ص) . . . وهكذا الخلفاء ، فقد كان يقال للخليفة ياأمير المؤمنين أعزك الله ، وياعمر أصلحك الله ، وما عاب هذا أحد ، وما أنف منه حسيب ولا نسيب ، ولا أباه كبير ولا شريف ، وإنى لأعجب من قوم يرغبون عن هذا وشبهه ويحسبون أن فى ذلك ضعة أو حطا أو زراية ، وأظن أن ذلك لعجزهم وفسولتهم وانخزالهم وقلتهم وضؤولتهم ، وما يجدونه من الغضاضة فى أنفسهم ، وأن هذا التكلف والتجبر يمحوان عنهم ذلك النقص ، وذلك النقص ينتفى بهذا الصلف ، هيهات ، لاتكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء ، ومن مقابح الزهو والكبرياء » .

وواضح من هذا أن ابن سعدان المعاصر لهؤلاء القوم يعلل لجوءهم إلى

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ : ٢٦

تكلف الخيلاء والزهو والكبرياء بأنه « تعويض » عن هذا النقص الذى تولد فى نفوسهم بسبب عجزهم وضعفهم وقلتهم وضؤولتهم .

على أن أبا حيان التوحيدى فى تعقيبه على هذا الكلام بالقول المأثور : « ما تعاظم أحد على من دونه إلا بقدر ما تصاغر لمن فوقه » يعطينا صورة دقيقة مركزة لطبيعة العلاقات الاجتماعية فى البيئات الأرستقراطية . ذلك أن الطبقة العليا قد استبد بعضها ببعض، فكان الفرد منها يتعاظم ويتجبر على من هو أدنى منه منزلة ، ثم يتصاغر ويتخاذل لمن هو أعلى منه مرتبة .

ولما كان الناس فى كل زمان يقلدون كبراءهم وذوى الشأن منهم سرت عدوى هذا الداء من الطبقة العليا إلى غيرها من الطبقات بحيث أصبح التعاظم على التابع والتصاغر للمتبوع من سمات المجتمع البويهى التى جعلت علاقة الرئيس بالمرؤوس والشريف بالمشروف والغنى بالفقير مبنية على المجاملة والملق والنفاق ، قائمة على تبادل الود الكاذب والإخلاص المزيف والاحترام المتكلف وما إلى ذلك من الأخلاق التى تسود المجتمعات المنحلة فى كل زمان ومكان .

ومما لاريب فيه هو أن مجتمعاً كهذا المجتمع الذى بنيت فيه علاقة الفرد بالفرد على أساس الخداع والتمويه لابد أن يندر فيه الوفاء والألفة والصداقة والصدق ونحوها، ويشيع فيه الغدر والجفاء والقطيعة والمكر وما إليها، وقد صدق أبو حيان التوحيدى الكاتب العظيم فى كتابه الصداقة والصديق الذى صور فيه انهيار العلاقات الاجتماعية فى عصره حين قال : (١)

« إن الصداقة والألفة والأخوة والمودة والرعاية والمحافظة قد نبذت نبذاً ورفضت رفضاً ووطئت بالأقدام ولويت دونهـــا الشفاه وصرفت

---

(١) الصداقة والصديق ص ٢٤

عنها الرغبات » .

كل ذلك قد انعكس صداه فى الحياة الأدبية فأنتج فناً من الأدب بعينه هو فن « الإخوانيات » ، فقد كانت هذه الظاهرة الاجتماعية من البواعث القوية على ازدهاره فى هذا العصر وفى هذه البلاد دون سواها ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما شاعت الإخوانيات فى الأدب البويهى بينما لا نكاد نجد لها أثراً فى الآداب الإقليمية الأخرى .

ففى خراسان مثلا نجد الإسكافى ، وهو كما يقول الثعالبي لسان خراسان وغرتها وعينها وواحدها وأوحدها فى الكتابة والبلاغة ، كان أكتب الناس فى السلطانيات ولكنه إذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعى ، قصير الباع . وقد دهش الثعالبي نفسه لهذا الأمر وعجب منه ، أما نحن فلا تدهش له ولا نعجب منه ، وإنما نفسره بأن الشروط الاجتماعية التى هيأت لنشوء الإخوانيات وازدهارها فى فارس والعراق كانت معدومة فى خراسان أو كالمعدومة ، ولهذا فلا عجب إذا برع الإسكافى وغيره من أدباء خراسان فى السلطانيات وقصروا فى الإخوانيات .

ومهما يكن فقد راجت الإخوانيات فى العصر البويهى رواجاً منقطع النظير لتوافر أسبابها ودواعيها ، إذ عنى بها الأدباء عناية كبيرة فأكثروا من المراسلات الإخوانية شعراً ونثراً إلى حد الإسراف ، حتى إننا نجد من بينهم من اقتصر فى كتاباته على الرسائل الإخوانية دون غيرها . نلاحظ ذلك عند كاتب كبير كأبى بكر الخوارزمى الذى رماه الهمذانى بأنه لا يحسن من الكتابة « إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع المتداول بكل قلم، المتناول بكل يد وفم » . (١)

---

(١) رسائل الهمذانى ص ٧٦

وكان هؤلاء الكتاب يوجهون رسائلهم إلى الأصدقاء والتلاميذ والأمراء والوزراء والعمال والقضاة والعلماء وغيرهم فى مناسبات مختلفة وأغراض شتى، كالتهنئة والتعزية، والاستعطاف والعتاب، والتزلف والتقرب، والشكر والاعتذار، والإهداء والاستهداء، والاستزارة والشوق وشكوى الدهر ونحوها، فكتبوا مثلا يهنئون بالأعياد، وبارتفاع المنصب، وبالتخلص من الشر، وبقدوم مولود، وكتبوا أيضاً بعد نكبة أو محنة أو خلع، أو بمناسبة المرض، أو الخروج إلى حرب، أو الشكر على هدية ونحو ذلك من الأغراض الكثيرة.

على أن من تتهيأ له الفرصة فيقرأ ما نظمه الشعراء وما أنشأ الكتاب فى مثل هذه الأغراض يلاحظ أن أكثر هؤلاء الأدباء كانوا مسوقين إلى النظم والكتابة سوقاً، مدفوعين إليهما دفعاً، تحت تأثير تلك الحالة الاجتماعية التى ألممنا بها منذ قليل.

وإلا فلماذا يكلف الأدباء أنفسهم هذا العناء حينما يهنئون ويعزون ويستعطفون ويتشوقون مثلا ؟

لقد كان الأديب فى العصر البويهى يهنىء إنساناً لاتربطه به رابطة ود أو تعاطف، ويعزى آخر بحادث وفاة لايثير فى نفسه حزناً ولا يبعث فى قلبه حسرة ولا فى عينه دمعة. وكان يستعطف وجيهاً فيسبغ عليه آيات الإجلال والإكبار وهو لايضمر له غير البغض والاحتقار، أو يتشوق إلى لقاء من يكون لقاؤه فى العين قذى وفى القلب شجى.

أليس فى هذا الصنيع عناء أى عناء ؟ أليس فى هذا التكلف إرهاق أى إرهاق لنفس الأديب ؟

حقاً إنه إجهاد وترويض للنفس الشاعرة حينما تحمل على أن تفرح

وتأسى بغير ماداع إلى الفرح والأسى ، وحينما ترغم على الإعجاب والشوق دون أن يكون لهذا الإعجاب والشوق سبب .

ولكن ماحيلة الأديب فى مثل هذه المواقف وتقاليد المجتمع حينذاك كانت تفرض على الناس أن يجامل بعضهم بعضاً وينافق بعضهم لبعض فيتبادلون العواطف المبتذلة من ولاء متصنع وود مزيف ومؤاسات متكلفة وشوق إلى اللقاء كاذب ؟ . لاشك فى أنه مضطر كل الاضطرار إلى مجاراة ميول مجتمعه حينما ينظم أو يكتب .

وإذ كان الأدباء متأثرين فى إخوانياتهم بأخلاق اجتماعية مبنية على المجاملة والنفاق، وعلى المبالغة فى هذه المجاملة وهذا النفاق، غلوا فى معانيهم حتى أحالها الغلو مضحكة مبتذلة، ونمقوا فى ألفاظهم حتى جعلها التنميق قبيحة بغيضة. ولهذا نراهم مثلا إذا كتبوا فى الشوق والفراق أغاروا على معانى العشاق المتيمين فانتحلوها ، وإذا كتبوا إلى مريض سفحوا الدموع وعافوا الهجوع ، وإذا كتبوا إلى رجل عظيم تذللوا وتضرعوا كما يتذلل العبد إلى سيده ويتضرع، وهكذا . فهذا أبو بكر الخوارزمى يكتب فى الفراق ، فى فراق صديق لا حبيب فيقول : (١)

« قد كنت أحسب الفراق يسير الخطب ، هين الوقع ، قليل العبء والثقل خفيف الكل والظل ، حتى دهيت بفراق سيدى فعلمت من مقدار الفراق ما كنت جهلته ، ووجدت من شخصه ما كنت أضللته ، وعلمته من طريق المطالعة والمعرفة وإنما كنت أراه من طريق التخيل والصفة ، وتذكرت قول جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم   هذا الفراق فعلت ما لم أفعل

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٣٢ و ٣٣ المطبعة العثمانية

ولكنى لو علمت أنى أقعد تحت أعباء الاشتياق، وأتفسح تحت ثقل الفراق، لصحبت سيدى فراشاً أو ركابياً أو طباخا أو شاكرياً ، ولو وسعت أكثر من ذلك لقلت أصحبه كاتبا أو حاجبا أو نديما أو صاحبا أو مغنيا أو ضاربا.. وهكذا يمضى إلى آخر الرسالة .

وهذا أبو الفضل بديع الزمان يكتب فى الشوق فيقول (١)

« يعز علىّ - أطال الله بقاء الشيخ الرئيس - أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى دون وصولى ، ويرد مشرعة الأنس به كتابى قبل ركابى ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمة .

وعلى أن أسعى وليس على إدراك النجاح

وقد حضرت داره ، وقبلت جداره ، وما بى حب الحيطان ، ولكن شغفا بالقطان ولا عشق الجدران ، ولكن شوقا إلى السكان ، وحين عدت العوادى عنه أمليت ضمير الشوق على لسان القلم معتذرا إلى الشيخ على الحقيقة عن تقصير وقع وفتور فى الخدمة عرض ، ولكنى أقول :

أن يكن تركى لقصدك ذنباً فكفى أن لا أراك عقابا

وهذا الصاحب بن عباد يكتب إلى عبد الرحمن الشيرازى ، وقد شكا إليه علة النقرس فيقول :(٢)

عنانى من الهم ما قد عنانى فأعطيت صرف الليالى عنانى
ألفت الدموع وعفت الهجوع فعيناى عينان نضاختان
لسقم ألح على سيد به قد غفرت ذنوب الزمان

وهذا ابن العميد يكتب قصيدة طويلة إلى بعض إخوانه منها هذه

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٠٣ (٢) اليتيمة ٢ : ١٠٠

الأبيات : (١)

قد ذبت غير حشاشة وذماء   ما بين حر هوى وحر هواء
لا أستفيق من الغرام ولا أرى   خلوا من الأشجان والبرحاء
وصروف أيام أقمن قيامتي   بنوى الخليط وفرقة القرناء

وهذا عبد العزيز بن يوسف أيضا يكتب إلى الصاحب فيقول: (٢)

«كتابي ـ أدام الله عز مولانا ـ وحالى فيما أعاينه من تمثل حضرته وتذكر خدمته، والمواقف التي سعدت فيها برؤيته، وأفـــدت من مشاهدته حظها . . . حال امرئ هب وقد أوردته الأحلام مناهل أمله، فهو يتلهف تذكراً ويتلذذ تحيراً، ويناجي النفس تمثلا، ويراقب المنى تعللا، وأحمد الله تعالى على الأحوال كلها . . . وأقول:

أقول وقلبي في ذراك مخيم   وجسمي جنيب للصبا والجنائب
يجاذب نحو الصاحب الشوق مقودى
وقد جاذبتني عنـــه أيدى الشواذب
سـقى الله ذاك العهد عهـداً من الحيا
وتلك السجـايا الغر غر السحـائب
وإنى وإن روعت بالبين شائم   طوالع عتبي من طلاع العواقب
وما أنا بالناسي صنائعك التي   كتبن على الرق ضربة لازب

هكذا كان الأدباء في هذا العصر يتكلفون العواطف المبتذلة ويصنعون المعاني الغاليـة في إخوانياتهم ويوجهونها إلى الأمراء والأعيان والأقران والأصحاب في مناسبات شتى، خاضعين في ذلك لظروف حياتهم الاجتماعية مستجيبين لمؤثراتهـا .

---

(١) اليتيمة : ٣ ١٨٢   (٢) نفس المرجع ٢ : ٩٠ - ٩١

الفصل الثانى

أدب الحرمان

وأدب الحرمان هذا كان صدى للحياة البائسة فى الأوساط الفقيرة ، كما كان أدب النعيم صدى للحياة المترفة فى البيئات الغنية ، فقد كانت أغلبية الأمة — كما ذكرنا — تحيا حياة فقر وبؤس وإملاق، تظللها المحن والخطوب ويغشاها الجوع والمرض والموت . وقد ذكرنا من التاريخ ما يؤيد هذا من الأمثال . ونريد الآن أن نؤيده بنص أدبى واحد من نصوص كثيرة أفاضت فى حياة البؤس عند المعدمين فى العصر البويهى . وهـذا النص مقتطف من رسالة استغاثة خاصة وجهها بديع الزمان إلى أحد الكبراء يصف فيها ما أصاب إحدى المدن من محنة وبلاء ، وذلك حين يقول :

« ولكنى أخبره بما عرض لها — يعنى المدينة — ولهم بعد فصول أصلها عنها ، فيهم فشت الأمراض الحادة فخبطت عشواء ، وأفنت رجالا ، ثم جد الغلاء ، وفقد الطعام ، ووقع الموت العام ، فمن الناس من لم يطعم أسبوعا حتى هلك جوعا ، ومنهم من تبلغ بالميتة إلى يومنا هذا وهو ينتظر نحبه ، ليلحق صحبه ، ومنهم من لا يجد القوت والدرهم على كفه حتى يموت ، والباقون أحياء كأنهم أموات ترعد فرائصهم من هذه البوائق ، وإن هول السلطان أعظم وأطم وأمر المطالبات أكبر وأهم » (١)

---

(١) رسائل الهمذانى ص ١٢٧

وقد كان الأدب الذى يصور حياة البؤس نوعين :

الأول : أدب التسول أو الكدية. وهو يصور التشبث بأسباب الحياة، والتحايل على كسب القوت بكل وسيلة ممكنة .

والثانى : أدب الشكوى، وهو يصور الإخفاق والفشل ومعاكسة القدر فى الحياة وما تحدثه هذه الأمور فى نفس الإنسان من مرارة وجزع ونقمة على الأوضاع القائمة .

أما أدب التسول فقد كان صورة لحياة طائفة كبيرة من المجتمع البويهى، هى طائفة المكدين الذين تنكرت لهم الأيام ، وقست عليهم ظروف الحياة ففشلوا فى الحصول على ما يقيم الأود عن طريق العمل المثمر كالزراعة والصناعة والتجارة ، ولهذا لجأت إلى مختلف الحيل وشتى الأساليب فاتخذت منها وسيلة أو وسائل للحصول على المال . فاستمرأت هذا العيش السهل وأمعنت فى التسول والتكدى حتى خسرت كثيراً من الصفات التى يكون بها الإنسان إنسانا .

على أن حرفة التسول ليست جديدة فى المجتمع، بل هى قديمة قدم الفقر والغنى فى الحياة ، فقد ذكر البيهقى أنه قيل للحطيئة : أوص للمساكين بشىء فقال : أوصيهم بالمسألة ما عاشوا فإنها تجارة لن تبور . (١)

وكان الجاحظ أول من عرض لموضوع الكدية من الكتاب ، إذ كشف عن هذه الناحية من نواحى المجتمع فتكلم على أصناف المكدين وما يمتازون به ويحتالون . ثم جاء البيهقى فى أوائل القرن الرابع فنقل عن الجاحظ وتوسع فى الكلام على أصناف المكدين وطبقاتهم وأعمالهم ونوادرهم . (٢)

---

(١) المحاسن والمساوى ص ٢٩٣ (٢) نفس المصدر ص ٦٢٤

ولكن هذه الحرفة لم تكن شائعة فى العصور السابقة كما كانت شائعة فى العصر البويهى، فقد اتسع مداها وعظم خطرها، فانتشرت انتشاراً كبيراً بين الناس. يدلنا على ذلك ما ذكره المقدسى من أن الخطبة لا تسمع من صياح السؤال فى شيراز ، وأن الكرامية كانوا لا ينفكون من أربع خصال: التقى والعصبية والذل والكدية ، وأنه لم يبق شىء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذ منه نصيباً غير الكدية وركوب الكبيرة. (١)

وهكذا انتشرت هذه الحرفة حتى ضرب بها المثل ، قال بديع الزمان من رسالة وجهها إلى أحد القضاة :

« مثلى أيد الله القاضى مثل رجل من أصحاب الجراب والمحراب، (٢) تقدم إلى القصاب يسأله فلذة كبد ، فسد باليسرى فاه وأوجع بالأخرى قفاه ، فلما رجع إلى مسكنه كتب إليه توقيعاً يطلب حملا رضيعاً » . (٣)

ومهما يكن فقد اشتهر من هؤلاء المتسولين فى هذا العصر جماعة تعرف بالساسانية أو بنى ساسان، نسبة إلى رجل اسمه ساسان، قيل فيه إنه ساسان بن اسفنديار الذى كان من حديثه أن أباه لما حضرته الوفاة فوض أمر الحكم إلى ابنته فأنف ساسان من ذلك واشترى غنماً وجعل يرعاها ، وعير بأنه راعى الغنم ، ثم نسب إليه كل من تكدى . وقيـــل كان ساسان ملكا من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس ونهب كل ما كان له ، واستولى على ملكه فصار رجلا فقيراً يتردد فى الأحياء ويستعطى ، فضرب به المثل . وقيل فيه أيضا إنه كان رجلا فقيراً حاذقاً فى الاستعطاء دقيق الحيـــلة فى

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٢٩ ، ٤١ و ٤٤ (٢) أصحاب الجراب هم أصحاب الكدية الذين يتأبطون الجراب ويأوون إلى المساجد .

(٣) رسائل الهمذانى ص ٢٤١

الاستجداء ، فنسب إليه المكدون .

ويرى الأستاذ الشيخ محمد عبده فى هذه التسمية غير هذا الرأى فيقول: إن الساسانية وبنى ساسان وما شاكل ذلك من الألفاظ المشيرة بالتحقير لساسان، وأنه جد السفلة وشيخهم ، إنما جاءت بعد زوال الدولة الساسانية التى أسسها أردشير بابك ، فلما محقها الإسلام وبقى من أطرافها أفراد سقطوا فى ألسنة فتيان المسلمين الأولين ، فكانوا يطردونهم من مكان إلى مكان ،ويعيرونهم بعنوان آبائهم ، فبعد أن كانت نسبتهم إلى ساسان نسبة مجد وحسب، صارت نسبة قذف وسب ، وكان فى إشهار هذا الاسم بالتحقير غاية سياسية فضلا عما تطمح إليه نفس الغالب من إذلال المغلوب ، وهى ألا يبقى لدولة الساسانية ذكر فى لسان ولا أثر فى جنان ينبىء عن سلطانها أو رفعة شأنها ، وإذا خطر أمرها بالبال فلا يخطر إلا مع لازمه الجديد وهو السفالة والدناءة ، ثم نسى ذلك بمرور الأيام ، وبقى اللفظ مستعملا فى الشحاذين وهم أدنى طبقة فى الناس . (١)

وقد ورد ذكر بنى ساسان فى مقامات بديع الزمان الهمذانى ، كما ذكرهم الحريرى فى مقامته المسماة بالمقامة الساسانية التى أوضح فيها كثيراً من البواعث الدافعة على التسول فقال :

« سمعت أن المعايش إمارة ، وتجارة وزراعة وصناعة ، فمارست هذه الأربع لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أحمدت منها معيشة ، ولا استرغدت عيشة ، أما فرص الولايات وخلس الإمارات فكأضغاث الأحلام والفىء المنتسخ بالظلام ، وناهيك غصة بمرارة الفطام ، وأما بضائع التجارات فعرضة للمخاطرات وطعمة للغارات ،وما أشبهها بالطيور الطائرات ،وأما

(١) شرح مقامات الهمذانى ص ٩٧

اتخاذ الضياع والتصدى للازدراع فمنهكة للأعراض وقيود عائقة عن الارتكاض وقلما خلا ربها عن إذلال أو رزق روح بال ، وأما حرف أولى الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات ولا نافقة فى جميع الأوقات . . . ولم أر ما هو بارد المغنم ، لذيذ المطعم ، وافى المكسب ، صافى المشرب إلا الحرفة التى وضع ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ، وأضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها ... إذ كانت المتجر الذى لا يبور والمنهل الذى لا يغور . . وكان أهلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف . . . ولا يرهبون ممن برق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد . . . أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون أوطاناً ولا يتقون سلطاناً » .

وعلى أية حال فقد أطلق لفظ الساسانية أو بنى ساسان على أولئك الصعاليك الذين كانوا يجدون فى طلب القوت الذى لم يكن إليه سبيل « إلا ببيع الدين ، وإخلاق المروءة ، وإراقة ماء الوجه ، وكد البـــدن ، وتجرع الأسى ، ومقاساة الحرفة ، ومض الحرمان ، والصبر على ألوان وألوان » .[١]

وكان هؤلاء الصعاليك يطوفون فى الآفاق ويتنقـــلون بين البلدان والأرياف جماعات ووحداناً ، يستجدون ، ويحتالون ، ويمخرقون على الناس فيبتزون منهم الأموال . وقد أشار بديع الزمان الهمذانى فى مقاماته إلى كثرة تنقل هذه الجماعة وإمعانها فى التسول بقوله على لسان عيسى بن هشام :

« يا أبا الفتح ! بلغ هذه الأرض كيدك ، وانتهى إلى هذا الشعب صيدك فأجابه أبو الفتح :

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١٤٣

أنا جوالة البـــلا د وجوابة الأفـــق
أنا خذروفـــة الزما ن وعمارة الطـــرق
لاتلمنى — لك الرشا د — على كديتى وذق

وقد كان ينتمى إلى هذه الطائفة من هو شاعر أو من هو ملم بنوع من الثقافة كالقصص والأحاديث وما إليها ، كما كان لبعضهم آراء ونظرات فى الحياة تدل على أنهم كانو يشعرون بفساد النظام الاجتماعى فى عصرهم ، فنقدوه نقداً لاذعاً وسخروا منه ومن أهله ، وبرروا ســـلوكهم فى الحياة بأنه استجابة لها ومجاراة لاساليبها المعكوسة ونظمها الفاسدة ، كقول أبى دلف الخزرجى :

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور
لاتلتزم حالة ولكن در بالليالى كما تدور

وقول بديع الزمان فى مقاماته :

هـذا الزمان مشوم كما تراه غشوم
الحمـق فيه مليح والعقل عيب ولوم
والمال طيف ولـكن حول اللئام يحوم

فمبدأ الصعاليك فى الحياة على هذا يتمشى مع المبدأ المشهور « الغاية تبرر الواسطة » ، ويتفق والرأى القائل بأن « خير السلوك ما لاءم البيئـــة » ، متأثرين فى ذلك بواقع حياتهم وظروفها .

✡ ✡ ✡

هذه الظواهر الاجتماعية التى نشـأت عن الفقر المدقع كان من صداها ظهور نوع من الأدب جديد لم نجد له أثراً فى غير هذه البلاد ، هو ذلك الأدب الذى صور حياة البؤس عند الصعاليك والأفاقين وأبناء الشوارع

والطرق . فقد أثرت هذه الظاهرة الاجتماعية ـ ظاهرة التسول ـ فى الحياة الأدبية فألهمت بديع الزمان الهمذانى مقاماته المشهورة التى سنتكلم عليها فيما بعد ، كما أنها قد هيأت الفرصة المناسبة لظهور شاعرين كبيرين صورا فى شعرهما آلام الصعاليك وأساليب معيشتهم وفنون حيلهم وتقاليدهم وألفاظهم الصعلوكية .

وهذان الشاعران هما الأحنف العكبرى وأبو دلف الخزرجى . أما الأحنف العكبرى فهو أبو الحسن عقيل بن محمد العكبرى ، شاعر المكدين وظريفهم ومليح الجملة والتفصيل منهم ، وكان الصاحب معجباً بظرفه وشعره فقال فيه : « لو أنشدتك ما أنشدنيه الأحنف العكبرى لنفسه وهو فرد بنى ساسان اليوم بمدينة السلام ، وحسن الطريقة فى الشعر ، لامتلأت عجبا من ظرفه وإعجابا بنظمه ، ولا أقل من إيراد موضع افتخاره فإنه يقول : (١)

على أنى بحمد اللـه فى بيت من المجد
بإخوانى بنى ساسا ن أهل الجد والحد
لهم أرض خراسا ن فقاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسند
إذا ما أعوز الطرق على الطراق والجند
حذاراً من أعاديهم من الأعراب والكرد
قطعنا ذلك النهـ ج بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعاديه بنا فى الروع يستعدى

وإذن فالأحنف كان يفخر بانتسابه إلى بنى ساسان وكان يعتز بهم ، ولم

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٨٥

لا يفخر ويعتز ؟ ألم تكن هذه البلاد كلها خاضعة لسيطرتهم ؟ ألم يجوبوا أقطارها ويقطعوا مسالكها بلا سيف ولا رمح آمنين ، مطمئنين ، فلا يحذرون عدواً ولا يخشون قاطع طريق ؟ بلى ! ثم . . . أليس من دواعى الفخر والاعتزاز أن يتزيا الطراق والجند بزى الصعاليك وينتسبوا إليهم إذا ما أرادوا اجتياز سبيل ؟ نعم !

ولكن ، أكان الأحنف جاداً حقا فى هذا الفخر والاعتزاز ؟ أم أنه كان هازلا ؟ أما أنا فلست أرى فى هذا الشعر موضعا لفخر أو اعتزاز ، كما توهم الصاحب . فالشاعر — كما يخيل إلىّ — لم يكن جاداً فى حمده لله على أنه فى بيت ماجد ، كما لم يكن فرحا بهذا الملك العريض ، وإنما كان ساخراً عابثا ، فهو لم يكن من البساطة والسذاجة بحيث يرى فى حرفة التسول مجداً عريضا يستحق أن يفتخر به إنسان . وهل يفتخر بالتشرد ويعتز بالكدية من يشكو الاغتراب وفقدان الوطن وندرة الأليف وقلة الرزق ؟ لقد كان الأحنف يرى أن الحشرات الحقيرة كالعنكبوت والخنفساء أسعد منه حظا وأحسن منه حالا فى هذه الحياة ، إذ أنها تتمتع ببيت تسكن فيه وأليف تطمئن إليه ، أما هو فإنه لم يكن له مثلها إلف ولا سكن ، وإذا كانت هذه نظرته إلى الحياة فجدير به أن يزدريها ويعبث بمقاييسها ويسخر من نظمها فيزعم أن الكدية حرفة محترمة تقى أصحابها من الشرور فى الوقت الذى يتعرض فيه التجار والجند وأهل الفضل للأخطار .

وإلا فكيف نوفق بين قوله السابق وقوله :

العنكبوت بنت بيتا على وهن ... تأوى إليه وما لى مثله وطن
والخنفساء لها من جنسها سكن ... وليس لى مثلها إلف ولا سكن

وقوله :

عشت فى ذلة وقلة مال　　واغتراب فى معشر أنذال
بالأمانى أقول لا بالمعانى　　فغذانى حلاوة الآمال
لى رزق يقول بالوقف فى الـــرأى ورجل تقول بالاعتزال

لا سبيل إلى التوفيق بين هذا وذاك إلا إذا فهمنا الأبيات الأولى على أنها هزل وسخرية مصدرهما سخط الشاعر على أنظمة الحياة القائمة التى عبثت بالإنسان واستهانت به فحرمته الرابطة الوطنية والاجتماعية وضنت عليه بما يسد الرمق ، فعاش شريداً ، غريبا ، ذليلا ، بائسا .

على أن ما وصلنا من شعر الأحنف يؤيد ما ذهبنا إليه، فهو يعبر عن حزن دفين ، وألم ممض يحز فى نفسه ، وشعور بالخيبة فى ميدان الحياة ، وذلك حين يقول :

ترى العقيان كالذهب المصفى　　تركب فوق أثفار الدواب
وكيسى منه خلو مثل كفى　　أما هذا من العجب العجاب !

وقوله :

رأيت فى النوم دنيا مزخرفة　　مثل العروس تراءت فى المقاصير
فقلت جودى ! فقالت لى على عجل
إذا تخلصت من أيدى الخنازير

وقوله :

قد قسم الله رزقى فى البلاد فما　　يكاد يدرك إلا بالتفاريق
ولست مكتسباً رزقا بفلسفة　　ولا بشعر ولكن بالمخاريق
والناس قد علموا أنى أخو حيل　　فلست أنفق إلا فى الرساتيق

كذلك كان الأحنف يصور فى شعره آلامه وبؤسه ، ويشكو فيه غربته وتشرده وقلة رزقه ، ويسجل فيه أيضاً احتجاجه على ظلم المجتمع وقسوته .

وأما أبو دلف الخزرجي ، مسعر بن مهلهل ، « فهو شاعر كثير الملح والظرف مشحوذ المدية في الجدية ، أخلق التسعين في الأطراف والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجراب ، في خدمة العلوم والآداب » [1] حتى قال:

وقد صارت بلاد اللـه في ظعنى وفي رحلى
تغايرن بلبثى و تحاسدن على رحلى
فما أنزلها إلا على أنس من الأهل

وكان أبو دلف ينتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده ... ويرتفق بخدمته ويرتزق في جملته ويتزود كتبه في أسفاره فتجرى مجرى السفاتج في قضاء أوطاره .

وقد نظم أبو دلف الخزرجي قصيدة رائية عارض فيها دالية الأحنف العكبرى ونهج نهجه فيها ، فشرح فيها أصناف المكدين شرحا وافيا كافيا ، تقدم فيه كثيراً على الجاحظ والبيهقى .

وهذه القصيدة تعرف بالقصيدة الساسانية ، وهى طويلة جداً ، فاختار منها الثعالبي ما يقرب من مائتى بيت ، بدأها الشاعر بأبيات رقيقة شرح فيها آلامه وآلام إخوانه من بنى ساسان ، وما يلقون من جهد ومشـــقة في أسفارهم واغترابهم ، ثم عقب على ذلك بأبيات في الفخر على طريقة زميله الأحنف في الدالية ثم أسهب بعد ذلك في بيان أنواع المكدين وفنون حيلهم وأساليبهم في الحصول على المال . كل ذلك كان بألفاظ صعلوكية لا تفهم ، ولذلك عنى الثعالبي بتدوين شرحها . وفيما يأتى نذكر أمثلة لهذه الأغراض .

قال أبو دلف في الشكوى والفخر :

---

(١) اليتيمة ٣ : ١٧٤

جفون دمعها يجرى   لطول الصد والهجر
وقلب ترك الوجـ   ـد به جمراً على جمر
لقد ذقت الهوى طعـ   ـمين من حلو ومن مر
ومن كان من الأحرا   ر يسلو سلوة الحر
ولا سيما فى الغر   بة أودى أكثر العمر
تعريت كغصن البا   ن بين الورق والخضر
وشاهدت أعاجيباً   وألواناً من الدهر
على أنى من القوم البهـ   ـاليل بنى الغر
بنى ساسان والحامى   الحمى فى سالف العصر
تغربنا إلى أنا   تنائينا إلى شهر
فظل البين يرمينا   نوى بطناً إلى ظهر
كما قد تفعل الريح   بكثب الرمل فى البر
فنحن الناس كل النا   س فى البر وفى البحر
أخذنا جزية الخلق   من الصين إلى مصر
لنا الدنيا بما فيها   من الإسلام إلى الكفر
فنصطاف على الثلج   ونشتو بلد التمر

وقال فى أصناف المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع حيلهم :

ومنا الكاغ والكاغة   والشيشق فى النحر (١)
ومن دروز أو حرز   أو كوّز بالدغر (٢)

---

(١) الكاغ والكاغة المتجانن والمتجاننة ، والشيشق الحدايد والتعاويذ يعلقونها على أنفسهم (٢) دروز إذا دار على السكك والدروب وسخر بالنساء، وحرز ، إذا كتب التعاويذ والأحراز ، وكوز ، إذا أقام فى المجلس ، والمكوز هو الذى يقوم فى مجالس القصاص فيأمر القاص أصحابه بإعطائه ، ثم إذا تفرقوا تقاسموا ما أعطوه . والدغر ، المقاسمة .

ومن درع أو قشـ ـع أو دمع فى القر (١)
ومن رعس أو كبـ ـس أو غلس فى الفجر (٢)
ومن شدد فى القول ومن رمد فى القصر (٣)
ومن كدى على كيسا ن فى السر وفى الجهر (٤)
ومنا النائح المبـــكى ومنا المنشد المطرى (٥)
ومن ضرّب فى حـــب علىّ وأبى بكر (٦)
ومن يروى الأسانيد وحشو كل قمطـــرى (٧)

---

(١) درع : إذا جاء الهراس وطلب قصعة من الهريسة فإذا أعطاه إياها لحسها. وقشع إذا مشى وعينه إلى الأرض اطلب القطع . دمع ، إذا بكى فى الأسواق عند البرد حتى يعطى .

(٢) رعس : إذا طاف على حوانيت الباعة فأخذ من هنا جوزة ومن هنا تمرة وتينة ، وكبس : إذا دار ، فإذا نظر إلى رجل قد حل ستجته كبسه وأخذ منه قطعة . وغلس : إذا خرج الى الكدية بغلس .

(٣) ومن شدد : قوم يكون معهم دفاتر حديث يروونها ويشددون على الناس فى اللواط وشرب الخمر . القصر ، هو الأتون يدخله الواحد من القوم فيطرح نفسه فى الرماد ثم يخرج وعليه غبرة الرماد ويوهم أنه آوى اليه من شدة البرد وعدم اللبوس.

(٤) كيسان ، قوم عرفوا قوماً من الكيسانية والغلاة فيجيبونهم ويكدون عليهم بالمذهب (٥) النائح المبكى ، قوم ينوحون على الحسين بن على ويروون الأشعار فى فضائله ومراثيه (٦) ومن ضرب فى حب . . . الخ :قوم يحضرون الأسواق فيقف واحد جانباً ويروى فضائل أبى بكر (ض) ، ويقف الآخر جانبا ويروى فضائل على (ض) فلا يفوتهما درهم الناصبى والشيعى ثم يتقاسمان الدراهم .

(٧) ومن يروى الأسانيد : هؤلاء قوم يروون الأحاديث على قوارع الطريق.

وعلى هذا النحو يسهب أبو دلف فى سرد أصناف المكدين ، ويمعن فى تعداد مهنهم وحرفهم وحيلهم ، حتى لقد بلغ عددها المئات . وقد كان يستعمل فى كل ذلك لغة خاصة هى لغة الصعاليك التى كانت تعرف بمناكاة بنى ساسان .

والظاهر أن هذه المناكاة كانت معروفة لدى العامة والخاصة ،فقد ذكر الثعالبى أن الصاحب كان يحفظ مناكاة بنى ساسان حفظاً عجيباً ، وكان يعجبه من أبى دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ،ويجريان فيما لا يفطن له حاضرهما . ولما أتحفه أبو دلف بهذه القصيدة اهتز لها ونشط وتبجح بها وتحفظ كلها وأجزل صلته عليها .(١)

وقد توسع أبو دلف فى قصيدته هذه فى معنى الكدية والمكدين كثيراً، بحيث جعل الشعراء والأشراف والخليفة أيضاً من أصناف المكدين . ولعله كان جاداً فى ذلك لا متندراً كما يقول الثعالبى . فالفقر والبؤس وسوء الحال قد دفعت كثيراً من الأشراف والشعراء والكتاب وحتى بعض الخلفاء إلى الاستجداء الصريح ، فهذا بديع الزمان الهمذانى يصرح فى إحدى رسائله ، ولا يأنف ، بأنه يحترف الكدية إذ يقول :

« أنا ـ أطال الله بقاء الشيخ العميد ـ مع أحرار نيسابور فى صنعة لا فيها أهان ، ولا عنها أصان ، وشيمة ليست بى تناط ، ولا عنى تماط وحرفة لا فيها أدال ولا عنى تزال ، وهى الكدية التى علىّ تبعتها وليست لى منفعتها » .(٢)

وهذا ابن الحجاج يملأ شعره بألفاظ المكدين وأهل الشطارة ومعانيهم كقوله :

---

(١) اليتيمة ٣ : ١٧٥ (٢) رسائل الهمذانى ص ١٦٤

يا سادتى قول ميت في مثل صورة حىّ
لم يبق فى الخرج شىء أتأذنون بشـــىّ ؟

وقوله وقد رأى كلاب عز الدولة بختيار تطعم لحوم الجدا :

رأيت كلاب مولانا وقوفا ورابضة على ظهر الطريق
فمن ورد له ذنب طويل يعقفه ومهلوب خلوقى
تغذى بالجدا فوددت أنى وحق الله خركوش سلوقى
فيا مولاى رافقنى بكلب لآكل كل يوم مع رفيقى
أرى القصاب قد أضحى عدوى لشوم البخت والملحى صديقى

ولابن الحجاج هذا هجاء كثير ينحو فيه نحو الصعاليك فى مهاتراتهم وتسابهم .

لهذا كان من حق أبى دلف أن يقول فى قصيدته الساسانية هـذه :

ومنا شـعراء الأر ض أهل البدو والحضر
ومنا سائر الأنصا ر والأشراف من فهر
ومنا قيمّ الدين الـــمــــطيع الشائع الذكر
يكدى من معز الدو لة الخـبز على قدر

ومهما يكن فإننا نستطيع أن نقول إن القصيدة الساسانية يمكن أن تعتبر من خير المصـادر التى تلقى ضوءاً على أحوال العصر الاجتماعية ، كما أنها تعتبر خير مصدر لدراسة حياة الصعاليك وتقاليدهم بصورة خاصة .

* * *

هذه صورة من أدب التسول ، قد ألممنا بها إلماما ، وهناك صورة أخرى منه ممثلة فى المقامات ، وهى عبارة عن حكايات قصيرة قد صيغت بأسلوب أدبى رفيع ، يدور كل منها حول رجل واحد بصير بالاحتيال

لكسب الرزق الطفيف عن طريق التكدى .

والمقامات جميع مقامة ، وأصل المقامة فى اللغة كالمقام موضع القيام كمكانة ومكان ، وقد استعملت فى المجلس استعمال الأضداد كقول المسيب:

وكالمسك ترب مقامانهم وترب قبورهم أطيب

وانتقلت منه إلى الجماعة الجالسين كقول لبيد العامرى :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام

وقول زهير بن أبى سلمى :

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

ثم سميت الأحدوثة من الكلام مقامة كأنها تذكر فى مجلس واحد تجتمع فيه الجماعة لسماعها . قال الشريشى : « والمقامات المجالس واحدها مقامة ، والحديث يجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين للمحدث مابين قائم وجالس ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة، ويجلس ببعضه أخرى ، قال الأعلم : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير » . (١)

وقد تتبع بروكلمان تطور معنى « مقامة » منذ العصر الجاهلى حتى القرن الرابع فقال ماملخصه إن أقدم معانى المقامة يرجع إلى أيام الجاهلية إذ كانت عبارة عن مجتمع القبيلة ، ثم اتخذت شكلا دينيا فى أيام الأمويين إذ أصبحت أحاديث زهدية تروى فى مجالس الخلفاء ، ثم تطور معناها فصارت تقرن بالشعر والأدب وأخبار الوقائع القديمة . ولكنها فى القرن الثالث الهجرى تهبط من مستواها الرفيع إلى مستوى الكدية والاستجداء بلغة مختارة، ولم تتخذ شكلها الحقيقى إلا على يدى بديع الزمان ثم الحريرى .

(١) شرح المقامات الحريرية ١ : ١٠

يتضح من هذا أن المقامات بمعناها الاصطلاحى لم تكن معروفة قبل البديع، وأن البديع هو أول من ابتدعها من كتاب العربية، وقد أيد الحريرى هذا الرأى بما لا يتطرق إليه الشك وذلك حين يقول فى ديباجة مقاماته :

« وبعد فإنه جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه وخبت مصابيحه ، ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان فأشار من إشارته حكم وطاعته غنم ، إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع ، هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سباق غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدى بعده لإنشاء مقامة ولو أوتى بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فضالته، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته» (١)

ثم تابع الحريرى صاحب صبح الأعشى فى هذا فقال :

« إن أول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر ، وإمام الأدب ، البديع الهمذانى ، فعمل مقاماته المشهورة ، المنسوبة إليه ، وهى فى غاية البلاغة وعلو الرتبة فى الصنعة » . (٢)

فالقدماء إذن يعترفون بأن البديع هو أول من فتح باب عمل المقامات وأنه أستاذ كل من كتب فى هذا الفن من بعده، ولم يخالفهم فى هذا المذهب غير أبى إسحق الحصرى صاحب زهر الآداب ، فقد ذهب إلى أن البديع كان متأثراً بابن دريد حين كتب مقاماته ، وذلك حين قال فى عرض كلامه على بديع الزمان :

« ولما رأى — أى البديع — أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثاً ذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستنخبها من

---

(١) شرح المقامات للزمخشرى ط ليدن ص ٣ (٢) صبح الأعشى ١٤ : ١١٠

معادن فكره وأبداها للأبصار والبصائر وأهداها للأفكار والضمائر فى معارض عجمية وألفاظ حوشية ، فجاء أكثرها تنبو عن قبوله الطباع ولا ترفع له حجبها الأسماع، وتوسع فيها إذ صرّف ألفاظها ومعانيها فى وجوه مختلفة وضروب منصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا وتقطر حسنا ولا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى، عطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الإسكندرى وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافثان السحر فى معان تضحك الحزين وتحرك الرصين ، وتطالع منهما كل طريفة وتوقف منهما على كل لطيفة » .

وقد يظهر لقارئ هذا النص أول وهلة أن الحصرى يذهب إلى أن مبتدع المقامات هو ابن دريد لا البديع ، وأن مقامات البديع لم تكن إلا صدى لأحاديث ابن دريد .

هذا ما يتبادر إلى الذهن ، أو يخطر بالبال حين تقع العين على كلام الحصرى، ولكننا حين نعيد قراءة هذا النص بإمعان وتدقيق يساورنا الشك فى صحة هذه الدعوى ، ذلك لأنها لا تستند إلى أساس معقول ، وإلا فأين مواطن التأثر والتأثير المتبادلين بين ابن دريد فى أحاديثه و بين البديع فى مقاماته؟ وأين العلاقة الفنية بين هذين الأثرين الأدبيين ؟ أهى فى خصائص الأسلوب أم هى فى المعانى والأفكار ؟ أم هى فى الموضوع ؟ أم هى فى هذه الأمور جميعا ؟

لم يشر الحصرى فى نصه إلى شىء من ذلك ، ولم يتعرض إلى ذكر وجوه الشبه بين أحاديث ابن دريد والمقامات ، تلك الوجوه التى يمكن أن تتخذ

دليلا على وجود التقليد والاحتذاء بين أديب وأديب ، وربما كان كلام الحصرى دالا على وجود الاختلاف أكثر من دلالته على وجوه الاتفاق بين هذين الأثرين الأدبيين . فأحاديث ابن دريد ـ كما يقول الحصرى ـ غريبة مسرفة فى الغرابة ، غريبة فى معانيها ، لأن المؤلف استنبطها من ينابيع صدره ، وانتخبها من معادن فكره ، لأنه جاء بها من عالم الوهم والخيال ، وغريبة فى لغتها أيضاً لأن المؤلف وضعها فى معارض حوشية وألفاظ عنجهية ، ولهذا كانت هذه الأحاديث مما تنبو عن قبوله الطباع ، وتمجه الأسماع .

أما المقامات فقد كانت على العكس من ذلك تماماً ، كانت مألوفة قريبة المأخذ ، سهلة التناول ، لأن المؤلف استمد معانيها من الواقع الملموس ، من حياة المكدين الذين كثروا فى عصره ، ومن نوادرهم ولطائفهم وطرائفهم ، ثم صاغها بألفاظ ، هى در من الدر ، وسحر من السحر ولهذا كانت هذه المقامات رقيقة ، تذوب ظرفاً ، جميلة ، تقطر حسناً ، وكانت لطيفة تضحك الحزين ، وتحرك الرصين . . . ، ثم هى ـ بعد ذلك كله ـ أقرب إلى الفن الروائى وأدخل فيه من حيث إنها تقوم على المساجلة والحوار بين شخصين ومن حيث إنها تدور على بطل واحد .

وقد يتضح لنا من هذا التحليل أن كلام الحصرى لا يدل على وجود خصائص فنية مشتركة بين أحاديث ابن دريد ومقامات البديع وإنما هو يدل على أنهما كانا على طرفى نقيض شكلا وموضوعاً . فإذا صح هذا الاستنتاج ، وإذا استقامت مقدماته ، فإن الحصرى لم يكن يرمى فى كلامه هذا إلى القول بأن فى أحاديث ابن دريد ما يشبه المقامات أو مصادر للمقامات ، كما يزعم المقدسى ، وإنه لم يكن يريد أن يقول إن إبن دريد هو أول من كتب فى

فن المقامات كما يدعى الدكتور زكى مبارك .

إلى أى شيء يرمى الحصرى إذن ؟ وماذا يقصد ؟ وهل من سبيل إلى توجيه جديد لهذا النص ؟

أغلب الظن أن الحصرى أراد أن يقول إن تأليف ابن دريد ـ أعنى مجرد التأليف ـ قد أوحى إلى البديع بتأليف مقاماته ، ويؤيد هذا الرأى ما لاحظناه سابقاً من انعدام وجوه الشبه التى لابد من أن تتوافر بين نصين أدبيين لكى تتحقق المعارضة بينهما .

ويؤيده أيضا ورود كلمة «عارض» فى رواية ياقوت مسندة إلى ضمير يعود على ابن دريد نفسه ، لاعلى أحاديثه الأربعين كما جاء فى رواية زهر الآداب ، مما يدل على أن المعارضة وقعت بين صنيع المؤلفين لا بين آثارهما الأدبية . فكأن الحصرى أراد أن يقول إن البديع قد ابتدع مقاماته كما ابتدع ابن دريد أحاديثه،ولهذا فهما متشابهان فى عملهما من حيث إن كليهما كان مبتكراً مبتدعاً لما أنشأ من أدب ، ولكنهما بعد ذلك مختلفان من حيث إن كليهما قد نهج فى أدبه منهجاً خاصاً ، تدل عليه تلك الفروق التى لاحظناها سابقاً بين أحاديث ابن دريد والمقامات . ومن هنا أصبحت المعارضة بينهما مستحيلة .

فإذا كان ذلك ما يرمى إليه الحصرى فى كلامه ، فإنه ليس بشيء ذى خطر، ذلك لأن وضع الأحاديث والقصص لم يكن وقفاً على ابن دريد وحده ، وإنما شاركه فيه كثير من الأدباء قدماء ومعاصرين . ولهذا فمن الخطأ أن يقال إن البديع كان متأثراً بابن دريد دون غيره من الكتاب ، إذ ما المانع من أن يتأثر البديع بهؤلاء القصاص والرواة الذين عاصروه أو تقدموه ، إن كان وضع الأحاديث والقصص مما يمكن أن يعتبر عاملا من عوامل

التأثر والتأثير بين أديب وأديب ؟ لاشىء طبعاً .

هذا من ناحية ، وأما من ناحية أخرى فإننا لم نجد بين الكتاب الذين عاصروا بديع الزمان من أخذ عليه هذا المأخذ فرماه بالتقليد أو المجاراة بل بالعكس نجد الخوارزمى ـ وقد كان خصماً ألد للبديع ـ يعجب بالمقامات ويستحسنها ، حتى إنه ليذهب إلى أن البديع لايحسن سواها . (١) وتلك شهادة لها قيمتها دون شك ، لأنها صادرة عن كاتب قدير كان يتسقط هفوات خصمه ، ويتربص به الدوائر . فلو كانت المقامات تقليداً أو احتذاء لأحاديث ابن دريد لما فات الخوارزمى أن يتخذ من ذلك وسيلة لمهاجمة البديع والقدح فيه ، والغض منه ، كما هاجمه وقدح فيه وغض منه فى نواح أخرى .

ونتساءل بعد هذا ، لماذا حمل الباحثون المعاصرون كلام الحصرى من المعانى فوق ما يحتمل ، فأساءوا إلى البديع إذ جحدوا فضله وأضافوا إلى ابن دريد ما ليس له ؟

أكبر الظن أن سبب ذلك إنما يعود إلى اعتمادهم على زهر الآداب دون غيره من المصادر باعتباره الأصل الذى نقل عنه الناقلون فيما بعد . ولكن فاتهم أن هذا الأصل قد دخله التحريف فأحال معناه ، وجعله متهافتاً متناقضا ، فنحن إذ نقارن بين ماورد فى زهر الآداب وما ورد فى معجم الأدباء نجد اختلافا واضحا بين الناقل والمنقول عنه فى أكثر من موضع . مثال ذلك أن عبارة : « وأهداها للأفكار والضمائر فى معارض عجمية وألفاظ حوشية » ، قد وردت فى معجم ياقوت على هذا النحو : « وأهداها ... فى معارض حوشية وألفاظ عنجهية » ، وأن عبارة : « عارضها ... » قد وردت فيه هكذا « عارضه .... » . (٢)

---

(١) رسائل الهمذانى ص ٣٨٩ - ٣٩٠ (٢) معجم الأدباء ٢ : ٩٧٠

ترى أى الروايتين أقرب إلى الصواب؟رواية ياقوت أم رواية زهر الآداب؟ رواية الناقل أم رواية المنقول عنه ؟ . لاشك عندى فى أن رواية ياقوت أصح من رواية زهر الآداب ، بالرغم من أن الأولى مأخوذة عن الثانية، فقد يتراءى لى أن أيدى النساخ قد عبثت بهذا الأصل فحرفت ألفاظه عن مواضعها ، فتغير معناه تبعا لهذا التحريف ، أستدل على ذلك من ورود كلمة « عجمية » فى غير موضعها ، من إقحامها فى كلام لا ينسجم معها لفظا ولا معنى ، إذ استعملت فى ثنايا كلام سيق فى وصف أحاديث منتزعة من صميم الحياة العربية القديمة ، بعيدة كل البعد عن الحياة الفارسية ، تلك هى أحاديث ابن دريد . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فكيف يمكن أن يكون الحديث عن مقاول حمير ثم يوضع فى معارض عجمية ؟! بل كيف يوضع ذلك الحديث فى معارض عجمية ثم تنبو عن قبوله الطباع ولا ترفع له حجبها الأسماع ؟ وهل كانت هذه الأسماع وتلك الطباع إلا فارسية ، عصرية ؟ فلماذا إذن تنبو عنه ولا تأنس به ؟

ما من ريب فى أن استعمال « عجمية » فى مثل هذا الموضع من كلام الحصرى يجعله متناقضاً ، ولا سبيل إلى اجتناب هذا التناقض إلا إذا سلمنا بصحة عبارة ياقوت ، أعنى إلا إذا اعتبرنا « عجمية » محرفة عن « عنجهية » و « عارضها » محرفة عن « عارضه » ، وهكذا .

وليس غريبا بعد ذلك أن نرى المعاصرين يخدعون عن أنفسهم بهذا التحريف الذى أصاب كلام الحصرى فى زهر الآداب فيذهب بعضهم - وقد ضللته عبارة « فى معارض عجمية » الواردة فى وصف أحاديث ابن دريد - إلى القول بأن ابن دريد هذا قد « ابتكر نوعاً من الأدب اشتقه من الحياة

الفارسية ليعارض به أدبها » (١) ، مع أن هذا النوع من الأدب لم يكن من الحياة الفارسية فى شىء . وقد أشرنا إلى ذلك منذ قليل .

وكذلك يذهب آخرون ، وقد ضللهم النص المحرف ولا سيما عبارة « عارضها بأربعمائة مقامة » ، إلى القول بأن ابن دريد هو أول من ركض فى هذا المضمار (٢) ، وأن أحاديثه كانت من أهم الأصول التى اعتمدها بديع الزمان فى إنشاء المقامات . (٣)

لقد زعموا ذلك دون أن يؤيدوا زعمهم هذا بالحجة والدليل ، اللهم إلا المقدسى ، فإنه حين افترض وجود صلة فنية متينة بين المقامات وأحاديث ابن دريد حاول أن يدلل عليها بما يمكن أن يكون بينهما من خصائص فنية مشتركة ، ولهذا لجأ إلى الموازنة فخرج بهـــذه النتيجة ، وهى أنك : « إذا راجعت أحاديث ابن دريد المروية فى أمالى القالى تجد فى جميعها روح الحكاية كما تجدها فى المقامات ، وتجد فيها هذا الميل إلى التسجيع فى أثناء الوصف . . . » (٤)

ذلك أهم ماتوصل إليه المقدسى من الخصائص المشتركة بين هذين الأثرين الأدبيين مطمئناً إلى أنها تكفى لإثبات تلك الصلة الفنية التى ادعى أنها صلة متينة لا شك فى متانتها .

وليس من شك فى أن اطمئنان المقدسى إلى هذه النتيجة أمر غريب جداً لأنه مبنى على أساس واه متداع ، ذلك لأن روح الحكاية والميل إلى السجع

---

(١) تاريخ الأدب العربى للسباعى ص ٢٦٢
(٢) الأدب العربى للإسكندرى ص ٢١١
(٣) تطور الأساليب النثرية للمقدسى ص ٣٧٨
(٤) المصدر السابق ص ٣٨١

لم يكونا من خصائص المقامات وأحاديث ابن دريد وحدهما ، بل كانا من الخصائص العامة التى نجدها فى الأحاديث والأسمار والأخبار والقصص . ونظرة عامة إلى الحياة الأدبية فى القرن الرابع توحى إلينا بأن كلف الأدباء بالسجع ونزعتهم إلى القصص كانا من الظواهر الأدبية الشائعة فى هذا العصر ، وإذا كان الأمر كذلك فإنه من الخطأ أن نعتبر البديع متأثراً بابن دريد إذا ما نزع إلى القصص أو مال إلى السجع فى مقاماته ، ولا نعتبره متأثراً بالذوق الأدبى العام فى عصره .

بعد هذا كله نستطيع أن نقول إن المقامات بمعناها الاصطلاحى أو بشكلها الفنى المعروف لم تتحقق إلا على يدى بديع الزمان الهمذانى ، كما نستطيع أن نقول إن البديع هذا لم يكن متأثراً حين أنشأ هذه المقامات بأحد من الكتاب الذين سبقوه ، وإنما كان متأثراً بواقع الحياة العامة : بالبؤس والحرمان والإملاق ، تلك الظواهر الإجتماعية التى حملت كثيراً من الناس على التكدى والتسول بمختلف الوسائل والحيل فكان منهم الغزاة المتصنعون والأعراب المنتجعون ، والزهاد وأبناء السبيل ، والحواة والقرادة والسحرة والمشعوذة والقصاص ، والنائحون وغير ذلك ممن تألفت منهم تلك الطائفة الكبيرة الذين كانوا يسمون بالساسانية أو بنى ساسان . وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

فالمقامات إذن كانت صدى لحرفة الكديه ، وصورة لحياة المكدين ، ولهذا لم تكن بدعاً بين الآثار الأدبية فى هذا العصر فى أسلوبها ومعانيها فهى من حيث الأسلوب خاضعة للذوق الأدبى العام الذى كان يكلف بالسجع ويهيم بالمحسنات البديعية ، ويميل إلى تضمين النثر حكماً وأمثالا وأشعاراً وهى ـ من حيث المعانى ـ لم تكن تختلف عما أثر عن شعراء

الصعاليك من شعر صعلوكى .

وإذا شئت دليلا على ذلك فاقرأ القصيدة الساسانية لأبى دلف الخزرجى والدالية للأحنف العكبرى وغيرهما ، ثم اقرأ المقامات ، ثم وازن بين هذه وتلك ، فإنك ستجد مصدر الإلهام فى جميعها واحداً ، وستجد الكثير من المعانى والأفكار والآراء مشتركا ، أريد أن أقول إن جميع هذه الآثار الأدبية كانت تصدر عن واد واحد هو الصعلكة ، وأن جميعها كان يصور حياة الصعاليك وما لازمها من تشرد واغتراب وذلة وبؤس ووسائل احتيال ومخرقة ، وما نشأ عنها من آراء وحكم تقال فى الناس والزمان والحياة ، ولهذا نجد أبا الفتح - كما صوره البديع فى المقامات - يشبه الأحنف وأبا دلف وغيرهما من الصعاليك فى أخلاقه وسلوكه وتشرده وحيله وآرائه ، حتى إننا نراه ينطق بلسان أبى دلف فى بعض الأحيان ، إذ استعار قوله فى الزمان فختم به إحدى المقامات .

وعلى هذا ، كانت المقامات نوعا من أدب الصعلكة الذى ازدهر فى هذا العصر ، ولكنها ، بعد ذلك ، تمتاز عنه بأسلوب أدبى رفيع بعيد عن التكلف والإغراب ، خال من الألفاظ والعبارات الصعلوكية التى نجدها فى شعر أبى دلف وابن الحجاج مثلا ، كما أنها تمتاز بنزعتها القصصية من حيث إنها قائمة على الحوار والنقاش بين شخصين خياليين ، ومن حيث إنها تدور حول بطل واحد هو أبو الفتح الإسكندرى ، فهى إذن رواية ، أو شبيهة بالرواية ، ذات فصول متعددة أراد المؤلف أن يصور بها حياة الشحاذين ممثلة فى شخص أبى الفتح الإسكندرى .

ونحن إذ نقرأ المقامات نجدها تصور أبا الفتح مجربا قد عرك الحياة وعركته فبلا حلوها ومرها ، وتصوره ملما بأطراف ثقافة واسعة ، فيقول الشعر

« يمتزج بأجزاء النفس رقة ، ويغمض عن أوهام الكهنة دقة » . (١) ويغشى مجالس الأدب ويشارك فيما يدور فيها من مذاكرات ومناقشات حول الأدب والأدباء ، سائلا ومجيبا ومباحثا وناقداً . فتراه مثلا يسأل الحاضرين « عرفونى أى بيت شطره يرفع وشطره يدفع ؟ وأى بيت نصفه يغضب ونصفه يلعب (٢) » ؟ ويجيبهم إذا سألوه عن شاعر كزهير فيقول : (٣) « يذيب الشعر والشعر يذيبه ويدعو القول والسحر يجيبه » ، وتراه أيضا يبدى رأيه فى الجاحظ وأدبه فيقول : (٤) « فهلموا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله » .

وكذلك نجدها تصوره متحليا بالعلوم ، قد راض صعابها ، وخاض بحارها ، حتى كان له فى كل كنانة سهم (٥) . وتصوره فقيها يحسن النقاش فى المسائل المذهبية ، حين يهاجم المعتزلة ويدحض آراءهم واحداً بعد واحد بالدليل والبرهان بمثل قوله : (٦) « وتقولون خالق الظلم ظالم أفلا تقولون خالق الهلك هالك ؟ أتعلمون يقينا أنكم أخبث من إبليس دينا ؟ قال : رب أغويتنى ، فأقر وأنكرتم ، وآمن وكفرتم . وتقولون خير فاختار ، وكلا فإن المختار لا يبعج بطنه ولا يفقأ عينه ولا يرمى من حالق ابنه » .

هكذا كان أبو الفتح الإسكندرى بطل المقامات : عالما ، أديباً ، ذا عقل راجح ورأى سديد ، وبيان خلاب « يسمع الصم ، وينزل العصم » ولكنه بالرغم من هذا العلم والفضل رضى بالعيش الرذل واطمأن إليه ، أعنى أنه

(١) المقامة الأسدية (٢) المقامة الشعرية (٣) المقامة القريضية
(٤) المقامة الجاحظية (٥) المقامة العراقية (٦) المقامة المارستانية

رضى أن يعيش عن طريق التسول فأراق ماء وجهه وأهدر كرامته، وتبرأ من مروءته . وهان على نفسه حتى صدق عليه قول الشاعر :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

ولكن لماذا رضى أبو الفتح الإسكندرى بهذا المصير التعس فعاش صعلوكا متشرداً ، مهين الكرامة ، ذليل النفس ، وقد كان له من أدوات العلم والفضل والذكاء ما يمكنه من العيش حراً كريما بين أبناء وطنه ؟

يخيل إلى أن بديع الزمان حين أخرج بطله على هذا النحو أراد أن يتخذ منه رمزا للرجل العالم الفاضل الذى تقسو عليه ظروف الحياة فتضطره إلى الانحدار فى هوة الكدية اضطراراً ، أو أنه أراد أن يتخذ منه مثلا لهؤلاء الأدباء والعلماء الذين ألح عليهم الحرمان فحملهم على السخرية من العقل والعلم والأدب والتقاليد ، والانضواء تحت راية السخف والهزل والاستهتار ، إذ ليس من الصعب علينا أن نجد بين أدباء العصر البويهى من يشبه أبا الفتح الإسكندرى من وجوه كثيرة كابن الحجاج وابن سكرة وأبى الورد ، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبى حيان التوحيدى وبديع الزمان الهمذانى نفسه ، ومن يشبهه كل الشبه كأبى دلف والأحنف .

ولكن لماذا نكلف أنفسنا مشقة التخيل والظن فى التعرف على الأسباب التى حملت هذا الرجل المثقف على التكدى والتسول ، وهو نفسه يصرح بهذه الأسباب فى كل مقامة من مقاماته .

فقد ألقى عيسى بن هشام على أبى الفتح مثل هذا السؤال فى غير موضع من المقامات ، فأجابه بما لا يخرج فى معناه عن قوله هذا : [١]

هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم

(١) المقامة الساسانية

الحمق فيه مليح   والعقل عيب ولوم
والمال طيف ولكن   حول اللئام يحوم

أو قوله : [١]

بؤسا لهذا الزمان من زمن   كل تصاريف أمره عجب
أصبح حربا لكل ذى أدب   كأنما ساء أمه الأدب

فأبو الفتح الإسكندرى إذن يصرح بأنه لم يكن حراً فى تصرفه وسلوكه فى الحياة ، وإنما كان يصدر فى هذا التصرف وهذا السلوك عن عوامل قسرية قاسية تضطره إلى أن يسير فى هذه السبيل أو تلك اضطراراً دون أن يكون له فى ذلك إرادة أو اختيار ، شأنه شأن الريشة فى مهب الريح ، أو السفينة فى عرض البحر تتقاذفها أمواجه ، ذلك لأن هذا الزمان الغشوم العاتى لاينفك يحارب أهل العلم والأدب والفضل دون هوادة أو لين ، بينما تراه يسالم الأدنياء وضعاف النفوس وصغارالأحلام وسخفاء العقول ويفسح لهم من صدره مكانا رحيبا ، حتى لقد أصبح الحمق والغباء وضعف العقل من الأمور المستحسنةالتى لاغنى للأنسان عنها فىهذا الزمان ، كماأصبح المال — وهو عماد الحياة — سريعا فى انتقاله سرعة الطيف ،وشيك التحول كثير التردد ، ولكنه إنما يحوم حول اللئام الخبثاء ولهذا أصبح لزاما على من يريد أن يثرى أو يكون ذا مال ، أن يتخلق بأخلاقهم ويتصف بصفاتهم .

وإذا كان هذا أمر الزمان ، وتلك صفات أهله،فما ذنب أبى الفتح إذا ما أهمل عقله وازدرى علمه وأدبه ، وانطلق فى سخفه وهزلهسعيا وراء الرزق والقوت ؟

---

(١) المقامة العراقية

لا شك فى أنه على حق إذا تصعلك وتسول، وإذا احتال ومخرق ، وإذا تجانن وتساخف ،وإذا دجل وموه ، وهو الذى قد جعجع به الدهر عن ثمه ورمه ، وأتلاه زغاليل حمر الحواصل ... ونشزت عليه البيض وشمست منه الصفر وأكلته السود وحطمته الحمر ... الخ . (١)

ولهذا فلا نعجب إذا رأينا أبا الفتح ينحدر إلى هوة الكدية فيحمل أوزارها وتبعاتها الثقيلة المزرية بالكرامة والمروءة ، فيجعل حياته كلها سلسلة من الأسفار والمغامرات فى طلب المال .

وإن نظرة بسيطة إلى المقامات تصور لنا أبا الفتح جوالا،خفيف الحركة سريع التنقل ، كثير التلون ، وتصوره حولا قلبا فى أخلاقه وطباعه ، وفى حيله وأساليبه ، وفى آرائه وأفكاره ، فقد كان أبو الفتح يلبس لكل حالة لبوسها، لأنه يريد أن يلائم بين سلوكه وبين بيئته، وأن يجارى زمانا أمعن فى الباطل وتمادى فى الغرور ، ولذلك كان من الخفة والنشاط بحيث يستطيع أن يتغير ويسرع فى التغير كلما تغيرت ليالى الزمان. وإن شئت شاهداً على ذلك فاقرأ قوله هذا :(٢)

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور
لا تلتزم حالة ولكن در بالليالى كما تدور

كذلك كان أبو الفتح لا يثبت على حال كما كان زمانه لا يثبت على حال. نلاحظ ذلك فى كثرة تنقله واضطرابه فى البلاد ، فهو لم يترك بلداً فى العراق وفارس وسجستان وخراسان وقزوين وطبرستان وأرمينية وأذربيجان والأهواز وبلاد العرب وغيرها إلا دخله ، وفى ذلك يقول : (٣)

---

(١) المقامة البصرية (٢) المقامة القريضية (٣) المقامة الأذربيجانية

أنا جوالة البلا د وجوابة الأفق
أنا خذروفة الزما ن وعمارة الطرق
لا تلمنى لك الرشا د على كديتى وذق

ونلاحظ ذلك أيضا فى تنوع أساليبه وحيله فى التسول وفيما يعقب عليها من آراء وحكم يبرر بها سلوكه فى اكتساب الرزق ، فنراه مثلا فى المقامة الساسانية زعيما لكتيبة من بنى ساسان قد لفوا رؤوسهم وطلوا بالمغرة لبوسهم ، وتأبط كل واحد منهم حجراً يدق به صدره ، يقول وهم يراسلونه ، ويدعو ويجاوبونه .

وفى المقامة الخمرية إماما يصلى فى الناس وناسكا يدعوهم إلى اجتناب الخمر أم الكبائر ، ولكنه ما إن ينتهى من صلاته وخطبته فى المسجد حتى يؤم الحان ليقوم بوظيفة المطرب فيه ، فإذا كشف أمره وعوتب فى ذلك قال مفتخراً :

دع من اللوم ولكن أى دكاك ترانى
أنا من يعرفه كل تهام ويمانى
أنا من كل غبار أنا من كل مكان
ساعة ألزم محرا باً وأخرى بيت حان

وفى المقامة القزوينية متنكراً فى زى الغزاة المجاهدين ، يخطب الناس فيقول : ياقوم وطئت داركم بعزم لا العشق شاقه ولا الفقر ساقه وقد تركت وراء ظهرى حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وخيلا مسومة وقناطير مقنطرة وعدة وعديداً ومراكب وعبيداً وخرجت خروج الحية من جحره وبرزت بروز الطائر من وكره ، مؤثراً دينى على دنياى ، جامعاً يمناى إلى يسراى ، واصلا سيرى بسراى ، فلو دفعتم النار بشرارها ورميتم

الروم بحجارها واعتنموني على غزوها ، مساعدة وإسعاداً ، ومرافدة وإرفاداً ولا شطط فكل على قدر قدرته ، وحسب ثروته ، ولا أستكثر البدرة وأقبل الذرة ولا أرد التمرة . . . حتى إذا انتهى من كلامه قال له أحدهم : أأنت من أولاد النبيط ؟ فيجيب بقوله :

أنا حالى من الزما ن كحالى مع النسب
نسبى فى يد الزما ن إذا سامه انقلب
أنا أمسى من النبيط وأضحى مع العرب

وفى المقامة القردية قراداً ، يرقص قرده ، ويضحك من عنده ، فإذا فرغ من شغله وانفض المجلس من حوله قال له عيسى بن هشام بعد أن عرف أمره : ما هذه الدناءة ويحك ؟ فأجاب :

الذنب للأيام لا لى فاعتب على صرف الليالى
بالحمق أدركت المنى ورفلت فى حلل الجمال

وفى الموصلية دجالا يدعى إحياء الموتى وكشف الضر والبلاء ، فتجوز حيله على الناس المغفلين ، ويفوز منهم بالطعام والشراب ، ثم يفر هارباً وهو ينشد :

لا يبعد الله مثلى وأين مثلى أينا ؟!
لله غفلة قوم غنمتها بالهوينا !
اكتلت خيراً عليهم وكلت زوراً ومينا

هكذا كانت حياة أبى الفتح ، ذلك الشحاذ المثقف ، قائمة على الأسفار والاغتراب والتشرد والدجل والتمويه والاحتيال ، وكانت على اختلاف نواحيها مبنية على مبدأ « الغاية تبرر الواسطة » ، ذلك المبدأ الذى ساد جوانب الحياة الاجتماعية فى العصر البويهى .

يظهر لنا مما تقدم أن المقامات فى مجموعها كانت صدى لظاهرة الكدية كغيرها من فنون الأدب الصعلوكى ، ولم تكن فناً من الأدب يقصد منه التمرن على الإنشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر كما خيل لابن الطقطقى .(١)

٭ ٭ ٭

وأما أدب الشكوى ، وهو النوع الثانى من أدب الحرمان، فقد كان أثراً لما أصاب الناس فى هذا العصر من ضروب المحن والنكبات وألوان الفاقة والبؤس ، فذوو المناصب الكبيرة كثيراً ما كانوا يتعرضون للقتل والسجن واستصفاء الأموال ، والأغنياء قلما تصفو لهم الحياة لأنهم مهددون بالاستيلاء على أموالهم ، والمثقفون لايكادون يحصلون على الكفاف من العيش والطبقة العامة فريسة للجوع والمرض والجهل .

وقد كثر تعرض الناس للبلاء حتى قال ابن زرعة فى ذلك : (٢) « والناس أهداف لأغراض الزمان ، مقلبون بحوادث الدهور ، ولا فكاك لهم من المكاره ، كما قالت العامة فى التحذير من التعرض له « تنح عن طريق القافية » .

لهذا كثرت الشكوى من النكبات والظلم والفقر وسوء الحال كثرة هائلة لانجد لها مثيلا فى أى عصر من العصور ، فكان من أثر ذلك هذا الأدب الشاكى الحزين الذى نقرأه فى دواوين الشعراء ورسائل الكتاب يندبون فيه الحظ العاثر ، ويشكون فيه الجوع والعرى وقلة الرزق ويسجلون فيه مرارة الفشل والإخفاق فى ميدان الحياة .

فهذا أبو إسحق الصابى على ماكان يتمتع به من مكانة ممتازة ومحل

---

(١) الفخرى ص١٣ (٢) الإمتاع والمؤانسة ٣ : ٦٣

رفيع فى الدولة «دفع فى أيام عضد الدولة إلى النكبة العظمى والطامة الكبرى». فألقى فى السجن سنين قال خلالها كثيرا من الشعر الشاكى أفرد له صاحب اليتيمة فصلا خاصا به نذكر منه هذه الأبيات :

أخرج من نكبة وأدخل فى أخـــرى فنحسى بهن متصل
كأنهـا ســـنة مؤكـدة لابد من أن تقيمها الدول
فالعيش مر كأنه صـــبر والموت حلو كأنه عسل

وهذا أبوبكر القومسى الفيلسوف كان من الضر والفاقة ومقاساة الشدة والإضاقة بمنزلة عظيمة ، قال يوما :

« ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان مابلغ منى ، إن قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها ، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلداً أملس ، وكأن العطوى ما أراد بقصيدته غيرى وما عنى بها سواى ثم أنشد : (١)

من رماه الآله بالإقتـار وطلاب الغنى من الأسفـار
هو فى حيرة وضنك وإفلا س وبؤس ومحنة وصغار

* * *

هجم البرد مسرعاً ويدى صفـــر وجسمى عار بغير دثار
فتسرت منـــه طول التشاريـــن إلى أن تهتكت أستارى
ونسجت الأطمار بالخيط والإبـــرة حتى عريت من أطمارى
وسعى القمل من دروز قميصى من صغار ما بينهم وكبار
يتساعون فى ثيابى إلى رأ سى قطاراً تجول بعد قطار
ثم وافى كانون وأسود وجهى وأتانى ما كان منه حذارى

وهذا أبو حيان التوحيدى على « علمه الواسع وأدبه الفياض وفلسفته

---

(١) معجم الأدباء ١٥ : ١٠

وبلاغته وتصوفه واتصاله بالوزراء والعلماء وكده فى الحياة بالوراقة ونسخ الكتب . . . . . » [١] كان يشكو فقره وبؤسه ، ويكثر من الشكوى بأسلوب يستثير الدمع ويبعث على الرثاء والإشفاق ، فمن ذلك قوله فى مقدمة كتاب الصداقة والصديق : [٢]

« . . . . ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما فى النفس من الحرق والأسف والحسرة والغيظ والكمد والومد، وكأنى بغيرك إذا قرأها تقبضت نفسه عنها وأمرّ نقده عليها وأنكر علىّ التطويل والتهويل بها وإنما أشرت بهذا إلى غيرك لأنك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك وذلك لعلمك بحالى واطلاعك على دخلتى ، واستمرارى على هذا الإنفاض والعوز اللذين قد نقضا قوتى ونكثا مرتى وأفسدا حياتى وقرنانى بالأسى وحجبانى عن الأسى لأنى فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق . . . . . فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة . غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة،قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة، محتملا للأذى ، يائساً من جميع من ترى،متوقعاً لما لا بد من حلوله،فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول، وظل التلبث إلى قلوص . . . »

وقوله من رسالة وجهها إلى أبى الوفاء المهندس : [٣]

« خلصنى أيها الرجل من التكفف ، أنقذنى من لبس الفقر ، أطلقنى من قيد الضر . . . اكفنى مؤونة الغداء والعشاء . !

(١) ظهر الإسلام ص ٢١٦ (٢) الصداقة والصديق ص ٥
(٣) الإمتاع والمؤانسة ٣ : ٢٢٦

إلى متى الكسيرة اليابسة ، والبقيلة الذاوية ، والقميص المرقع ، وباقلى درب الحاجب ، وسذاب درب الرواسين ؟ إلى متى التأدم بالخبز والزيتون ؟ قد بح والله الحلق وتغير الخلق ، الله ، الله ، فى أمرى !

اجبرنى فإنى مكسور ، اسقنى فإنى صد ، أغثنى فإنى ملهوف . . . قد أذلنى السفر من بلد إلى بلد ، وخذلنى الوقوف على باب باب ونكرنى العارف بى وتباعد عنى القريب منى »(١) .

وهذا شاعر من الشعراء يحن إلى الطعام ويتحسر عليه ولا يخفى حقده على المنعمين فيقول :

نفسى تحن إلى الهلا　　م الموت من دون الهلام
من لحم جدى راضع　　رخص المفاصل والعظام
هــذا لأولاد الخطا　　يا والبغايا والحرام
حتى القدور الراسيا　　ت وإن صممن عن الكلام
وقصاعهن إذ أتينك طافحات ، بالسلام

وكما شكا الأدباء من النكبات والفقر والجوع وما إليها ، كذلك شكوا من الزمان وتبرموا بأهله حتى لقد أصبح الشعر الذى قيل فى هذا الموضوع فناً قائماً بذاته عند كثير من الشعراء لكثرة ما نظموا فيه من شعر كابن لنكك البصرى والشريف الرضى وابن الحجاج وأبى الحسن السلامى وابن سكرة الهاشمى وأمثالهم حتى إنه قلما نجد أديباً فى هذا العصر لم يكن له شعر أو نثر فى هذا الباب .

ومما لا ريب فيه أن مصدر هذه الشكوى من الزمان هو الخطوب والمحن التى ألحت على الناس فى هذه الفترة فطبعت حياتهم بطابع الحزن

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ٥١

والكآبة وولدت فى نفوسهم حقداً على هذه الأوضاع الفاسدة وبغضاً لها، فلما أرادوا أن يعبروا عن آلامهم وأشجانهم ويفصحوا عن سخطهم ونقمتهم على بواعثها وأسبابها لم يستطيعوا أن يكونوا صرحاء فى مواجهة الظالمين والطغاة بظلمهم وطغيانهم خوفاً من البطش والتنكيل. لهذا تجاهلوا مصدر الفساد الحقيقى وكنوا عنه بالزمان أو الدهر أو الدنيا أو نحو ذلك من الألفاظ التى توهموها قوة مسيطرة على هذا العالم تدبر شؤونه وتصرف أموره، فنسبوا إليها كل ما يصيب الإنسان فى هذه الحياة من خير وشر.

بيد أن هذا الزمان، أو ما يرادفه من الألفاظ، أعمى، يتصرف فى مقدارات البشر على غير أساس من العدل والإنصاف ودون تمييز بين الحق والباطل، فيقبل ويدبر، ويبتسم ويعبس، ويفى ويغدر على غير هدى ولا بصيرة.

فهذا الزمان إذن مصدر البلاء وأس الداء، فهو لذلك جدير بحقد البائسين والمنكوبين، خليق بالذم والثلب والهجاء بأشنع الأوصاف، وهؤلاء الأفراد من بنى الإنسان الذين يجارونه فى نزقه وطيشه وعبثه، ويسيرون فى ركبه هم أيضا شركاء معه فى الإثم يستحقون اللوم والتقريع والذم.

هذه الحياة النفسية الكئيبة التى سيطرت على الناس فى هذه الحقبة قد أنتجت شعراً غنائيا حزينا لعله أروع وأصدق ما قيل من شعر زمن بنى بويه، ذلك لأن المعانى التى تناولها هذا الشعر مشتركة بين الناس على اختلاف الزمان والمكان، ولأنها خالدة ما بقى على وجه الأرض ظلم واستعباد واستغلال، إذا قرأناها أحسسنا فى القلب وجيبا، وفى النفس اختلاجا، لأنها تعبر عما فى

صدورنا من سخط ونقمة على ما فى دنيانا من أمور مقلوبة وأوضاع معكوسة ، ونظم فاسدة أورثتنا كثيراً من ألوان البؤس والحرمان ، ومن هنا كان الخلود صفة لازمة لأدب الشكوى من الزمان .

وربما كان ابن لنكك البصرى ، أبو الحسن محمد بن محمد ، أكثر الناس شكوى من الزمان وأشدهم سخطا على أبنائه ، وقد قال فيه الثعالبى إنه « فرد البصرة وصدر أدبائها ، وبدر ظرفائها فى زمانه ، والمرجوع إليه فى لطائف الأدب وطرائفه طول أيامه ، وكانت حرفة الأدب تمسه وتجشمه ، ومحنة الفضل تدركه فتخدشه ونفسه ترفعه ، ودهره يضعه [1] » ، ولهذا بالغ ابن لنكك فى هجو الزمان والدنيا ، فرماهما تارة بالجنون والمجون والضلال ، وأخرى بالجور والعسف والتفاهة ، كقوله :

يازمانا ألبس الأحرار ذلا ومهانه
لست عندى بزمان إنما أنت زمانه
كيف نرجو منك خيراً والعلا فيك مهانه ؟ !
أجنون ما نراه منك يبدو أم مجانه ؟

وقوله :

جار الزمان علينا فى تصرفه وأى دهر على الأحرار لم يجر؟!
عندى من الدهر ما لو أن أيسره
يلقى على الفلك الدوار لم يدر

وقوله :

لا مكث الله دنيانا فقيمتها ليست تفى عند ذى عقل بقيراط
دنيا تأبت على الأحرار عاصية وطاوعت كل صفعان وضراط

---

(١) اليتيمة ٢ : ١١٦

وبالغ أيضاً فى هجو أهل زمانه وثلبهم ، فرماهم بالجهل والحمق وقلة الإنصاف والذل واللؤم ونحو ذلك ، وشبههم بالبقر والحمير والسحاب الخالى من المطر ، والسرو الذى ليس له ثمر . . . . . . الخ .

فقال :

لاتخدعنك اللحى ولا الصور   تسعة أعشار من ترى بقر
تراهم كالسحاب منتشراً   وليس فيه لطالب مطر
فى شجر السرو منهم مثل   له رواء وما له ثمر

وقال :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم   وبقيت فى خلف بلا أكناف
بطيالس وقلانس محشوة   يتعاشرون بقلة الإنصاف

وقال :

لم يبق حر إليه يختلف   بل كل نذل عليه مختلف
يا فلكا دار بالنذالة والجهـ   ـل إلى كم تدور يا خرف ؟
فعاقل ما يبل أنملة   وجاهل باليدين يغترف

وهكذا أمعن ابن لنكك فى ذم الزمان وثلب أبنائه ، ولكن الزمان كان ممعنا فى خذلانه ، جاداً فى الإساءة إليه ، فبقى طول حياته حليف الهم والحسرة والضجر ، يردد هذا اللحن الكئيب :

إن أصبحت هممى فى الأفق عالية   فإن حظى ببطن الأرض ملتصق
كم يفعل الدهر بى ما لا أسر به   وكم يسىء زمان جائر حنق !
كم نفخة لى على الأيام من ضجر   تكاد من حرها الأيام تحترق

* * *

أما الشعراء الذين ولجوا أبواب الحياة ، وجالوا فى ميادينها سعيا وراء

الرزق ، أو طالبا للمعالى والمجد ، فنجحوا مرة وأخفقوا مرات ، فإنهم صوروا الزمان خصما جبارا ، قوى الشكيمة ، شديد المراس ، لا يغلب ، يصارع الأقوياء ، ويعبث بالضعفاء ، فإذا هم جميعا فريسة للنكبات والأحزان . ومن ذلك قول تاج الدولة :

حتى متى نكبات الدهر تقصدنى — لا أستريح من الأحزان والفكر
إذا أقول مضى ما كنت أحذره — من الزمان رمانى الدهر بالغير

وقول ابن نباتة السعدى :

فى كل يوم لنا فى الدهر معركة — هام الحوادث فى أرجائها فلق
حظى من العيش أكل كله غصص — مر المذاق وشرب كله شرق

وصوروه حولا قلبا ، يتغير ويتبدل ، كالمومس ، لا يبقى على حال ، كقول الشريف الرضى :

وخلائق الدنيا خلائق مومس — للمنع آونة وللإعطاء
طورا تبادلك الصفاء وتارة — تلقاك تنكرها من البغضاء

ونعتوه بالخسة والقبح والعسف والرعونة ، والطيش والغدر ؛ ونحو ذلك ، كقول الصابى :

قاسيت من دهرى سفيها — ما إن رأيت له شبيها
ثبتت نصال سهامه — فى ثغرة لى تنتحيها
فكأننى استقبلته — بمقاتلى إذ أتقيها

وقول ابن الحجاج :

إلى كم يخاسسنى دائما — زمانى المقبح فى عشرتى
تحيفنى ظالما غاشما — وكدر بعد الصفا عيشتى

وقول الشريف :

بليت وغيرى لا يبتلى   بأمرين ما فيهما مطمع
بدهر ألوم ولا يرعوى   ومولى أقول ولا يسمع

تلك إلمامه عامة بأدب الحرمان تصور لنا جانبا من جوانب الحياة الاجتماعية فى العصر البويهى ، أرجو أن أكون قد وفقت فى عرضها بعض التوفيق .

الفصل الثالث

أدب المجـــون

لم يكن المجون غريباً عن المجتمع الإسلامى طوال القرون الثلاثة التى سبقت هذا العصر ، بيد أنه كان محصوراً فى نطاق ضيق ، وفى بيئات محدودة ، كان مقصوراً على طائفة الخلعاء والمستهترين يمارسونه فى مجالسهم الخاصة ، أو فى بعض المحلات العامة فى شىء كثير من التستر والاستخفاء ، ذلك لأن الرأى العام فى المجتمع الإسلامى حينذاك كان يستنكر المجون ويأباه ، ولأن السلطان كان يطارد الماجنين وينزل بهم العقاب ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فالأحوص والعرجى والوليد وأبو نواس وأضرابهم كانوا يلقون من الحكومة أذى واضطهاداً ونفياً وسجناً كما كانوا يلقون من الناس نبذا وإعراضاً واستنكاراً.

أما فى القرن الرابع فى ظل بنى بويه ، وفى فارس والعراق خاصة فقد كان الأمر مختلفاً جداً عن قبل ، ذلك لأن المجون قد أصبح فى هذا العصر شيئاً مألوفاً ، لا ينكره العرف ولا يأباه الذوق الاجتماعى ، ولأن الحكومة فى هذا العصر أيضا لم تعد ترى فى ممارسة هذا المجون ما يوجب حداً أو عقابا ، بل بالعكس كانت تنظر إلى الزنا والرقص فى المحلات العامة مثلا نظرها إلى أية وسيلة من وسائل الارتزاق المشروعة كالزراعة والتجارة فهى لذلك كانت تفرض على الزوانى والراقصات فى فارس ضريبـــة

تضمنها لمن يشاء . قال الأستاذ متز : (١) « وقد وصف أحد الرحالة المسلمين حوالى عام ٣٠٠ هـ حال البغاء فى الصين وتكلم عن الزوانى ، وهن يثبتن فى ديوان خاص بهن ، يسمى ديوان الزوانى ، وعليهن فى كل سنة ضريبة يؤدينها لبيت المال ثم قال : « ونحن نحمد الله على ما طهرنا به من هذه الفتن » ولكن لم تمض على ذلك خمسون سنة حتى بلغ من إهمال عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ للشريعة أنه فرض على الراقصات والقحاب بفارس ضريبة وكان يضمن هذه الضريبة . يقول البيرونى بعد حكاية ما كان عليه ملوك الهند من فرض الضريبة على المغنيات والراقصات طلباً للمال : « وهكذا كان عضد الدولة ، وأضاف إليه حماية الرعية من عزاب الجند » . وقد أخذ الفاطميون بهذا النظام ففرضوا الرسوم على بيوت الفواحش » .

وإذا كان هذا موقف الأمة والسلطان معاً تجاه المجون فإننا نستطيع أن نتصور بعد ذلك كيف يكون السبيل ممهداً لانتشار اللهو والعبث والخلاعة ، وكيف يكون الاستخفاف والاستهتار بالدين والأخلاق والتقاليد الاجتماعية .

فكان من نتيجة هذا التساهل من جانب الأمة والحكومة أن كثرت دور البغاء العلنى ، وبيوت الغناء واللهو والخلاعة فى المحلات العامة والخاصة. يدلنا على ذلك ما تحدث به المقدسى عن شيوع الفسق والفجور فى فارس والأهواز فقال وهو يتكلم عن مدينة السوس قصبة خوزستان : « ترى دور الزنا عند أبواب الجامع ظاهرة ، ثم لا ترى لقرائهم ولا لمشايخهم هيبة ولا لمذكريهم قيمة ولا حسبة ويقطعون أوقاتهم بالرقص » . (٢)

---

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٤١ (٢) أحسن التقاسيم ص ٤٠٧

وقال فى أهل شيراز . « عدولهم لوطة وتجارهم فسقة وسلاطينهم ظلمة ... يدخلون الحمامات بلا ميازر ، ولا ترى على مجوسى غياراً ، ولا لصاحب طيلسان مقداراً . . . ولقد رأيت أهل الطيالس سكارى ، ويلبسه المكدون والنصارى ، وبه دور الزنا ظاهرة ، ورسوم المجوس مستعملة ، وفى المقابر مجتمع الفساق » . (١)

ويدلنا على ذلك أيضا ما تحدث به التوحيدى عن كثرة المغنين والمغنيات فى بغداد ، وعن شدة شغف الناس بالغناء عامتهم وخاصتهم ، وذلك حين يقول : « ولو ذكرت هذه الأطراب من المستمعين ، والأغانى من الرجال والصبيان والجوارى والحرائر لطال وأمل ، وزاحمت كل من صنف كتابا فى الأغانى والألحان ، وعهدى بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة » . ثم قال :

« وقد أحصينا — ونحن جماعة فى الكرخ — أربعمائة وستين جارية فى الجانبين ومائة وعشرين حرة وخمسة وتسعين من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، هذا سوى من كنا لا نظفر به ، ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب ، إلا إذا نشط فى وقت أو ثمل فى حال وخلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه ، وترنم وأوقع وهز رأسه ، وصعد أنفاسه وأطرب جلاسه ، واستكتمهم حاله وكشف عندهم حجابه وادعى الثقة بهم والاستنامة إلى حفاظهم » (٢)

ومما له عظيم الدلالة على انتشار بيوت اللهو والشراب فى المجتمع البويهى ما نقرأه فى العهود والوصايا الرسمية من أمر بالتشدد على أهل الريب والحانات والمواخير ، ونهى عن الملاهى والخمور وسائر المنكرات

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٢٩ (٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١٨٣

والقبائح .

وهكذا انتشرت مواطن الفسق والفجور والشراب فى المحلات العامة والخاصة فعمرت بطلاب اللذة والمتعة يمارسون فيها لذة السكر ولذة الولع بالغلمان والعبث بالجوارى ولذة السماع، وعمرت أيضا بطلاب الدرهم والدينار ممن كانوا يتاجرون أو يتأجرن بالخمور والألحان والغناء والأجساد. والظاهر أن التجارة فى هذه المواطن الموبوءة كانت تخضع لقانون العرض والطلب، ذلك أننا نلاحظ فى بعض الأحيان هبوطا هائلا فى أسعار بضائعها ، فقد كان هناك على شاطىء دجلة مكان للهو كان فيه إلى جانب الخمر والغناء ظبي غرير أو ظبية غريرة ، ومع ذلك لا يدفع قاصده لهذه المتعة إلا درهمين اثنين طول الليل والنهار :

مجلس فى فناء دجلة يرتا ح إليه الخليع والمستور
طائر فى الهواء فالبرق يسرى دون أعلاه والحمام يطير

* * *

ليس فيه إلا خمار وخمر ومصات من نشوة ونشور
وحديث كأنه زهر المنـــثور حسنا أو لؤلؤ منثور
وجريح من الدنان تسيل الرا ح من جرحه وقدر تفور
ولك الظبية الغريرة إن شئـــت وإن عفتها فظبي غرير
فتمتع بما تشاء نهاراً ثم بت معرسا وأنت أمير
كل هذا بدرهمين فإن زد ت فأنت المبجل المحبور

وكان العابثون الذين يرتادون هذه المواطن يعكفون على اللذات فى شره ونهم شديدين ، ويمارسونها دون تستر أو احتشام، فكأنهم كانوا يريدون بذلك أن يتحدوا الدين الذى حرمها أو يسخروا من الأخلاق والعرف

والتقاليد التي استنكرتها .

وكان يحلو لهم أن يسموا هذه اللذات ومواضعها ومصادرها وآلاتها بأسمائها الصريحة دون كناية أو إشارة أو إيماء ، ذلك أنهم كانوا يجدون فى حكاية هذه المنكرات والقبائح والمحظورات كما هى عارية مكشوفة ، لذة أى لذة ، فشاعت من أجل ذلك ألفاظ الفحش والمقاذر بين عامة الناس وخاصتهم ومالوا إليها وأعجبوا بها حتى قال قائلهم : « إن زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخى جداً » .

ومهما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع فإن ظاهرة المجون قد طغت على المجتمع البويهى طغيانا لامثيل له ، بحيث أصبح الشراب عادة للكثيرين حتى عند ذوى المناصب الدينية ، كما أصبح الولع بالغلمان والعبث بالجوارى شأن العامة والخاصة . وبالإضافة إلى هذا وذاك كانت ألفاظ المقاذر والفحش دائرة على كل لسان .

* * *

هذه الظاهرة الاجتماعية العامة قد انعكست صورتها فى الحياة الأدبية انعكاسا تاما ، فلونت الأدب بلون ماجن خليع لم يشهده من قبل ولا من بعد ، وربما كان كتاب اليتيمة لأبى منصور الثعالبي هو خير الكتب الأدبية التى احتفظت لنا بهذا النوع من الأدب الذى رسم ظلال الحياة الماجنة فى عهد بنى بويه ، وذلك لأن المؤلف قد أكثر فى كتابه من إيراد الشواهد التى تصور الجانب اللاهى من حياة الناس عموما وحياة الأدباء خصوصا . فهو حين يترجم لشعرائه وكتابه يعنى كثيراً بأخبار لهوهم ومجونهم وتظرفهم مستشهدا على ذلك بالشعر والنثر ، وقد يطغى عليه هذا الاتجاه حتى نراه لايذكر من القصيدة أو القصائد التى كانت تقال فى المدح أو فى التهنئة أو فى

غيرهما من الأغراض إلا الأبيات التى تصور عبث الممدوح وتهتكه، مكررا هذا الصنيع فى غير موضع من الكتاب.

ويبدو لى أن الثعالبى كان يتعمد هذا الأمر تعمداً إرضاء لذوق العصر ومجاراة لميول أهله الذين كانوا يستسيغون هذا النوع من الأدب ويفضلونه على ماسواه، ودليلى على ذلك ما كان من عنايته الشديدة بشعر ابن الحجاج وابن سكرة، وإكثاره من رواية هذا الشعر على فحشه وإقذاعه بحيث استوعبت الشواهد التى اختارها منه أكثر من سبعين صفحة من صفحات الكتاب. (١)

وكان هذا الأدب الماجن كثيراً، وكان متنوعا، منه ما قيل فى الخمر وما يتصل بها، ومنه ماقيل فى الغلمان والجوارى، ومنه ماقيل فى وصف السوءات والعورات، والمقاذر والإفحاش. ولكن هذه الأنواع الأدبية كانت كلها تصدر عن واد واحد هو ذلك الميل العام إلى المتع واللذات الذى سيطر على النفوس فى هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية زمن بنى بويه. وسنتناول كلا من هذه الأنواع الأدبية الثلاثة بالبحث فيما يأتى:

١ - أدب الخمر والغناء

أما أدب الخمر فقد كان نتيجة لانتشار الشراب ودوره فى هذا العصر كما كان عليه الحال قبل الإسلام، فشربته العامة والخاصة حتى ذوو المناصب الدينية كالقضاة والفقهاء، فقد كان القاضى التنوخى يشرب الخمر وينادم الوزير المهلبى فى جملة القضاة الذين كانوا ينادمونه، قال الثعالبى: (٢) «ويحكى

(١) راجع كتاب يتيمة الدهر للثعالبى طبعة بيروت الجزء الثانى من ص ١٨٨-٢٧٠

(٢) اليتيمة ٢ : ١٠٦

أنه كان فى جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ويجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة وهم ابن قريعه وابن معروف والقاضى التنوخى وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان الوزير المهلبى فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار وتقلبوا فى أعطاف العيش بين الخفة والطيش ، ووضع فى يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوءة شراباً قطربلياً او عكبرياً فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ويرش بها بعضهم على بعض ويرقصون أجمعهم وعليهم المصبغات ومخانق البرم والمنثور . . . وإياهم عنى السرى بقوله:

مجالس ترقص القضاة بها إذا انتشوا فى مخانق البرم

فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم فى التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء .»

وكذلك كان أحد القضاة يحضر مجالس الشراب فى منزل كاتب للخليفة ، وكان لا يشرب إلا قارصاً فأرسل صاحب المنزل غلاماً وأحضر خماسية من دكان إسحق الواسطى فيها من الشراب الذى كان بأيديهم إلا أن على رأسها كاغداً وختما مكتوباً عليه « قارص من دكان إسحق الواسطى » فشرب القاضى منه ثم سأل عن الشراب فقيل له « قارص » فقال لا بل والله الخالص ثم ثنى وثلث فاضطرب أمره وأنشأ يقول :

ألا فاسقنى الصهباء من حلب الكرم ولا تسقنى خمراً بعلمك أو علمى
أليست لها أسماء شتى كثيرة ألا فاسقنيها واكن عن ذلك الاسم

فكان كلما أتاه الغلام بالقدح سأله عنه فيقول تارة مدام وتارة خندريس

وهو يشرب فإذا قال له خمر حرد واستخف به . . . فلم يشرب القاضى إلا بمقدار ستة أسماء أو سبعة من أسماء الخمر حتى تبطح فى المجلس ولف فى طيلسانه وحمل إلى داره .[١]

هذه القصص وغيرها ، وتلك الأشعار التى أثرت عن بعض رجال الدين فى الخمر كلها تدل دلالة قاطعة على انتشار الشراب بين طبقات الأمة المختلفة كما أنها تدل على عدم استنكار المجتمع لهذه الظاهرة .

أما الغناء فقد كان من مستلزمات الشراب منذ القديم، ولكن أمره قد استفحل فى هذا العصر ، إذ كثرت دوره العامة والخاصة ، كما كثرت دور الشراب، فارتادها الناس على اختلاف طبقاتهم حتى العلماء والأدباء والقضاة والأعيان والصوفية كابن فهم الصوفى وأبى الحسن الجراحى القاضى والمعلم غلام الحصرى شيخ الصوفية وابن معروف قاضى القضاة وأبى سليمان المنطقى الفيلسوف المشهور وغيرهم كثير .

وقد كان تأثر الناس عند سماعهم الغناء قويا وعنيفا فكان منه ما يسر وما يبكى وما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه، إذ كثيراً ما كان السامعون لشدة تأثرهم وانفعالهم يمزقون ثيابهم ويدقون الحائط برؤوسهم أو يتمرغون فى التراب ويهيجون ويزبدون ويعضون أصابعهم ويركلون بأرجلهم ويلطمون وجوههم .[٢]

وللاستشهاد على هذا ننقل نصين أثنين من النصوص التى ذكرها أبو حيان التوحيدى فى وصف المغنين والمغنيات وفى وصف أطراب المستمعين.

---

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٣٦ وما بعدها

(٢) الحضارة الإسلامية ٢ : ٢٠٨ نقلا عن حكاية أبى القاسم البغدادى .

فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » وذلك حين يقول : (١)

« . . . ولا طرب ابن فهم الصوفى على غناء « نهاية » جارية ابن المغنى إذا اندفعت بشدوها :

أستودع الله فى بغداد لى قمراً   بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودعته وبودى لو يودعنى   صفو الحياة وأنى لا أودعه

فإنه إذا سمع هذا منها ضرب بنفسه الأرض ، وتمرغ فى التراب وهاج وأزبد وتعفر شعره ، وهات من رجالك من يضبطه ويمسكه ، ومن يجسر على الدنو منه فإنه يعض بنابه ويخمش بظفره ، ويركل برجله ، ويخرق المرقعة قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لطمة فى ساعة، ويخرج فى العباءة كأنه عبد الرزاق المجنون صاحب الكيل فى جيرانك بباب الطاق ».

وحين يقول : (٢)

« ولا طرب أبى سليمان المنطقى إذا سمع غناء هذا الصبى الموصلى النابغ الذى قد فتن الناس وملأ الدنيا عيارة وخسارة وافتضح به أصحاب النسك والوقار وأصناف الناس من الصغار والكبار بوجهه الحسن وثغره المبتسم وحديثه الساحر وطرفه الفاتر ، وقده المديد ولفظه الحلو ودله الخلوب وتمنعه المطمع وإطماعه الممنّع وتشكيكه فى الوصل والهجر،وخلطه الإباء بالإجابة ووقوفه بين لا ونعم ، إن صرحت له كنى وإن كنيت له صرح ، يسرقك منك ، ويردك عليك ، يعرفك منكراً لك ، وينكرك عارفا بك ، فحاله حالات وهدايته ضلالات ، وهو فتنة الحاضر والبادى ، ومنية السائق والهادى ، فى صوته الذى هو من قلائده :

عرفت الذى بى فلا تلحنى   فليس أخو الجهل كالعالم

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١٦٦   (٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١٧٤

وكنت أخـوفه بالدعا وأخشى عليـه من المـأثم

وهكذا انتشر الغناء — كما انتشر الشراب — بين عامة الناس وخاصتهم فملك عليهم عواطفهم ومشاعرهم وطربوا له طرباً صاخباً وافتتنوا به افتتانا عجيباً . وإلا فهل هناك أدل على انتشاره وافتتان الناس به من تسربه إلى بيئات المتصوفة والزهاد وكبار الفلاسفة ؟

وبعـد ، أفلا يمكن أن يقوم فى نفس القارئ ما يحمله على التساؤل فيلقى علينا هذا السؤال وهو : لماذا فتح المجتمع البويهى صدره للشراب والغناء ومهد لهما سبيل الذيوع والانتشار ؟

وللإجابة عن هذا السؤال لا بد لنا من أن نعود إلى الوراء ، إلى ماضى الأمة الفارسية التى خضع لها المجتمع البويهى فى هذا العصر سياسياً واجتماعيا فهذا الماضى وحده هو الذى يستطيع أن يضع أيدينا على موطن السر فى هذا الأمر ، فلنرجع إذن إلى صحائفه ولنقرأ سطوره فماذا نجد ؟

نجد أن عادة الشراب عنـد الفرس قديمة جدا ، ترجع إلى طقوسهم الدينية ، فقد كان الفرس القـدماء يتناولون من أجل آلهتهم عصيرا مسكرا يستخرجونه من عشب « الهوما » الذى يكثر على سفوح الجبال فى بلادهم ، وبالرغم من استياء نبيهم «زردشت» من هذه الوثنية، بقيت عادة تقديم شراب « الهوما » المسكر إلى الآلهة متبعة فى الديانة الزردشتية ، إذ كان على الكاهن أن يشرب جزءاً معلوما من هذا العصير المقدس وأن يقسم الباقى على الحاضرين من المؤمنين فى أثناء تأدية الطقوس الدينية ، وإذا كان الناس من الفقر بحيث لا يستطيعون تقديم مثل هـذه القرابين الشهية الغالية فلا بأس عليهم من أن

يتقربوا إلى آلهتهم بالزلفى والإغراق فى الضراعة والابتهال.(١)

ونجد أيضا أن الفرس القدماء « كانوا يحبون الغناء والرقص والعزف على العود والناى والنقر على الدفوف والطبول »(٢)

وإذن فقد كان الميل إلى الغناء عند الفرس قديما وكانت الخمر عندهم مقدسة،وكان شربها بين يدى آلهتهم يعد نوعا من العبادة ووسيلة من وسائل التقرب والتزلف إليهم .

وإذا كان الأمر كذلك ، فأين هذه النظرة الزردشتية إلى الخمر من نظرة الإسلام إليها ؟ لاشك أن النظرتين كانتا على طرفى نقيض .

ثم . . . أليس فى هذا ما يفسر لنا تقديس أبى نواس للخمر ونعته إياها بالأسماء الحسنى؟ بلى ! لقد كان أبو نواس وأضرابه من شعراء الفرس يصدرون فى شعرهم الخمرى عن مزاج روحى فارسى قديم انبعثت أصداؤه من الماضى السحيق فرددته نفوسهم فى ظل الإسلام .

وإذا كان ذلك قد حصل والمجتمع ما يزال خاضعاً للروح الإسلامى فكيف به وقد أصبح فى هذا العصر خاضعاً للروح الفارسى فى ظل بنى بويه ؟ لاشك فى أن هذا الانتقال من عهد عربى تسوده الروح الإسلامية إلى عهد فارسى، يؤدى حتما إلى ظهور العادات الشرقية وسيطرتها على المجتمع من جديد ومنها عادة الشراب والسماع .

ذلك هو السر فى عدم استنكار المجتمع البويهى لشرب الخمر وسماع الغناء وذلك هو السبب فى تساهله إزاء الشاربين والسامعين على اختلاف طبقاتهم .

ولكن مايزال أمامنا سؤال آخر يحتاج منا إلى جواب وهو : لماذا

---

(١) قصة الحضارة الفارسية ص ٣٩ ، ٤٩ (٢) نفس المصدر ص ٦٧

انهمك الناس في الشراب والغناء إلى هذا الحد؟! وهنا نستعين بطبيعة الحياة الاجتماعية لذلك العصر، كما استعنا بالتاريخ منذ قليل، وذلك أن حياة الناس في عهد بني بويه — كما مر بنا — كانت محفوفة بالمكاره والأخطار، مثقلة بالمصائب والخطوب إذ كثيراً ما كانوا يتعرضون للقتل والقبض والمصادرة والنهب والجوع والمرض لاضطراب الحالة السياسية والاجتماعية ولاختلال التوازن الاقتصادي بين الطبقات مما جعلهم فريسة للقلق والخوف والجزع. ولذلك نراهم إذا ما دهمتهم جيوش الهم والحزن أغرقوها في كؤوس الخمر وبددوها في طيات الأغاني والألحان. فقد كان الخمر والغناء يؤلفان جواً بهيجاً ينسى الهموم، ويمحو القلق، ويشيع في جوانب النفس غبطة وإنشراحا ولذة ومتاعا، فإذا هي تحلق في عالم من الأحلام لذيذ، بعيد كل البعد عن حياة واقعية قاسية كان يحياها القوم، عن حياة لم يكن لها أمس ولا غد فالأمس قد ولى، والغد مهيب مخـــوف، وليس لهم منها إلا الساعة التي هم فيها:

أمر غد أنت منه في لبس وأمس قد فات فاله عن أمس
إنما العيش عيش وقتك ذا فبادر الشمس بابنة الشمس

ولم يكن ابن المسكك قائل هذين البيتين وحيداً في ترديده هذه النغمة، بل شاركه في ذلك كثير من أدباء العصر على اختلاف طبقاتهم.

فقال أبو الفتح: [١] «اعتمد على خمس إذا أصابك الهم»:

براح وريحان وساق مهفهف ونغمة ألحان وطلعة إخوان

وقال الصابي:

---

(١) من غاب عنه المطرب ص ٩٩

كوكب الإصباح لاحا طالعاً والديك صاحا
فاسقنيها قهوة تأ سو من الهم جراحا
حرم الماء وأبعد ه وإن كان مباحا
أقراح أنا حـــتى أشرب الماء القراحا

وقال التنوخى :

صب فى الكاسات منها كالشهاب المتصوب
فرأيت الراح شرقا ورأيت الهم مغرب

وقال الثعالبي فى مغن: (١)

غناؤك يهزم جيش الكروب وعيناك للناس عذر الذنوب
فويل القلوب إذ مارنوت وإما شدوت فويل الجيوب

وقال أبو حيان التوحيدى بعد أن وصف طرب الجراحى قاضى الكرخ على غناء « شعلة » :

لا بد للمشتاق من ذكر الوطن واليأس والسلوة من بعد الحزن

« فهناك ترى شيبة قد ابتلت بالدموع وفؤاداً قد نزا إلى اللهاة مع أسف قد ثقب القلب ، وأوهن الروح وجاب الصخر وأذاب الحديد . وهناك ترى والله أحداق الحاضرين باهتة ودموعهم منحدرة وشهيقهم قد علا رحمة له ورقة عليه، ومساعدة لحاله.وهذه صورة إذا استولت على أهل مجلس وجدت لها عدوى لا تملك ، وغاية لا تدرك ، لأنه قلما يخلو إنسان من صبوة أو صبابة ، أو حسرة على فائت أو فكر فى متمنى أو خوف من قطيعة أو رجاء لمنتظر ، أو حزن على حال ، وهذه أحوال معروفة والناس

(١) نهاية الأرب ٥ : ١١٥

منها على جديلة معهودة » . (١)

يتضح لنا مما تقدم أن الشراب والغناء فى هذا العصر كانا يرضيان ميولا روحية تتصل بالماضى ، وحاجات نفسية تتصل بالحاضر ، فلا عجب بعد ذلك إذا ما تقبلهما المجتمع قبولا حسنا ، فانهمك الناس فيهما انهماكا شديداً ، ولا عجب أيضا إذا ما اندفع الأدباء تحت تأثير هذا التيار الجارف واستجابوا لرغباتهم الخاصة ، ولرغبات ممدوحيهم وأهل عصرهم عموما فأكثروا من وصف الخمر والغناء ووصف مجالسهما ، وآلاتهما ، وجاهروا بالدعوة إلى ممارستهما فى شىء كثير جداً من الحماس ، وبالغوا فى هذا كله حتى جرهم إلى الإلحاد والزندقة والاستهتار بالدين .

فالسلامى كان مشغوفا بالخمر والغناء ، ذائبا فيهما ، وكان يحس فى قرارة نفسه وهو فى جوهما بالخشوع الذى ينتاب العابد فى محرابه ، فيدفعه هذا الخشوع إلى الصلاة ، ولكن على أذان الطنابير ، ويدفعه أيضاً إلى الركوع والسجود ، ولكن إلى الكأس أو المزمار .

أليس هذا تقديساً للخمر يذكرنا بطقوس الفرس الوثنية ؟

اشربا واسقيا فتى يصحب الأيا م نفساً كثيرة الأوطار
والنفوس الكبار تأنف للسا دة أن يشربوا بغير الكبار
فى جوار الصبا نحل بيوتا عمرت بالغصون والأقمار
ونصلى على أذان الطنابير ونصغى لنغمة الأوتار
بين قوم إمامهم ساجد للكأس أو راكع على المزمار

وإذا كان السلامى لم يعلن عصيانه لله بصراحة ، فإن زميله ابن الحجاج قد أعلن عصيانه وتمرده عليه بصراحة ما بعدها من صراحة ، ثم زاد على

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١٦٨ - ١٦٩

ذلك فأعلن ولاءه وطاعته للشيطان إذ يقول : (١)

ياخليلىّ قد عطشت وفى الخمـــرة رىّ للحائم العطشان
فاسقيانى محض التى نطق الوحـــى بتحريمها من القرآن
والتى ليس للتـأول فيهـا مذهب غـير طـاعة الشيطان

* * *

فاسقيـانى بين الدنان إلى أن تريانى كبعـض تلك الدنان
اسقيـانى فى المهـرجان ولو كا ن لخمـس بقين من رمضـان
اسقيانى فقد رأيت بعينى فى قرار الجحيم أين مكانى
مقعداً بعـد خفتى فى نهوضى أخرسا بعد كثرة الهـذيان

وإذ يقول أيضاً : (٢)

أمسلم ؟ قلت نعم ظاهرى وباطنى فى الخمر نسطورى
من أجل هذا أنا مذ جئتما ما بين سكران ومخمور
فاسعد بيوم العيد واجلس له فى خلوة جلسة مسرور
وضح فيـه بالدنان التى تخـر بين البم والزير
واستحضر العود ووجه به حتى نصلى بالطنابير
الركعة الأولى سريجية وركعة التسليم ماخورى
وهى صلاة العيد لا يستوى تجوزى فيها وتقصيرى
والله لو كنت لها حاضراً لخير العالم تكبيرى

ولو وقف ابن الحجاج فى زندقته عند هذا الحد لقلنا إنه عاص ، متمرد ربما تاب إلى الله وأناب ، ولـكنه يمعن فى عصـــيانه وتمرده إلى النهاية فيرفض أن يتخذ من القرآن قسما ، بل نراه يتخذ من الوجوه البيض

---

(١) اليتيمة ٢ : ٢٤٢ (٢) نفس المصدر ٢ : ٢٤٣

ومن شرب الرىّ من خمر الثنايا ، . . . ومن الخمر قسما ، وذلك حين يقول : (١)

فأقسم لا بياسين وطه ولا بالذاريات ولا الحديد
ولكن بالوجوه البيض مثل الأ هلة تحت أغصان القدود
وشرب الرىّ من خمر الثنايا وشم المسك من ورد الخدود
وبالخمر التى كانت لعاد ولكن بعد محنتهم بهود
مدام فى قديم الدهر كانت تعد لكل جبار عنيد

إنها وثنية فارسية ، قد رفعت رأسها ومشت على قدميها فى هذا العصر بعد أن كانت تتململ وتحاول أن تنهض فلا يسعها النهوض أيام كان للعرب سلطان فى هذه الديار ، أما وقد أصبح السلطان بيد ملوك من الفرس كانوا يمدحون أو يهنأون بمثل هذا القصيد فيشجعون قائليه ويثيبونهم عليه ، فإن الشعراء مضطرون إلى أن يجاروا نزعاتهم الفارسية ويعبروا عنها بما يرضيها من القول . لهذا نرى ابن الحجاج وغيره من أدباء العصر يطلعون فى كل مناسبة على ممدوحيهم ومهنئيهم بشعر ماجن يدعونهم فيه إلى استقبال اللذات والقصف والخلاعة بين الراح وعزف القيان ، من ذلك قول ابن بابك من قصيدة فى فخر الدولة :

قد رقم النيروز وشى الربا فارقم حواشى جامك الخسروانى
واقتبل اللذات واستدعها باللهو والقصف وعزف القيان
واجتل وجه الراح فى روضة تبسم عن مثل وجوه الغوانى

وقول أبى العلاء الأسدى من قصيدة فى الصاحب :

---

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٢٧٠

فاقم رسمنا صبيحة نيرو ... ز به ربع أنسنا مأهول
بكؤوس مملوءة من مدام ... أنت فيها لمن حساها عذول

وقول الصابى من قصيدة عيدية فى الوزير المهلبى :

وللفطر رسم للسرور وسنة ... ومثلك من أحيا لنا سنة الفطر
ولابد فيـــه من سماع وقهوة ... نقضّى بها الأوطار من لذة السكر
نواصل قصفا بين يوم وليلة ... دراكا فنستوى الذى فات فى الشهر

أين هذا من قول البحترى فى المتوكل يوم العيد ؟ : (١)

بالبر صمت وأنت أفضل صائم ... وبسنة الله الرضية تفطر

* * *

ذكروا بطلعتك النبى فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابسا ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهى ولا يتكبر
ووقفت فى برد النبى مذكرا ... بالله تنـــذر تارة وتبشر
ومواعظ شفت الصدور من الذى ... يعتادها وشفاؤها متعذر
صلوا وراءك آخذين بعصمة ... من ربهم وبذمة لا تخفر

لا شك فى أن الفرق بين القولين بعيـــد ، كالفرق ما بين الإسلام ووثنية الفرس .

لا نريد من هذا كله أن نرمى أهل العصر بالـكفر ، والإلحاد والخروج على الدين عامدين متعمدين ، فقد كانوا يعتبرون أنفسهم مسلمين ، ولـكننا نريد أن نقول إن مفهوم الدين عندهم قد استحال وتبدل ، بما شاب حياتهم الروحية من نزعات وأهواء هى وليدة التراث الفارسى الذى حىَ من جديد ،

---

(١) ديوان البحترى ١ : ١٨

وصدى للحياة الاجتماعية التى خضعوا لها حينذاك ، الأمر الذى جعل مثلهم الأعلى فى الحياة : خمراً ولحنا وساقيا وقصفا ولهواً وخلاعة .

وإلا فكيف نفهم قول القائل ؟ : (١)

وليس العيش إلا شرب راح ... إلىّ بشربها الساقى يشير
وكأس يعدل الساقون فيها ... ولكن حكم سورتها يجور
وشدو صغيرة كالخشف يحدى ... بصوت غنائها الرطل الكبير

وقول القائل : (٢)

عدل الحبيب فمن يجور ... ودنا فأين بنا يسير
عوضت من عيس تدو ... ر بى الفلا كأساً تدور
وشربت ما وسع الصغيـ ... ـر وزدت ماحمل الكبير
نبهت ندمانى وقد ... عبرت بنا الشعرى العبور
والبدر فى أفق السما ... ء كروضة فيها غدير
هبوا فقد عيى الرقيـ ... ـب ونام وانتبه السرور
وأشار إبليس فقلـ ... ـنا كلنا نعم المشير
صرعى بمعركة تعا ... ف الوحش عنها والنسور
نوّار روضتنا خدو ... د والغصون بها خصور
والعيش أستر ما يكو ... ن إذا تهتكت الستور
هبوا إلى شرب المدا ... م فإنما الدنيا غرور
طاف السقاة بها كما ... أهدت لك الصيد الصقور
عذراء يكتمها المزا ... ج كأنها فيه ضمير

---

(١) اليتيمة ٢ : ٢٤٠ (٢) نفس المصدر ٢ : ١٧٦

وتظن تحت حبابها خداً تقبله ثغور
حتى سجدنا والإما م أمامنا مثنى وزير

* * *

وهكذا انتشر الشراب والغناء فى المجتمع البويهى لما قدمناه من أسباب فكان أثرهما فى الحياة الأدبية عظيما . هذا ولما كان الحديث فى أدب الخمر والغناء طويلا لا ينتهى حتى ينتهى منه ، اكتفينا بهذا القدر .

٢ ـ الغزل بالغلمان والجوارى :

أما الغزل بالغلمان فقد كان من الأغراض التى جدت فى القرن الثانى الهجرى كنتيجة لشيوع عادة اللواط بين طائفة من المجتمع كأبى نواس وأضرابه من المتهتكين . وعادة اللواط هذه ـ كما يرى القدماء ـ فارسية ، أتت من المشرق مع جيوش العباسيين التى جاءت من خراسان .

وقد علل الجاحظ سبب حدوث هذه العادة عند الخراسانيين ، فعزاه إلى خروج الأجناد فى البعوث مع الغلمان فقال : « وذلك حين سن أبو مسلم ألا يخرج النساء مع الجند خلافاً لبنى أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر ، فلما طال مكث الغلام مع صاحبه فى الليل والنهار ، وعند اللباس والتستر ، وهم جنود فحول تقع أبصارهم على خد كخد المرأة ، وردف كردفها وساق كساقها ، تولدت هذه الفاحشة » . (١)

كذلك يعلل الجاحظ شيوع عادة اللواط بين الفرس ، وهو تعليل طريف ولكنه غير صحيح من حيث إنه يجعل مبدأ حدوث هذه العادة عندهم مقرونا بالنظام الذى سنه أبو مسلم ، بينما يذهب « ول دورانت »

---

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٣٥

مؤلف « قصة الحضارة » إلى أن اللواط عادة فارسية قديمة بدليل ماورد فى « الافستا » من تشديد فى العقوبة التى قررتها للواط ، إذ هى تؤكد فى أكثر من موضع « أن اللواط جريرة لاغفران لها ،ولا يستطيع شىء فى الوجود أن يكفر عنها » (١)

وعلى أية حال فقد تسربت عادة اللواط إلى المجتمع الإسلامى عن طريق الفرس بصورة تدريجية ، ثم ساعد على انتشارها كثرة الرقيق من الغلمان ، وكثرة دور اللهو ومجالس الشراب ، ولكن ، مع ذلك ، لم يكن لهذه العادة شأن يذكر طوال العصور التى كانت السيادة فيها للروح العربى ، ولهذا لم يكن هناك ما يدعو الفقهاء الأولين إلى الكلام فيها ، أما فى القرن الرابع فقد اختلفت آراء الفقهاء فى اللواط بالغلمان اختلافا بينا فأراد بعضهم أن يعتبره كالزنا،وأراد آخرون أن يفرقوا بين اللواط بالغلام المملوك وغير المملوك ، وقالوا إن الحد لا يلزم الأول بخلاف الثانى والأكثرون على أنه لاحد فيه بل هو يوجب التعزير من القاضى . (٢)

ولعل هذا الموقف الغريب من الفقهاء إزاء اللواط يدل دلالة قاطعة على تأثرهم بالروح الفارسى الذى سيطر على المجتمع البويهى آنذاك ، والذى أشرنا إليه غير مرة فيما تقدم .

ومهما يكن فقد شاعت عادة اللواط فى هذا العصر كغيرها من العادات الفارسية بحيث أصبح حب الغلمان والتولع بهم شأن العامة والخاصة ، فكانا سببا فى حدوث قصص غرامية شائقة ، من ذلك ما يروى عن ابن داوود أنه كان يهوى أحد الفتيان هوى أفضى به إلى التلف ، وما يروى أيضا عن عز الدولة بختيار الملك البويهى أنه أسر له فى إحدى المواقع غلام فجن عليه

---

(١) قصة الحضارة الفارسية ص ٥٨ (٢) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٣٤

جنونا ، وحدث له من الحزن مالم يسمع بمثله ، حتى زعم أن فجيعته بهذا الغلام فوق فجيعته بالمملكة ، وما زال يظهر الشكوى حتى خف ميزانه عند الناس وسقط من عيونهم .

كل ذلك قد ظهر أثره ، وانعكس صداه فى الأدب حتى كان الغزل الذى قيل فى التوجع من هوى الغلمان يعادل ما قيل فى التوجع من هوى النساء على الأقل (١) ، فقد انجرف الأدباء بهذا التيار فأكثروا من القول فى هذا الباب حتى إنه ليندر أن نجد بينهم من لم يقل شعراً فى غلام ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك ، فقصر تشبيبه على الغلمان دون النساء كأبى الحسن السلامى ونصر بن أحمد الخبز أرزى ، فقد كان كلاهما ميالا إلى الغلمان مكثراً من القول فيهم .

فالسلامى كان يتفنن فى تشبيبه بغلمان البدو والعيارين والأتراك وغيرهم كما كان يتفنن فى الوسائل التى تمكنه من إغوائهم . فمن ذلك قوله من قصيدة شبب فيها بغلام تركى ويصف لنا فيها كيف استطاع أن يخدعه :

علقت مفترس الضراغم فارساً ... رحب المدى والصدر والميدان
قمر من الأتراك تشهد أنه الخــود الحصان على أقب حصان
ألفت طرته وغرته وما ... كان الدجى والصبح يأتلفان
ورمى بلحظيه القلوب وسهمه ... فعجبت كيف تشابه السهمان
بطل حمائله كعارضه وحا ... جبه الأزج كقوسه المرنان
حييته فدنا وأمطــر راحتى ... قبــلا فليت فمى مكان بنانى
وخدعته بالكأس حتى ارتاض لى ... ودرأت عنى الحد بالكتمان

---

(١) الحضارة الاسلامية ١ : ١٣٥

أما نصر الخبز أرزى فقد كانت حرفته خبز خبز الأرز فى دكانه بمربد البصرة ، وكان يخبز وينشد أشعاره المقصورة على الغزل والناس يزدحمون عليه ويتطرفون باستماع شعره ويتعجبون من حاله وأمره ، وكان أحداث البصرة يتنافسون فى ميله إليهم وذكره لهم ويحفظون كلامه لقرب مأخذه وسهولته [١] ، ومن قوله فى غلام :

وددت أنى بكفه قلم أو أننى مدة على قلمه
يأخذنى مرة ويلثمنى إن علقت منه شعرة بفمه

وقوله :

خليلى هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من مولى تمشى إلى عبد
أتى زائراً من غير وعد وقال لى أصونك عن تعليق قلبك بالوعد
فما زال نجم الكأس بينى وبينه يدور بأفلاك السعادة والسعد
فطوراً على تقبيل نرجس ناظر وطوراً على تعضيض تفاحة الخد

ومن الغريب فى هذا الأمر أن ذوى المناصب الكبرى فى الدولة لم يكونوا يتحرجون من التغزل بالغلمان وإظهار العشق لهم والولع بهم كالصاحب والصابى والوزير المهلبى وأمثالهم من الملوك والأمراء ، فالصاحب كان يهوى من الفتيان من كان أغن الصوت ، غناجاً ، ألثغ السين ، وذلك حين يقول :

وشادن قلت له ما اسمكا فقال لى بالغنج عباث
فصرت من لثغته ألثغا فقلت أين الكاث والطاث

أما الصابى فقد كان يحب الغلمان السود ، وهو من أجل ذلك يدافع عن السواد :

---

(١) اليتيمة ٢ : ١٣٢

أبصرت فى «رشد» وقد أحببته رشدى ولم أحفل بمن قد ينكر
يا لائمى أعلى السواد تلومنى؟ من لونه وبه عليك المفخر
دع لى السواد وخذ بياضك إننى أدرى بما آتى وما أتخير
مثوى البصيرة فى الفؤاد سواده والعين بالمسود منها تبصر
والدين أنت مناظر فيه بذا وكذاك فى الدنيا بهذا تبصر

وأغرب من ذلك بكثير أن نرى ذوى المناصب الدينية لا يقلون استهتاراً وعبثا بالغلمان عن غيرهم. فالقاضى التنوخى وابن خلاد والمفجع البصرى وغيرهم من القضاة والفقهاء والمحدثين كانوا يشاركون أهل عصرهم فى الميل إلى الغلمان والتغزل بهم والشكوى مما يلقون من هواهم.

فقد كان ابن خلاد القاضى وهو من جملة القضاة الموسومين بمداخلة الوزراء والرؤساء يحب غلاما من أبناء الديلم فقال فيه:

يامن لصب قلق بات يراعى الفلكا
جار به مسلط يجور فيمن ملكا
يهزأ من عاشقه يضحك منه إن بكى

* * *

فقلت يا أحسن من تبصر عينى من لكا؟
فقال لى بغنة إليك لا أجرحكا
تبا لقاض يبتغى من المعاصى دركا
فقلت والله الذى صيرنى عبداً لكا
ما إن أردت ريبة ولم أرد سوءً بكا
وأنت فى قولك ذا آثم ممن أشركا

وكان المفجع البصرى وهو صاحب ابن دريد والقائم مقامه بالبصرة

فى التأليف والإملاء مستهتراً ، يغوى الصبيان بالجامع ، وله قصيدة فى هذا المعنى منها هذه الأبيات :

ألا يا جامع البصــرة لا خربك الله
وسقى صحنك المز ن من الغيث فرواه
فكم من عاشق فيــك يرى ما يتمناه
وكم ظبي من الإنــس مليح فيك مرعاه
نصبنا الفخ بالعلــم له فيك فصدناه
بقرآن قرأناه وتفسير رويناه
وكم من طالب للشعــر بالشعر طلبناه
فما زالت يد الأيا م حتى لان متناه
وحتى ثبت السر ج عليه فركبناه

ولعل مما يدل على انتشار هــذه العادة بين الناس فى هذا العصر وجود الغلمان الذين كانوا يعملون بأجر ، فلا يصلون عشاقهم إلا إذا قدموا لهم الدراهم الوافيـة . يدل على ذلك قول ابن سكرة فى أحد الغلمان :

أحببت بدراً ما له مشبه — فى الحسن لولا أنه جافى
أحور فى مقلته حجة — للعين والشين مع القاف
وفى ارتجاج الردف داع إلى — نون وياء قبل ما كاف
سألته الوصل فلم يحتشم — وقال قدم نقدك الوافى

وقوله فى غلام أعجمى :

إنى بليت بشادن غنج — حسن الشمائل وافر الكفل
يبغى الدراهم وهى معوزة — عندى فحبلى غير متصل

يتبين لنا مما تقدم أن حب الغلمان والتغزل بهم قد أصبحا من الأمور المألوفة فى المجتمع البويهى حتى عند أشد الناس تزمتا ووقارا وهذا يعنى أن عادة اللواط لم تكن تعتبر فى نظر المجتمع من الرذائل التى تحط بالكرامة أو تسيء إلى الأخلاق العامة ، ولهذا أخرجها الأدباء من معانى الهجاء فى هذا العصر ، بحيث لم نعثر على واحد منهم كان يهجو خصومه بها كما كان يفعل أسلافهم من قبل . فأبو نواس على شغفه الشديد بالغلمان وإكثاره من التغزل بهم كان إذا أراد أن يؤلم خصومه ويوجعهم هجاهم باللواط لعلمه أن المجتمع كان يستنكر هذه العادة أشد الاستنكار ويسخط على أصحابها أشد السخط فهو حين أراد أن ينتقم من قطرب النحوى وأبى عبيدة معمر بن المثنى هجاهما بذلك فآلمهما وأفزعهما ، فقال فى الأول:(١)

قل للأمين جزاك الله صالحة … لاتجمع الدهر بين السخل والذيب
السخل غر وهم الذئب غفلته … والذئب يعلم ما فى السخل من طيب

وقال فى الثانى : (٢)

صلى الآله على لوط وشيعته … أبا عبيدة قل بالله آمينا
فأنت عندى بلا شك بقيتهم … منذ احتلمت وقد جاوزت سبعينا

* * *

وكما كان لكثرة الغلمان وميل الناس إليهم أثر قوى فى الأدب كذلك كان لكثرة الجوارى اللائى ملئت بهن القصور والمحلات العامة أثر قوى فى الأدب ، لاسيما أولئك الجوارى اللواتى خلبن العقول واختلسن القلوب بجمالهن وسحرهن حينا ، وغنائهن ومهارتهن فى هذا الغناء حينا آخر ، إذ كثيراً ما كن يسيطرن على أسيادهن فيمتلكن قلوبهم وعواطفهم وكثيراً ما

---

(١) ديوان أبى نواس ص ١٧٥ (٢) نفس المصدر ص ١٧٦

كن يسعّرن صدور عشاقهن والمعجبين بهن بالصبابة والوجد واللوعة ، فكان ذلك سبباً فى كثرة الشعر الذى قيل فى وصف الجوارى والهيام بهن ، كقول الوزير المهلبى فى جاريته « تجنى » :

مرت فلم تثن طرفها تيها   يحسدها الغصن فى تثنيها
تلك «تجنى» التى جننت بها   أعاذنى الله من تجنيها

وقول الصابى فى إحدى الجوارى :

إلى الله أشكو ما لقيت من الهوى   بجارية أمسى بها القلب يلهج
إذا امتزجت أنفاسنا بالتزامنا   توهمت أن الروح بالروح تمزج
كأنى وقد قبلتها بعد هجعة   ووجدى ما بين الجوانح يلعج
أضفت إلى النفس التى بين أضلعى   بأنفاسها نفساً إلى الصدر تولج
فإن قيل لى اختر أيما شئت منهما   فإنى إلى النفس الجديدة أحوج

وقد هام بعض الشعراء بالجوارى السود ، كما هام بعضهم بالغلمان السود ، فأحبوهن ودافعوا عن هذا الحب . من ذلك قول الشريف الرضى فى سوداء : (١)

أحبك يالون الشباب لأننى   رأيتكما فى القلب والعين توأما
سواد يود البدر لو كان رقعة   بجلدته أو شق فى وجهه فما
لبغض عندى الصبح ما كان مشرقا   وحبب عندى الليل ما كان مظلما
سكنت سواد القلب إذ كنت شبهه   فلم أدر من عز من القلب منكما
وما كان سهم الطرف لولا سواده   ليبلغ حبات القلوب إذا رمى
إذا كنت تهوى الظبى ألمى فلا تعب   جنونى على الظبى الذى كله ألمى

---

(١) ديوان الشريف ٢ : ٧٥٥

وقول السلامى :

ورب غانية بيضاء تصحبنى   من العتاب كؤوسا ليس تنساغ
أشتاق طرتها أم صدغها ومعى   من كلها طرر سود وأصداغ ؟
كأننا لا أتاح الله فرقتنا   يالعبة المسك ، باز تحته زاغ

ومهما يكن فقد شاع حب الغلمان والجوارى فى هذا العصر بين العامة والخاصة بحيث إننا لم نعثر على رجل أحب امرأة حرة حباً أفضى به إلى الهيام أو التلف ، كما كان يحدث لمن أحبوا الفتيان والجوارى ، فكان من أثر هذه الظاهرة أن شاع التغزل بالغلمان والجوارى ، وحل محل التغزل بالحرائر .

* * *

٣ ـ أدب المقاذر و الفحش

نستطيع أن نقول إن تلك الصور الأدبية التى ذكرناها فيما تقدم على أنها تمثل جانباً من حياة العبث والمجون فى المجتمع البويهى هى من النوع الذى يمكن أن يحتمل ويستساغ على نحو ما ، ولكن الذى لا يمكن أن يحتمل ولا يمكن أن يستسيغه ذوق ، ولا يجرى به قلم ، هو هذا الأدب الماجن الذى يندى له الجبين خجلا ، ويتعثر به اللسان حياء ، هو هذا الأدب الخليع الذى يتناول وصف العورات والسوءات والمقاذر بأبشع الألفاظ وأصرحها وأفحش المعانى وأقبحها .

لقد كان المجتمع البويهى فى أخلاقه وتقاليده وذوقه بدعاً بين المجتمعات فكان أدبه الذى نتج عن ذلك بدعاً بين الآداب فى أساليبه وفى ألفاظه

وفى معانيه .

فقد كان هناك تفسخ عام فى الأخلاق وانحطاط عام فى الذوق ، قد تردد صداهما فى الحياة الأدبية فأنتجا أدباً قذراً ، بشعاً ، يمجه الذوق وينكره الخلق وتشمئز منه النفوس .

إنها حالة اجتماعية شاذة ، تلك التى أنتجت هذا النوع الماجن من الأدب الذى نقرأه فى كل ما أثر عن ابن الحجاج وابن سكرة ، وفيما أثر عن كبار الأدباء وصغارهم من أدب ، كالصاحب بن عباد والصابى والهمذانى والخوارزمى والأحنف العكبرى وأبى دلف الخزرجى وأبى الحسن الجوهرى وأمثالهم .

ولقد يعجب القارئ ولا ينقضى عجبه ، حين يقرأ هذه الآثار الأدبية الخليعة فيسائل نفسه ، كيف كان الناس يستسيغون مثل هذا الأدب القذر ؟! وكيف كانوا ينظرون إلى قائليه ؟ وماذا كان لون الشعور الذى ينتابهم وهم يصغون إليه ؟ ولكن عجبه هـــذا يزداد ويتضاعف إذا ما علم أن العامة والخاصة من الناس كانوا يعجبون بهذا الأدب أشد الإعجاب ، يطربون له كل الطرب ، وأنهم كانوا يثنون أحسن الثناء على هذا الزمان الذى جاد بابن سكرة وابن الحجاج ، وكان بمثلها قبل ذلك ضنيناً شحيحاً .

وإذا كنت فى شك من هذا فاقرأ ما قاله الثعالبى فى ابن الحجاج وفى شعره إذ يقول :

« وهو وإن كان فى أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف ولا يبنى جل قوله إلا على سخف ، فإنه من سحرة الشعر وعجائب العصر » .

ثم يقول فى صدد الكلام على شعره :

« ... ولكنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره وتستملح الكبراء ببنات طبعه ، وتستخف الأدباء أرواح نظمه ، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه

وقذعه ، ومنهم من يغلو فى الميل إلى ما يضحك ويمتع من نوادره » .

ومهما يكن فقد انتشر هذا الأدب الماجن وتغلغل فى الأوساط الاجتماعية المختلفة ونفق فيها ، ونستطيع أن نقدر مدى هذا الانتشار والتغلغل والنفاق فى المجتمع إذا عرفنا أن ابن الحجاج هذا كان يمدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء فلم يخل قصيدة فيهم من سفاتج هزله ونتائج فحشه ، وهو ـ مع ذلك ـ كان عندهم مقبول الجملة غالى مهر الكلام ، موفور الحظ من الإكرام والإنعام ، مجاب إلى مقترحه من الصلات الجسام. وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر تحكم الصبى على أهله ويعيش فى أكنافهم عيشة راضية.(١)

ومما له عظيم الدلالة على شيوع هذا الفن واستساغة الناس إياه أننا نجد كثيراً من ذوى المناصب الكبرى فى الدولة لا يتحرجون من إظهار الكلام القبيح فى المجالس العامة والخاصة ولا يتورعون من استعمال أبشع الألفاظ وأقبح المعانى فيما ينظمون أو يكتبون .

فقد كان الوزير حامد بن العباس « لا يرد لسانه عن أحد البتة وكان إذا غضب شتم ، وكان يقول : نحن فى السواد إذا غلبنا خصومنا قلنا قد نلنا أمهاتهم » (٢) ويحكى عن الوزير سليمان بن الحسن أنه أظهر « من سخف الكلام وضرب الأمثلة المضحكة وإظهار اللفظ القبيح بين يدى الخليفة ما يجل الوزراء عنه » . (٣)

وكان الصاحب بن عباد الوزير المشهور على جلالة قدره يستعمل

---

(١) اليتيمة ٢ : ٢١١ (٢) نشوار المحاضرة ٨ : ٤٩ - ٥٠

(٣) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٤٩

فى شعره أفحش الأوصاف فى هجائه ومجونه.(١) وكذلك كان الصابى المحتشم إذا هجا أتى بألفاظ فاحشة مقذعة من ألفاظ المقاذر والمجون.(٢) وكان الوزير ابن سعدان على جده ووقاره يطلب إلى أبى حيان أن يجعل إحدى لياليه مجونية ليأخذ من الهزل بنصيب وافر، فيمضى أبو حيان فى فنون من الأحاديث الخليعة شعراً ونثراً ومثلا حتى إذا انتهى قال له الوزير :

« قدم هذا الفن على غيره وما ظننت أن هذا يطرد فى مجلس واحد، وربما عيب هذا النمط كل العيب وذلك ظلم لأن النفس تحتاج إلى بشر . . . لئلا يلحقها كلال الجد ولتقتبس نشاطاً فى المستانف ولتستعد لقبول ما يرد عليها فتسمع . »(٣)

وأفظع من هذا كله أن النساء لم يكن بمعزل عن هذا الجو القذر إذ سرت إليهن عدوى الإفحاش، فترددت ألفاظه فى أشعارهن، فقد كانت بهمذان شاعرة مجيدة تعرف بالحنظلية خطبها أبو على كاتب بكر فلما ألح عليها وألحف، كتبت إليه بيتين يمنعنا الحياء من ذكرهما .

ولكن الصاحب ـ راوى هذه القصة ـ يعجب بهذين البيتين ويدفعه هذا الإعجاب إلى أن يقول :

« وهذه ـ والله ـ فى هذين البيتين أشعر من كبشة أم عمرو والخنساء أخت صخر ومن كعوب الهذلية وليلى الأخيلية . »(٤)

ونعجب نحن من هذا المعجب ومن هذا الذى أعجب به عجباً لا ينقضى !

* * *

---

(١) اليتيمة ٣ : ١٠١ وما بعدها (٢) نفس المصدر ٢ : ٦٣، ٦٥ ومعجم الأدباء ٢ : ٨٨ - ٨٩

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ٦٠ (٤) اليتيمة ٣ : ٨٥

لا نريد أن نطيل فى إيراد الأدلة التى تدل بوضوح وجلاء على رواج الخلاعة والمجون والعبث فى مختلف البيئات الاجتماعية والتى تدل على شغف الناس على اختلاف طبقاتهم بهذا النوع من الشعر الذى يصور انحلال الاخلاق وفساد الذوق فى الحياة الاجتماعية هذا العصر ، وإنما نريد أن نمر مسرعين لنقف وقفة قصيرة عند المجان الحقيقيين من الشعراء الذين عاشوا فى هذه البيئة العابثة فتأثروا بظواهرها تأثراً بالغا واستجابوا لها استجابة قوية فكان شعرهم صورة صادقة ومرآة صافية لما كان فى بيئتهم العامة من استهتار وفحش وإقذاع . ذلك أن هذه الحياة الاجتماعية العارية من الحشمة، الخالية من الجد ، الممعنة فى السخف ، كانت سببا مباشرا فى ظهور أعظم شاعرين ماجنين بين شعراء العربية على الإطلاق هما أبو عبد الله الحسين ابن أحمد بن الحجاج وأبو الحسن محمد بن سكرة الهاشمى ، فقد كان كلاهما ماجنا ، خليع العذار وكان كلاهما فرد زمانه فى فنه الذى اشتهر به .

أما ابن الحجاج فهو من أولاد العمال والكتاب . كان أول أمره يشتغل بالكتابة ،فكتب بين يدى أبى إسحق إبراهيم الصابى فى أيام حداثته ، ثم تأتى له من المعيشة بالشعر ماعدل إليه وعول عليه وكان أكسب له مما كان متشاغلا به. ثم ضمن فرائض الصدقات بسقى الفرات ، وأخيرا عين فى أيام عز الدولة بختيار محتسبا على مدينة بغداد [1] فقال وهو يتولى الحسبة من قصيدة فى أبى الفتح بن العميد وكان قد هجر النبيذ بعد القبض على بختيار وكان ابن بقية الوزير قد شرب . [2]

حقى على الأستاذ قد وجبا فإليه قد أصبحت محتسبا

---

(١) المنتظم ٧ : ٢١٦ وتاريخ الصابى ص ٤٣٠

(٢) اليتيمة ٢ : ٢٤٤

مولاى ترك الشرب ينكره من كان فى بغداد محتسبا
إن كان من غم الأمير فلم وزيره بالأمس قد شربا
إن الملوك إذا هم اقتتلوا أصبحت فيهم كاب من غابا
فلذاك أسكر غير مكترث وألف مع خيشومى الذنبا

وكان ابن الحجاج هذا شاعراً شعبيا ، بل زعيما للشعراء الشعبيين بلا نزاع ، وكان يعتبر قرينا لامرئ القيس ، فقد كان كلاهما زعيما لطريقة جديدة فى الشعر ، وكان كلاهما مخترعا لهذه الطريقة الجديدة فى الشعر ، وكان كلاهما أيضا موضع التقدير والإعجاب عند أهل زمانه . ثم إنهما كانا فى درجة واحدة ، ليس بينهما مثلهما . . . كذلك قال القدماء . وكذلك نقول نحن إذا ماقرأنا شعرهما الآن .

وليس هناك ـ بعد ذلك ـ ما يضير تاريخ الأدب إذا تعارض فى أحكامه مع النقد الأدبى فجعل من ابن الحجاج فى القرن الرابع قرينا لامرئ القيس فى العصر الجاهلى ، وجعل من شعر ابن الحجاج مثلا أعلى لنوع من الشعر بعينه ، قد اقتضته ظروف الاجتماع وطبيعة الحياة . فتاريخ الأدب لا يعنيه فى الدرجة الأولى إلا أن يسجل الظواهر الأدبية ويشرحها ثم يربطها بعللها الاجتماعية والتاريخية والإقليمية ، ولا يهمه بعد ذلك إن كانت هذه الظواهر خيراً أو شراً ، حقا أو باطلا . . . الخ ، فهو يقرر ماهو كائن ، لا ما يجب أن يكون .

وإذا كان الأمر كذلك فلا بأس على الثعالبى مؤرخ أدب هذه الفترة إذا قال فيه : « إنه فرد زمانه فى فنه الذى شهر به ، وإنه لم يسبق إلى طريقته ، ولم يلحق شأوه فى نمطه ، ولم ير كاقتداره على ما يريده من المعانى التى تقع فى طرزه مع سلاسة الألفاظ وعذوبتها وانتظامها فى سلك الملاحة والبلاغة

وإن كانت مفصحة عن السخافة ، مشوبة بلغات الخلديين والمكدين وأهل الشطارة . . »

ولا بأس أيضاً على الصابي إذا ما وصف شعر ابن الحجاج بما يقرب من وصف الثعالبي إياه إذ قال : « . . . وقد اختار الرضي أبو الحسن الموسوى من شعره السليم قطعة كبيرة فى غاية الحسن والجودة والصنعة والرقة . »(١)

وعلى أية حال فقد كان ديوان شعره الضخم « أسير فى الآفاق من الأمثال وأسرى من الخيال » ، كما يقول الثعالبي ، إذ كثيراً ما بيع بخمسين ديناراً إلى سبعين . وهو يقع فى عشر مجلدات .

* * *

وأما ابن سكرة فهو كما يقول الثعالبي « شاعر متسع الباع فى أنواع الإبداع فائق فى قول الملح والظرف ، أحد الفحول الأفراد ، جار فى ميدان المجون والسخف ما أراد » ، وكان منحرفاً عن على بن أبي طالب عليه السلام ، وكان خبيث اللسان يتقى سفهه .(٢)

ويقال إن ديوانه يربى على خمسين ألف بيت ، منها فى قينة سوداء يقال لها « خمرة » أكثر من عشرة آلاف بيت .

بعد هذا التعريف الموجز بهذين الشاعرين أود أن أتساءل فأقول : أكان هذان الشاعران ماجنين خليعين حقا ؟ أكان هذا الشعر القذر يصدر عن ميل ذاتى متأصل فى طبيعتيهما ؟ وبعبارة أخرى :

هل كان هذان الشاعران يحسان فى قرارة نفسيهما بأنهما فى حاجة ملحة إلى الإفصاح والإبانة عن شعور باللذة عنيف ، وميل إلى التهتك شديد ؟ أم أنهما كانا خاضعين فى ذلك لمؤثرات خارجية ، تدفعهما إلى النظم دفعاً ،

(١) تاريخ هلال الصابي ص ٤٣٠ (٢) ابن الأثير ٧ : ١٧٤

وتضطرهما إلى القول اضطراراً ، وتقذف بهما فى بحر خضم من المقاذر قذفاً ، دون أن يكون لهما فى ذلك إرادة أو رأى ؟

والحق إننا نظلم الشاعرين ظلماً عظيما ، ونبتعد عن الصواب بعداً كبيراً إذا قلنا إنهما كانا مطبوعين على المجون ، كما كان أبو نواس مثلا مطبوعاً على المجون ، ذلك أن أبا نواس فى مجونه وفى تصويره لهذا المجون كان مدفوعاً بعامل ذاتى ، بحافز داخلى ، مصدرهما نفس الشاعر وطبيعته . أما ابن الحجاج وابن سكرة فى مجونهما وفى تعبيرهما عن هذا المجون فقد كانا فى الدرجة الأولى متأثرين بعوامل خارجية ، مصدرها الحياة الاجتماعية ، فشأنهما فى ذلك شأن الممثل الهزلى الذى فرضت عليه مهنته إجادة الفصول المضحكة ، والفكاهات السارة على خشبة المسرح ليرضى النظارة ، وليبعث فيهم البشر والانشراح ، حتى إذا انتهى من عمله ، وانقطعت صلته بالملعب والرواد كان أكثر الناس جداً ووقاراً .

وإذن فأنا أزعم أن هذين الشاعرين كانا يمثلان فصولا هزلية على مسرح الحياة العامة ، وكانت هذه الفصول تبعث فى السامعين لذة وسرورا ، فتفوز بالرضى والإعجاب منهم ، ولكنها كانت فصولا هزلية من نوع آخر ، من نوع ثقيل ، سخيف ، قذر ، أوحت به طبيعة الحياة الاجتماعية لا طبيعة الشعراء ذلك أن تيارها الجارف كان أقوى من أن يقاوم أو يغلب ، ولهذا لم يكن لأحد منهم قبل لأن يقف فى طريقه .

وتلك — كما لا يخفى — دعوة تحتاج إلى دليل . والدليل — كما يبدو لى — يمكن أن يلتمس فى حياة هذين الشاعرين الخاصة نفسها ، كما يمكن أن يلتمس فى الشعر الذى أثر عنهما . فالأخبار التى رواها المعاصرون على قلتها تشير إلى أن ابن الحجاج كان وقوراً ، وكان حيياً بدليل ما رواه أبو حيان

التوحيدى من كلام أبي الفتح بن العميد حينما خاطب ابن الحجاج قائلا :(١)
« يا أبا عبد الله ، لقـــد والله تهت عجبا منك ، فأما عجبي بك فقد تقدم ، لقد كنت أفلى ديوانك ، فأتمنى لقاءك وأقول : من صاحب هذا الكلام أطيش طائش ، وأخف خفيف ، وأغرم غارم ، وكيف يجالس من يكون فى هذا الإهاب وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب الآداب حتى شاهدتك الآن ، فتهالكت على وقارك وسكون أطرافك ، وسكوت لفظك ، وتناسب حركاتك ، وفرط حيائك ، وناظر ماء وجهك ، وتعادل كلك وبعضك ، وإنك لمن عجائب خلق الله ، وطرف عباده . والله مايصدق واحد أنك صاحب ديوانك ، وأن ذلك الديوان لك ، مع التنافى الذى بين شعرك وبينك فى جدك » .

أليس فى هذا النص ما يدل دلالة صريحة على أن نفس الشاعر لم تكن هى المصدر الذى انبعث عنه هذا الشعر الخليع ؟ وإلا فكيف يكون الإنسان حيا مفرطا فى الحياء ، وقوراً مسرفا فى الوقار ، جادا مبالغا فى الجد ، ثم يصدر عنه مثل هذا السخف ، وهذا الهزل ، وهذه القذارة ؟ إنه تناقض ما بعده تناقض ، وإنه تناف مابعده تناف بين ابن الحجاج الشاعر الماجن وبين ابن الحجاج الرجل الوقور الحي الجاد .

وإذا صح ماقاله بعض النقاد من أن الأدب مرآة لنفس الأديب تنعكس فيها خلجاته ومشاعره ، وتتراءى فيها نزعاته وأهواؤه ، وإذا صح ما قاله أبو الفتح بن العميد فى ابن الحجاج من أنه عجيبة من عجائب خلق الله وطرفة من طرف عباده لما بينه وبين شعره من تناف وتنافر ، أقول : إذا صح هذا كله فكيف نفسر صدور شعر ابن الحجاج عن ابن الحجاج نفسه؟ ليس هناك من تعليل لهذه الظاهرة الأدبيـــة غير تعليلها بأنها صورة

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ : ١٣٨

لمجتمع ابن الحجاج الماجن الهازل ، أو « تمثيل » على مسرح الحياة العامة يقصد منه الربح والفائدة . ذلك أن حياة ابن الحجاج المادية — كما مر بنا قبل قليل - كانت قائمة على بيـــع هذا الشعر لمن ينفق عندهم من الكبراء والفضلاء ورجال الدولة . فقد كان ابن الحجاج يحترف الكتابة فى حداثته، ثم تركها فاشتغل بالشعر السخيف لأنه وجده أكسب له مما كان متشاغلا به ، ولكن لماذا نكلف أنفسنا مشقة التدليل وابن الحجاج نفسه يعترف بأنه اتخذ الهزل والمجون وسيلة للارتزاق والعيش فى هـــذه الحياة ، وذلك حين يقول :

بالله يا أحمد بن عمرو تعرف للناس مثل شعرى ؟
شعر يفيض الكنيف منه من جانبى خاطرى ونحرى
نسيمه منتن المعانى كأنه فلتة بجحر
لو جدّ شعرى رأيت فيه كواكب الليل كيف تسرى
وإنما هزله مجون يمشى به فى المعاش أمرى

وبالإضافة إلى هذا وذاك فإن ابن الحجاج فى شعره يشير إلى أن التزامه للسخف ضرورة ملحة من ضرورات الحياة القاسية التى زال فيها الوقار والاحتشام إذ لا يستطيع العاقل أن يطيق المقام فيها دون أن يمارس هذه المقاذر ، ويشير فى شعره أيضا إلى أنه مضطر إلى أن يملأ شعره بالهزل والمجون اضطراراً ، لماذا ؟ ليدفع به عن نفسه وماله وجاهه عادية الخصوم ولينال به الحظوة عند الرؤساء ، وذوى السلطان أيضا ، وذلك حين يقول :

وشعرى سخفه لا بد منه فقد طبنا وزال الاحتشام
وهل دار تكون بلا كنيف فيمكن عاقلا فيها المقام؟

وحين يقول وقد لامه أحد الرؤساء على سخفه .

سيدى شكرك عندى　　مثل شكرى لإلاهى
سيدى سخفى الذى قد　　صار يأتى بالدواهى
أنت تدرى أنه يد　　فع عن مالى وجاهى

ألا يدل هذا كله على أن ابن الحجاج كان ممثلا قد اضطرته ظروف مادية قاسية ونفس منحلة ضعيفة إلى اتخاذ هذا الشعر السخيف حرفة للارتزاق فى الحياة ووسيلة لنيل الحظوة والجاه عند ذوى السلطان ؟

* * *

وأما ابن سكرة الهاشمى فقد كان دينا ، يصلى ويصوم ويتفكر فى العقاب والثواب ، ويشهد على أنه كان يصلى ماروه الثعالبى عن الواسطى من أنه « حلف بطلاق امرأته أنه لا يخلى بياض يوم من سواد شعره فى هجاء « خمرة » ولما شعرت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا انفتل زوجها من صلاة الصبح تجيئه بالدواة والقرطاس ، وتلزم مصلاه لزوم الغريم غير الكريم فلا تفارقه ما لم يقرض ولو بيتا فى ذكرها وهجائها » (١)

ويدل على أنه كان يصوم قوله :

أما الصيام فشىء لست أعدمه　　مدى الزمان وإن بيت إفطارا

وقوله :

وهنوا بالصيام فقلت مهلا　　فإنى طول دهرى فى صيام
وهل فطر لمن يمسى ويصبح　　يؤمل فضل أقوات اللئام

وفى شعره أيضا ما يدل على أنه كان يتذكر الموت والبعث فيجزع لذلك ويفزع ويلوم نفسه ويعنفها أشد اللوم والتعنيف ، ويطلب إليها أن

---

(١) اليتيمة ٢ : ١٨٩

تتوب وترعوى كقوله :

محمد ما أعددت للقبر والبلى ... والملكين الواقفين على القبر ؟
وأنت مصرٌّ لا تراجع توبة ... ولا ترعوى عما يذَمّ من الأمر
تبيت على خمر تعاقر دنها ... وتصبح مخموراً مريضا من الخمر
سيأتيك يومٍ لا تحاول دفعه ... فقدم له زاداً إلى البعث والحشر

* * *

كل ذلك يجعلنا نميل إلى القول بأن هذين الشاعرين لم يكونا فى شعرهما الماجن يصدران عن طبع أصيل ، وإنما كانا يصدران فيه عن تطبع وتكلف استجابة لظروف خارجية .

ولعلى أكثرت ، وأطلت فى هذا الكلام ، ولكنى أبحت لنفسى هذا الاسترسال لأوضح ما قلته سابقا من أن أدب المجون حتى عند أكبر الشعراء الماجنين كان صدى من أصداء البيئة الاجتماعية وأثراً من آثار نظامها الفاسد الذى أشرنا إليه أكثر من مرة، ولأشير أيضا إلى أن أدب المجون فى هذا العصر كان يمثل ظاهرة اجتماعية عامة ، بينما كان أدب المجون فى العصور السابقة يمثل ظاهرة اجتماعية خاصة مقصورة على طائفة مستهترة ضئيلة العدد قد نبذها المجتمع وأخرجها من حظيرته ، وحكم على أفرادها بالمروق والخروج على تقاليده.

* * *

وبعد ، فقد كان من الضرورى أن أخوض فى هذا المستنقع الآسن الذى تملأه الأقذار ، وتفوح منه الروائح الكريهة ، وتتراءى فيه الأجساد والعورات والسوءات ، عارية مكشوفة ، وهى فى أوضاع وأشكال ومواقف تقشعر منها الأبدان ، وتتقزز منها النفوس ، ويعافها الذوق السليم ، ويأباها

الخلق الكريم .

أقول كان لا بد لى من أن أخوض فى هذا المستنقع القذر من الأدب الخليع لأعرض بعض نماذجه التى كان يعتبرها الثعالبي وغير الثعالبى من المعاصرين « من الملح الخالية من الفحش المفرط ، الحالية بالحسن المقرط »[١]، لنرى كيف حالت الحال وتبدلت عند هؤلاء القوم ، وكيف فسد الذوق وتبلد الحس ، وكيف تغير مفهوم الأخلاق حتى وصلت إلى هذا الدرك الأسفل من الانحلال الفظيع ولكن الحياء والخجل والإشفاق على المروءة والذوق السليم من أن يصابا بسوء تمنعنى كلها من أن أثبت بعض هذه النماذج الخليعة التى وصفها الثعالبى بأنها خالية من الفحش المفرط وبأنها حالية بالحسن المقرط وبأنها تسر النفس وتعيد الأنس . ولهذا اضطررت أن أكتفى بذكر مطالعها فقط والإشارة إلى مكانها من كتاب اليتيمة ليرجع إليها من يحب الاطلاع على نماذج من هذا الأدب الفريد فى بابه .

قال الثعالبي اتخذ ابن الحجاج دعوة كبيرة فى أيام عز الدولة ودعا إليها أقواما شتى من رجال الدولة فقال :[٢]

قل للأمير المرتجى　　من جاءنى فقد نجا

وقال :[٣]

ياصاح فاشرب واسقنى　　من الشراب العكبرى

وقال أيضا وهى « مما أخرج من خرافاته فى مجونه ومفاحشاته » :[٤]

سرى متعرضا طيف الخيال　　فسوف لامحالة بالمحال

---

(١) اليتيمة ٢ : ٢٢٢ (٢) اليتيمة ٢ : ٢٢٢ (٣) نفس المصدر ٢ : ٢٤٨
(٤) نفس المصدر ٢ : ٢٤٥

وقال ابن سكرة فى قينة كان يعشقها : (١)

عشقت للحين قينة عطفت ... قلبي بالحسن كل منعطف

وما من ريب فى أن من يقرأ هذه النماذج المفضوحة وما شاكلها من أدب المجون يجد أنها تدل بوضوح على نزعة إباحية قوية كانت قد تملكت المجتمع فى هذا العصر فانطلق الشعراء تحت تأثيرها فى هذا السخف .

ولعل سبب ذلك يعود - أيضا - إلى ظهور الفحش المستبشع فى المدن الشرقية وسيطرته على المجتمع من جديد بعد أن أخمدته الروح العربية فى العصور السابقة. (٢)

وقد يؤيد وجود هذه النزعة الإباحية عند الفرس ما أثر عن إيران القديمة من نقوش حائطية تحوى كثيراً من مناظر الحب ، ورسوم الرجال والنساء فى مواقف قد تصل إلى حد كبير من الإباحية ، كما أثر عن إيران الإسلامية مثل هذه النقوش الإباحية على حيطان القصور وجدران الحمامات. (٣)

ويؤيد وجود هذه النزعة الإباحية أيضا أن تعاليم زردشت كانت تسمح باتخاذ الخليلات والمحظيات ، كما كانت أخلاق الفرس وآدابهم لا ترى فى فجور النساء وزنا المتزوجات منهن جرمين غير قابلين للغفران مالم يقترنا بإجهاض الحمل . (٤)

* * *

وقبل أن أنتهى من هذا الموضوع أود أن أشير إلى أن تعليل طغيان

---

(١) اليتيمه ٢ : ١٩٦ (٢) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٤٨

(٣) الفنون الإيرانية للدكتور زكى حسن ص ٦٢،٦٥ ومطالع البدور للغزولى ٢ : ٩٠٧

(٤) قصة الحضارة الفارسية ص ٥٨ و ٦١

المجون على المجتمع البويهى تعليلا تاريخيا أمر فيه شىء من التطرف الذى لا يتفق مع الروح العلمى ، ذلك أنه وإن استطاع أن يضع ايدينا على منبع المجون ومصدره فإنه لا يستطيع أن يفسر لنا الأسباب المباشرة التى أدت إلى تحطيم المقاييس الخلقية والأوضاع الاجتماعية السائدة من جهة ، وظهور مقاييس جديدة مكانها جعلت الاسترسال فى هذا المجون شيئاً مألوفاً عند الناس من جهة أخرى .

وهذه الأسباب المباشرة كما يبدو لى هى : كثرة الحروب واتصالها ، وسوء الحالة الاقتصادية ، وضعف الوازع الدينى فى النفوس .

أما الحروب فقد كانت نتيجة لاضطراب الحالة السياسية والإدارية — كما مر بنا — ولهذا كانت فارس والعراق ميداناً لحروب طاحنة متصلة طوال العصر البويهى والعصر الذى سبقه أيضاً . وللحروب — كما لا يخفى — آثار سيئة فى حياة الشعوب المادية والمعنوية لما يتخللها من ظلم واغتصاب واعتداء على الحريات ، وانتهاك للمحارم ، ولما يعقبها من خراب ودمار . ففى الحروب الحديثة مثلا تضحى الأمم بكل قواها المعنوية والمادية فى سبيل النصر ، ولهذا نلاحظ بعد كل حرب من هذه الحروب العامة تفسخاً فى الأخلاق ، وتغيراً محسوساً فى التقاليد والاعتبارات الاجتماعية أما فى الحروب القديمة فقد كانت النتائج أسوأ وأفظع لأن الغالب كان يبيح لنفسه أن يتصرف بالمغلوب كما يحب ويهوى ، ولهذا وجد التفسخ الخلقى مجالا واسعاً وتربة خصبة فى البلاد التى أنهكتها مثل هذه الحروب .

ولعل الحديث الذى ذكره المقدسى — وهو منحول من غير شك — يصور لنا آراء الناس حينذاك فى الحكم البويهى والحروب البويهية ، حيث كانوا يعتبرونها سبباً فيما نالهم من مصائب فى أموالهم وأعراضهم ودينهم

قال المقدسى: « وقرأت فى بعض الكتب بفارس حديثاً بإسناد إلى النبى (ص) : كأنى أنظر إلى شأن الديلم فى أمتى وقد أغاروا على أموالهم وخربوا المساجد وهتكوا الحرم وأضعفوا الإسلام وأزالوا النعم وهزموا الجيوش ولا يغلبهم غير أمر الله » . (١)

وأما سوء الحالة الاقتصادية فقد كان أثراً من آثار النظام المالى الفاسد الذى أدى إلى الغنى الفاحش فى جانب والفقر المدقع فى جانب آخر ، فانعدم التوازن الاجتماعى بين الطبقات ، ولا شك أن المجتمع الذى يمنى بمثل هذه الظاهرة يكون عرضة للأدواء الاجتماعية الفتاكة التى تعمل على تفسخه وانحلاله ، فالفراغ من جد الحياة يحمل الأغنياء على الهزل والعبث ، وكثرة المال عندهم تدفعهم إلى الاستكثار من وسائل اللذة ، والإسراف فى تطلبها ، والفقر المدقع يضطر الفقراء والصعاليك غالباً إلى التضحية بالكرامة وعزة النفس ، ويشجعهم على الاستهتار بالتقاليد الاجتماعية . وأكثر ما يكون ذلك فى المدن حيث يكون الصراع بين الناس على أشـــده حول الرزق والجاه والنفوذ .

فى مثل هذه المجتمعات يندك صرح الأخلاق ويتعطل مفعول المثل العليا وذلك ماحصل بالضبط فى المجتمع البويهى حيث كان كل شىء ينال بالمال وكل شىء يعرض من أجل المال ، إذ « أصبحت للمال قوة عظيمة حتى سحقت طاحونه الكبيرة كل قيمة أخرى . . . » (٢)

وأما ضعف الوازع الدينى فى النفوس فقد كان نتيجة لظهور البدع

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٧٢ (٢) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٥١

الدينية التى تخالف روح الإسلام ، كالصوفية وما صاحبها من « نزعة قديمة إلى عدم المبالاة بكل ما فى هذه الدنيا حتى بالشريعة » ، والإسماعيلية وما تفرع عنها من مذاهب « ليست إسلامية حقاً . . . تبيح المحظورات وتضع من الشرائع وأصحابها »[1] فكثر من أجل ذلك كله : المتنبئون والمهديون والمدعون بالألوهية والقائلون بالحلول ، وكثر أيضا من يصدق هؤلاء جميعاً ويتبعهم ، كما كثر من يحتقر الدين ويجاهر بهذا الاحتقار على نحو لم يسبق له نظير فى عصر من العصور .

كل هـــذه العوامل وما تقدمها مجتمعة ، جديرة بأن تحطم المقاييس الخلقية ، وتفسد الذوق العام فى المجتمع ، فتهيء الفرصة الملائمة لانتشار المجون على اختلاف أنواعه من ولع بالغلمان ، وعبث بالجوارى ، وحانات ومواخير ، ودور لهو ، وغناء ، وبغاء ، وألفاظ بذيئة مقذعة . وكل هذه العوامل مجتمعة أيضاً خليقة بأن تجعل الناس بين منعم يتطلب اللذة وفقير يبتغى المال ، وبائس مكروب ينشد السلوى والعزاء .

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ٢٥ ، ٦١

خاتمـــة

فى خصائص الأدب البويهى

لا بد لنا فى هذا المقام من أن نشير إلى أن الأدب العربى حينما انتقل من جزيرة العرب إلى البلاد المفتوحة قد تأثر بصورة تدريجية بالحياة الحضرية والعلمية ، فاتسم من أجل ذلك برقة الألفاظ ، وسهولة العبارة ، والإبداع فى التصوير ، والإغراب فى الخيال ، واستنباط الجديد والدقيق من المعانى ، ونحو ذلك من الخصائص التى خاض فيها الخائضون قديماً وحديثاً ، فأشبعوها بحثاً ودرساً . ولكن حينما انقسمت المملكة الإسلامية فى أوائل القرن الرابع دولا وإمارات مستقلة ، ثم تبع هذا الانقسام ظهور الآداب الإقليمية ، انتقلت تلك الخصائص الفنية إلى هذه الآداب عن طريق الإرث . هذا ، ولما كنا نريد فى هذه الخاتمة أن نبين الخصائص الفنية التى يمكن أن تتخذ دليلا على وجود أثر الشخصية الإقليمية فى الأدب البويهى آثرنا عدم التعرض لهذه الخصائص العامة التى لا يتميز بها أدب إقليمى عن أدب إقليمى آخر ، ومن أجل هذا سنقصر كلامنا على تلك الخصائص التى ظهرت فى الأدب البويهى قبل غيره ، أو التى امتاز بها دون سواه . ولكن قبل أن نبدأ كلامنا هذا لا بد لنا من أن نتذكر ما قلناه فى فصل سابق من أن الأدب البويهى — لأسباب ذكرناها — كان على نوعين : أحدهما أدب أرستقراطى رفيع ، وثانيهما أدب شعبى ، وأن هذين النوعين من الأدب كانا مختلفين فى الصياغة والمعانى ولهذا نرى لزاماً علينا أن نتكلم على خصائص كل منهما على انفراد .

بعد هذا نستطيع أن نلخص خصائص الأدب البويهى الرفيع فى أمرين

اثنين : فى هذا التأنق الشديد فى الأسـلوب ، وفى هذه المبالغة المفرطة فى المعانى .

أما التأنق فى الأسلوب فمصدره الإسراف فى استعمال السجع والمحسنات البديعية كالجناس والطباق ، فهذه العناصر ، وإن كانت معروفة لدى القدماء إلا أنهم لم يسرفوا فيها إسراف أدباء العصر البويهى ، إذ لم يكد يبدأ القرن الرابع حتى رأينا السجع يعم جميع الرسائل السلطانية مصحوباً بالجناس والطباق ، فكان ذلك مبدأ ظهور الأسلوب المحلى بالسجع والبديع فى الأدب العربى على يد أبى الفضل محمد بن العميد المتوفى عام ٣٦٠ ، فقد كان هذا الكاتب أول من نحا هذا النحو فى كتاباته ، ولهذا يعد أستاذاً لهذه الطريقة الجديدة فى الكتابة ، ثم تابعه على ذلك بقية الكتاب ممن تلمذوا عليه ، كالصاحب ، أو قلدوه كالبديع والخوارزمى والصابى والثعالبى وغيرهم . وقد يدل على ذلك ما أثر عنه من رسائل وفصول اهتم فيها كثيرا بالسجع والبديع فمن ذلك قوله من رسالة وجهها إلى ابن بلكا :(١)

« كتابى ، وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة أيسرهما يوجب رعاية ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ويسحق كل ما يرعى لك ، لاجرم إنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك » .

وعلى هذا النحو من السجع والبديع يمضى إلى آخر الرسالة .

وعلى هذا فإن الأسلوب الأدبى الأنيق ظهر — أول ما ظهر — فى بلاد فارسية ، وعلى يدى كاتب فارسى ، ثم انتقل بعد ذلك إلى بقية الممالك

---

(١) اليتيمة ٣ : ١٠

الإسلامية عن طريق الاحتذاء والتقليد . ولا شك فى أن هذا الأمر إن دل على شىء فإنمـــا يدل على أن مصدر الأناقة فى الأدب فارسى ، كما يدل على أثر الشخصية الإقليمية فى الأدب البويهى .

وعلى أية حال فقد أغرم الأدباء فى العصر البويهى بالسجع المصحوب بالجناس والطباق إغراما شديداً ، فالتزموه فى كل ما يكتبون .

فالصاحب بن عباد مثلا كان ولوعا بالسجع ، كلفا به إلى حد الإفراط فيه ، وصفه أبو حيان فقال [1] : « كان كلفه بالسجع فى الكلام والقـــلم عند الهزل والجد يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد ، قلت لابن المسيبى : أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بهـا حبل الدولة ، ويحتاج من أجلهـــا إلى غرم ثقيل وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لمـا كان يخف عليه أن يخليها ، بل يأتى بها ويستعملها ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها » . ثم قال — نقلا عن ابن العميد — : « إن الصاحب خرج من الرى متوجها إلى أصفهان ومنزله « ورامين » ، وهى قرية كالمدينة فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشىء إلا ليكتب إلينا : كتابى هـذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار » .[2]

ومهما يمكن أن يقال فى كلام التوحيد وما فيه من تندر على الصاحب وسخرية منه فإنه من الثابت قطعاً أن ميل الصاحب هذا إلى السجع كان شديداً ، ورسائله وفصوله كلها تدل على ذلك ، فمن قوله فى رقعة استزارة :[3] « غداً يا سيدى ينحسر الصيام وتطيب المدام ، فلا بد من أن نقيم

---

(١) معجم الأدباء ٦ : ٢٠٧

(٢) معجم الأدباء ٦ : ٢٢٠

(٣) اليتيمة ٣ : ٨٠

أسواق الأنس نافقة ، وننشر أعلام السرور خافقة ، فبالفتوة فإنها قسم للظراف ، يفرض حسن الإسعاف لما بادرتها ولو على جناح الرياح » .

وكان الصابى كالصاحب ميالا إلى السجع ، مكثرا منه فى رسائله ، قال ابن خفاجة : « من كتاب المحدثين من كان يستعمل السجع ولا يكاد يخل به وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى [1] » ، فهو حين يكتب رسالة عن معز الدولة عند ظفره ببعض أعدائه يغرق فى استخدام السجع ، فيقول فيها :[2]

« فلما عز بعد الذلة ، وكثر بعد القلة ، وبعد صيته بعد الخمول وطلع سعده بعد الأفول ، وجمعت عنده الأموال ووطئت عقبه الرجال ، وتضرمت بحسده جوانح الأكفاء ، وتقطعت بمنافسته أنفاس النظراء ، نزت به بطنته وأدركته شقوته ، ونزغ له شيطانه ، وامتدت فى الغى أشطانه فنصب أشراكه وحبائله ، وأعمل مكايده ومخاتله » .

أما إذا انتقلنا إلى الرسائل الإخوانية فإننا نجد التأنق فى الأسلوب الأدبى يصل إلى ذروته ، نجد ذلك مثلا فى رسائل كاتب كأبى بكر الخوارزمى أو بديع الزمان الهمذانى ، ويكفينا دليلا على ذلك هذه القطعة التى أسرف فيها الخوارزمى فى استعمال السجع والجناس والطباق إسرافاً شديداً ، وهذه القطعة هى :

« ... ويصب فى سمعى من خبر انحسام دواعى هذه المحنة ، ما يعيد شبابى الذى ولى ، ويطرد شيبى الذى تجلى ، فحق لمن شاب من سماع ما يسوءه ، أن يشب من سماع ما يسره ، وحق لجسم هدمه الغم الأمسى ، أن يبنيه الفرح اليومى ، وحق للدهر أن يكف فقد بالغ فى العقاب وتناهى

---

(١) ديوان خطب ابن نباتة الفارقى ص ١٦

(٢) رسائل الصابى ص ٣٤

فى العتاب ، وحق لصروفه أن تنصرف فقد أشفت وشفت ، واكتفت وكفت، وزادت على ما فى الإمكان وأوفت ...»[١]

وأما المبالغة المفرطة فى المعانى فقد ظهرت واضحة كل الوضوح فى هذه الاستعارات البعيدة ، وفى هذه الكثرة من التشبيهات ، وفى عبارات التفخيم والتعظيم والتمجيد ، ثم فى هذه التهويلات التى لا حد لها ، كقول الصاحب:[٢]

« مجلسنا يا سيدى مفتقر إليك ، معول فى إغنائه عليك ، وقد أبت راحه أن تصفو إلا أن تتناولها يمناك ، وأقسم غناؤه لا طاب أو تعيه أذناك فأما خدود نارنجه فقد احمرت خجلا لابطائك ، وعيون نرجسه فقد حدقت تأميلا للقائك . . . الخ »

وقول الخوارزمى من رسالة كتبها إلى أحد تلاميذه عن قصيدة بعث بها إليه :

« وردت القصيدة الغراء ، بل الدرة العذراء ، بل الهدية العظيمة ، بل الشمس الكريمة ، بل الياقوتة اليتيمة ، بل فريدة الدر ، بل غرة الغر ، بل شمس الكرام ، وغريبة الأيام ، بل الخطاب الجزل والمنطق الفصل ، بل الحسن والإحسان ، بل التبيين والتبيان ، بل واحدة القصائد وخاتمة القلائد ، وآبدة الأوابد . . . بل روح المعانى والمبانى ، وهيكل الأوزان والقوافى . . . الخ » . وعلى هذا النحو من التهويل يمضى إلى آخر رسالته .

وقول الصابى عن الوزير ابن بقية موجهاً إلى قاضى القضاة :

« وصل كتاب قاضى القضاة بالألفاظ التى لو مازجت البحر لأعذبته ،

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ١٧ . (٢) اليتيمة ٣ : ٨٠

والمعانى التى لو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته »(١)

وهكذا كان أدباء العصر البويهى يسجعون ويجانسون ويطابقون ويبالغون ويهولون ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، حتى أصبح الأسلوب المحلى بالسجع والبديع ، المبنى على المبالغة والتهويل من خصائص الأدب البويهى دون سواه .

ولقد قدر لهذا الاتجاه الأدبى أن يسود ويشيع مع ما كان فيه من زيغ وانحراف عن الأساليب الأدبية المقبولة ، إذ استساغه الناس وأقبلوا عليه وعدلوا عن سواه ، ذلك لأن الكثرة الغالبة من الأدباء كانوا يغشون هذه البيئات المترفة التى نشأ فيها هذا الأسلوب الأنيق ويعيشون فى أكنافها وينفقون فى أسواقها ، فما كان لهم إلا أن يتذوقوا الأشياء بذوقها ويخرجوا أدبهم على غرار الأدب الذى ينتجه أساتذتهم من أدباء القصور . فكان من أثر ذلك أن تكون ذوق أدبى عام يعجب بالتجنيس اللطيف ، ويستحسن الاستعارة البعيدة ، ويطرب للازدواج ويكلف بالسجعة التى تنحل بموقعها عروة الملك ، أما المعانى التى لم توجد الألفاظ إلا من أجلها ، ولم تخلق ضروب البيان إلا لأدائها كما هى فى نفس الأديب فإنها لم تكن من الأهمية بحيث تظفر بعناية هؤلاء القوم . ولم لا يكون الأمر كذلك ، وحياتهم خالية من المعانى الخطيرة ، عامرة بالأعراض والزخارف ؟!

ومن الغريب أن يسرى هذا الذوق الأدبى إلى المؤلفين فيسيطر على لغة التأليف فى هذا العصر ، فقد كان المؤلفون ينحون فى كتبهم نحو الأدباء فى كتاباتهم من حيث العناية بالحلية اللفظية والمبالغات والتهويلات مما أدى إلى غموض المعانى ، بل إلى إفسادها فى كثير من الأحيان . فأوصاف الشعراء

---

(١) اليتيمة ٢ : ٢٧٧

والكتاب فى كتاب كاليتيمة قد تشابهت والتبست وعميت لأن المؤلف أسرف فى أسجاعه ومبالغاته واستعاراته ومجازاته ، فكان من أجل ذلك أكثر أدباء اليتيمة : أفراداً ودرراً ، وصدوراً ، وغرراً ، ونوادر .

فابن العميد : « عين المشرق ، وأوحد العصر فى الكتابة والضارب فى الآداب بالسهام الفائزة »

والصاحب بن عباد : « صدر المشرق وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ونادرة عطارد فى البلاغة »

والجرجانى : « فرد الزمان ، ونادرة الفلك ، ودرة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر »

والهمذانى : « نادرة الفلك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغرة العصر »

والخوارزمى : « باقعة الدهر ، وبحر الأدب ، وعلم النظم والنثر » .

وعلى هذا النحو يمضى فى سرد تراجم الكتاب والشعراء فى كتابه .

وأغرب من ذلك بكثير أن يؤلف المقدسى كتاباً فى الجغرافية فيلتزم فيه السجع أكثر من أصحاب السجع أنفسهم ، فإذا أراد مثلا أن يصف جرجان قال :

« ولكن اسمع الآن ، هو مصر حره شديد مع كرب وذبان ... ومن حلها من بلده فليعدد الأكفان ، فإن بها منجلا يحصد الأبدان ، وتراهم على رأس الجمل يوم النحر « حزبان » (١) فمجروح ومضروب وحيران ، ولا يفارقهم هرج وقتل وجيشان ، جيش من الديلم والآخر من ترك سامان ، وتعصب وحش عليه الفريقان ، وتشيع مفرط مع خلق قرآن ... فهذا ما أتقنته من وصف جرجان . »

---

(١) لاحظ : كيف ضحى المقدسى بالنحو فى سبيل المحافظة على السجع .

وليس من شك فى أن ظهور هذا المذهب الأدبى وشيوعه فى الهضبة الإيرانية وما جاورها من السهول قبل غيرها من البلاد الإسلامية أمر يبعث فى نفس الباحث دهشاً واستغراباً ويثير فيها فضولا وتساولا ، ترى ما الذى حمل الأدباء على أن يتأنقوا ويجودوا فى أساليبهم وأن يبالغوا ويهولوا فى معانيهم ؟ أهو التأنق فى المعيشة ؟ أهو الإمعان فى هذا التأنق ؟

قد يكون ذلك صحيحاً ، فقد ذهب غير واحد من الباحثين المحدثين هذا المذهب فى تفسير هذه الظاهرة ، منهم أستاذنا الجليل أحمد أمين بك (١) والأستاذ خليل مردم (٢) . ولكنى - مع ذلك - أشعر بعدم الاطمئنان إلى هذا التفسير . لا ، بل يساورنى الشك فى صحته ، ثم يدفعنى هذا الشك إلى التساؤل فأقول:

أيمكن أن يكون كد الذهن وإجهاد الخاطر وترويض النفس فى تصيد التجنيس والطباق والسجع والمجـــاز والمبالغة نوعاً أو أنواعاً من الترف ترضى النفوس اللاهية ؟ . ثم . . . أيصح أن تكون ألفاظ اللغة وأساليبها من السهولة واليسر بحيث يستطيع أن يعبث بها هؤلاء المنعمون كما يعبثون بأدوات الزينة والترف فى قصورهم ؟

لا أظن الأمر كذلك ، إذ أن الفرق كبير بين تأنق الإنسان فى معيشته وتأنقه فى أسلوبه الأدبى ، فهو إذا تأنق فى طعامه وشرابه ولباسه وسكنه وأسرف فى تأنقه ، لا يتكلف مشقة ولا جهداً لأنه يعتمد فى ذلك على غيره، يعتمد على هؤلاء الخدم والحشم والأعوان ، ثم على هذا المال المكدس فى خزائنه ، ولكنه إذا أراد أن يتأنق فى أسلوبه الأدبى، فالأمر على العكس من ذلك تماماً ، إذ أنه فى هذه الحالة محتاج إلى تكلف عناء الحفظ والدرس

---

(١) فى كتابه ظهر الإسلام ص١٣٣ (٢) فى رسالته عن ابن العميد

والاطلاع ، ثم هو محتاج - بعد ذلك - إلى كد الذهن وإجهاد الخاطر ليجتلب ألفاظاً تتشابه أواخرها أو تتفق حروفهـا وتختلف معانيها ، أو تختلف حروفها وتتضاد معانيهـا لتتحقق له هذه المحسنات البديعية من سجع وجناس وطباق .

شتان إذن بين الحالتين : حالة الرجل متأنقاً في عيشه ، وحالة الرجل متأنقاً في أسلوبه الأدبي ، فهو في الأولى يلهو ويعبث وينعم ليحقق لنفسه لذائذ رخيصة من أيسر سبيل ، وهو في الثانية يجد ويكدح ويشقى ليحقق لها لذة فنية رفيعة من أشق سبيل فإذا كان هذا صحيحاً - وما أظنه إلا كذلك - فإنه من غير المعقول أن يكون التأنق في المعيشة داعيا إلى التأنق في الأسلوب الأدبي لما بينهما من تناقض صريح في الوسيلة والغاية .

وبعد ، فإذا كنا لا نطمئن إلى تفسير هذه الظاهرة على هذا النحو فكيف نفسرها إذن ؟ وإلى أي الأسباب نرجعها ؟

أكبر ظني أن سبب هذه الظاهرة الأدبية يتصل اتصالا وثيقا بطبيعة الشعب الفارسي ، أعني بذوقه الفني الذي يكلف بالزخرفة كلفا شديداً ، إذ أنه من المعروف أن هـذا الشعب « فنان ذو غريزة زخرفية قوية »(١) نستطيع أن نلمسهـا بوضوح في جميع ما أنتج الفنان الفارسي من ضروب الفن.

وإن نظرة عامة إلى الفنون الفارسية ، مثل العمارة والتصوير والخزف والتجليد والسجاد والمنسوجات وغيرها من التحف الفنية لتصور لنا ميل الفنان الفارسي الشديد إلى الزخرفة ، تصويراً دقيقا ، إذ أنه كان يتخذ من الرسوم الحيوانية والنباتية والهندسية ومن الصور الآدمية والنقوش الكتابية

(١) الدكتور زكي حسن — الفنون الإيرانية ص ٣٣٤

عناصر زخرفية يعتمد عليها اعتماداً كليا فى تجميل فنه وتزيينه .[١] مما يدل على أن الزخرفة حظ مشترك بين الفنون الفارسية جميعا .

فإذا أضفنا إلى هذا كله أن الأدب البويهى فى جملته كان فارسيا فى نشأته وفى روحه لأنه نما وترعرع فى ظل شعب فارسى وحضارة فارسية ، فإنه من الطبيعى أن يتأثر منشئوه بهذا الميل العام إلى الزخرفة عند الفرس ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الفنانين ، فيكثروا من السجع والجناس والطباق باعتبارها عناصر زخرفية تكسب أدبهم جمالا وزينة .

يتضح من هذا الذى قدمناه أن الفنان الفارسى والأديب الفارسى أو المتأثر بالروح الفارسية كان كلاهما يزخرف فى فنه ابتغاء الحلية والزينة والجمال ، وكان كلاهما أيضا يصدر فى هذه الزخرفة عن واد واحد ، هو هذا الذوق الفنى العام الذى تخضع له جميع الفنون الفارسية .

ولعل مما يدل على تأثر الفنان والأديب فى زخرفتهما بهذا الذوق الفنى العام دون سواه أننا نجد العناصر الزخرفية فى الفن والأدب قائمة على أسس واحدة من التوازن والتوافق والتماثل والتقابل والتكرار ذلك أننا إذا تأملنا التحف الفنية الإيرانية الإسلامية من سجاد أو منسوجات أو خزف أو خشب أو تحف معدنية أو جلد أو جص رأينا فى أغلب الأحيان موضوعات زخرفية مكونة من عناصر مجمعة فى توافق وتوازن جنبا إلى جنب ومكررة فى أشرطة أو مناطق متعددة الأشكال . فمن أمثلة ذلك ، أن الزخارف الآدمية والحيوانية كانت فى الطرز الفنية الإيرانية الإسلامية حلقات فى سلسلة متصلة ، وكانت توضع فى دوائر أو أشرطة أو أشكال هندسية أخرى منفردة ، أو متواجهة أو متدابرة أو متتابعة ، فيتحقق بهذه

---

(١) الفنون الإيرانية للدكتور زكى حسن ص٣٠٦ وما بعدها

الأوضاع التوازن والتماثل والتقابل والتكرار ، تلك المبادئ التى أغرم بها الفنان الإيرانى فى رسمه وزخرفته . (١)

هذا من ناحية الفن ، أما من ناحية الأدب فإننا إذا تأملنا أية قطعة أدبية من إنشاء أديب كالبديع أو الخوارزمى أو غيرهما من أدباء العصر البويهى ، رأينا عناصرها الزخرفية تهدف دائما إلى تحقيق مبادئ التوازن والتماثل والتقابل والتكرار كلها أو بعضها ، ذلك أن السجع والجناس بما فيها من وحدة النغم والصوت والقافية يحققان توازنا وتوافقا وتماثلا ، وأن الطباق بما فيه من معان متضادة يحقق تقابلا ، وأن الإكثار من هذه العناصر يحقق تكراراً ملحوظاً فى القطعة الأدبية ، فإذا هى كقطعة من السجاد المزخرف أو كقطعة موسيقية ذات نغم رتيب . ويكفى دليلا على ذلك أن ننقل هذه القطعة من إنشاء البديع : (٢)

« ولكننا نقول : العرب أوفى وأوفر ، وأوقى وأوقر ، وأنكى وأنكر وأعلى وأعلم ، وأسمى وأسمح وأعطى وأعطف وألطى وألطف وأحصى وأحصف ... الخ »

هكذا نعلل كلف الأدباء بالتأنق والتجويد فى الألفاظ ، أما غلوهم فى المعانى ومبالغتهم وتهويلهم فيها فنعللها أيضاً بأنها صدى لميل الفرس إلى الغلو فى كل شىء ، فقد كانوا منذ القديم مغالين فى خضوعهم لذوى السلطان حتى عبدوا الملوك ، وكانوا مغالين فى ترفهم وزينتهم فامتلكوا المنازل الجميلة والقصور الفخمة والحدائق الغنـــاء التى تكبر وتتسع أحياناً حتى تصبح حظيرة للصيد والقنص أو مأوى لمختلف الحيوانات ، وامتلكوا فاخر الأثاث والرياش ، وامتلكوا الموائد المصفقة برقائق الذهب والفضة ، والأرائك

(١) الفنون الإيرانية للدكتور زكى حسن ص ٣١٢

(٢) رسائل البديع الهمذانى ص ٢٧٩

المغطاة بأبهى الأغطية وأجملها ، ومدوا البسط والسجاجيد الرخوة ذات النسيج اللين والألوان البهيجة الشبيهة بألوان الأرض والسماء ، وشربوا فى كؤوس من ذهب ، وزينوا موائدهم ومناضدهم بالأصص الجميلة .(١)

وكانوا مغالين أيضاً فى رعاية « آداب السلوك » ، فإذا تقابل نظيران احتضن الواحد منهما الآخر عناقاً وقبله فى شفتيه ، أما إذا قابل أحدهم من هو أعلى منه مرتبة وقدراً فعليه أن ينحنى له انحناءة كبيرة كلها خشوع واحترام ، فإذا قابل من هو دونه قدم له وجنته ليقبلها فإذا تقابل مع فرد من عامة الناس حنى له رأسه قليلا فى دعة وهدوء .(٢)

هكذا كان الفرس يميلون كل الميل إلى المبالغة والغلو والإسراف فى كل شىء ، فلما اتصلوا بالأمة العربية بعد الفتح الإسلامى واتخذوا لغتها أداة للتعبير عن مشاعرهم وخواطرهم وأفكارهم انعكس هذا الميل فيما أنتجوا من أدب ولا سيما فى المديح ، ثم جاراهم فى ذلك بقية الأدباء من العرب وغير العرب ، ولهذا رأينا ظاهرة المبالغة والتهويل فى المعانى الأدبية بادية للعيان منذالقرن الثانى الهجرى، نجد أثر ذلك واضحاً عندشاعر كبشار بن برد أو مسلم بن الوليد أو أبى نواس أو غيرهم . مثال ذلك قول أبى نواس (٣) فى مدح الرشيد :

ملك تصور فى القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان
حتى الذى فى الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

ولكن ما كاد يحل القرن الرابع حتى صارت المبالغات أساسا للقول

---

(١) قصة الحضارة الفارسية ص ٦٦ (٢) المصدر السابق ص ٥٧

(٣) ولأبى نواس بيت مشهور أشد إمعانا فى المبالغة من هذين البيتين وهو :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

وارتفع بها الأدباء إلى ما كان يمقت قبلا من غلو وإغراق ، وما ذلك إلا لأن البقية الباقية من الروح العربى والذوق العربى قد ذهبت بذهاب الدولة العباسية ، وحل محلها روح فارسى ، وذوق فارسى فى هذه البلاد ، كنتيجة لعودة السلطان الفارسى من جديد ، وقد ذكرنا فى الفصول السابقة أمثلة كثيرة لذلك .

وبعد ، أليس فى هذا كله ما يدل على أن ظاهرة الأسلوب المحلى بالسجع والبديع ، المبنى على المبالغة والتهويل ، هى أثر من آثار الشخصية الإقليمية فى الأدب العربى بعد أن انتقل من جزيرة العرب وحل فى ديار ليست من دياره ، وعاش بين أناس ليسوا من أهله ؟

* * *

أما الأدب البويهى الشعبى فقد كان خالياً من الصنعة اللفظية ، فلا زخرفة ولا عبارات تجرى مجرى الأمثال أو الحكم ، كما كان خاليا من المعانى العميقة والخيال الدقيق ، فلا مبالغة ، ولا تهويل ، ولا مجازات ولا استعارات بعيدة أو تشبيهات كثيرة ، وإنما كان أدبا بسيطا ، ساذجا فى أساليبه ومعانيه بساطة هذه الحياة الاعتيادية وسذاجتها ، ذلك لأنه كان يصور حياة الدهماء والعامة من أقرب سبيل وبأبسط عبارة ، ولهذا كان من الطبيعى أن تنتقل إليه كثير من الألفاظ والاصطلاحات والمعانى العامية . نجد ذلك واضحا فى أشعار ابن الحجاج وابن سكرة ، وفى أشعار الصعاليك وغيرهم وفى هذه الكثرة الهائلة من الأسمار والقصص الشعبية ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، ولكننا نكتفى بهذا المثال من قصيدة « السوسى » :

الحمـــد لله ليس لى بخت ولا ثياب يضمهـــا تخت

سيان بيـــتى لمن تأملـــه والمهمه الصحصحان والمرت

أمنت فى بيتى اللصوص فما   للص فيه فوق ولا تحت

فمنزلى مطبق بلا حرس   صفر من الصفر حيثما درت

إبريقى الكوز إن غسلت يدى

والطين سعدى ودارى الطست

وعاجل الشيب حين صيرنى   فرزدقى المشيب إذ شبت

ومهما يكن فإن ظاهرة الأدب الشعبى فى العصر البويهى إن هى إلا أثر لتأقلم الأدب العربى وتأثره بالحياة الاجتماعية التى أصبح للعامة فيها شأن كبير فى الأدب . وهذه ميزة أخرى للأدب البويهى يمتاز بها عن غيره من الآداب الإقليمية .

أ. علاء الدين شوقى
www.lisanarb.com